الباب الثالث

العصر العباسي

خطره وأثره ومميزاته

عصر الدولة العباسية هو عصر الإسلام الذهبي الذي بلغ فيه المسلمون من العمران والسلطان ما لم يبلغوه من قبل ولا من بعدُ. أثمرت فيه الفنون الإسلامية، وزَهت الآداب العربية، ونُقلت العلومُ الأجنبية، ونضج العقل العربي فوجد سبيلاً إلى البحث ومجالاً للتفكير. وملوك هذه الدولة يُنْمَوْنَ، إلى العباس عم النبي ﷺ، وانتزعوا الخلافة قَسْراً من يد الأمويين بمعونة الفُرس، وأقاموا عرشها بالعراق، وتبوأه منهم سبعة وثلاثون خليفة في خمسة قرون وبعض القرن، حتى ثلَّ ذلك العرشَ هَلاكو سنة ست وخمسين وستمائة، وما زالت حضارة الدولة وآدابها تهبط بهبوطها، حتى سقطت بسقوطها.

وتختلف هذه الدولة عن الدولة الأموية بأحوال سياسة وعمرانية كان لها الأثرُ الظاهر في أدب اللغة: فالدولة الأموية كانت عربية خالصة، تعصبت للعرب ولغتهم وآدابهم، وجعلت قاعدتَها دمشق على حدود باديتهم. وكان جنودها وقوادها وكتابها وسائر عمالها من العرب، فلم يحدث في أدب اللغة تأثير إلا ما اقتضاه التحضر واتساع العمران.

أما الدولة العباسية فقد اصطبغت بصبغة فارسية، لأن الفرس هم الذين أوجدوها وأيدوها، فاتخذت قصبتها بغداد أقرب الأمصار إلى بلادهم، وأطلق الخلفاء أيدي الموالي في سياسة الدولة فاستقلوا بشؤونها، واستبدوا بأمورها، وكالوا للعرب من الحقارة والمهانة صاعاً بصاع. فضعفت العصبية العربية، وعلا صوت الشعوبية، ونتج من ذلك دخول العناصر الفارسية والتركية والسريانية والرومية والبربرية في تكوين الدولة، وتمازجهُم بالتزواج والتناسل، واختلاط المدنية الآريَّة بالمدينة الساميَّة، ولكل منهما لغة وأخلاق وعادات واعتقادات أثرت في الأخرى. ناهيك بما امتازت به هذه الدولة من إطلاق الحرية في الدين، وتعدد الفرَق وشيوع المقالات المختلفة في الإلحاد والسياسة، وتكاثر الجواري والغلمان، والاسترسال في الخلاعة والمُجُون، والتأنق في الطعام واللباس، والتنافس في البناء والرياش. وكل ذلك له أثر بينٌ في اللغة وآدابها سنجمله فيما يلي من هذه السطور.

الفصل الأول

اللغة وأثر الفتوح والسياسة والحضارة فيها

فتح العرب في أواخر الدولة الأموية أكثر المعروف حينئذ من الدنيا القديمة، فامتد ملكهم من الهند والصين شرقاً، إلى جبال بيرانس غرباً، وانبسط سلطانهم على تلك الشعوب، واستولى دينهم على الأفئدة، ولغتهم على الألسنة، فتعربت هذه الأمم المختلفة، وامتزجت تلك العناصر المتباينة، وسارعوا إلى تعلم اللغة والتكلم بها تقرباً من الفاتح، واستدراراً للرزق، وتفقها في الدين، فكثر اللحن وسرت عداوة إلى البادية وقد كان قاصراً على الحاضرة. ويقي داء العجمة يستفحل بين العامة والصناع بالرغم من محاربة الأئمة وأولي الأمر لهذا الوباء بتدوين علوم اللسان وتقبيح العامية ومقت المتكلمين بها، حتى نشأ في كل إقليم لغة عامية مؤلفة من الهربية ومن لغة الإقليم الوطنية.

وقد اتسعت دائرة اللغة بما اقتضاه تمدن الدولة ونقل العلوم عن الفارسية والهندية واليونانية من المصطلحات العلمية والألفاظ الإدارية والسياسية والاقتصادية والمنزلية. وكان لدار الحكمة التي أنشأها المأمون الفضل الأكبر في تهذيب الكتب المترجمة وتوحيد الأسماء المعربة. ثم رقّت الألفاظ لانغماس القوم في الحضارة، وإخلادِهم إلى الترف، وإيثار الموالي للكلم السهل والأسلوب البيّن، لأنهم حذقوا اللغة بالدراسة والصنعة، لا بالتلقين والطبع.

واقتبست العربية من الفارسية غير الألفاظ كثيراً من الأساليب، كالتبجيل في الخطاب، والاحتشام مع المخاطب، وإسنادِ الشيء إلى الحضرة والجناب والمجلس، وإحداث الألقاب والنعوت للخلفاء والوزراء والكتاب والقواد، كالسفاح والمنصور والرشيد وذي الرياستين وركن الدولة إلخ، والإسهاب في العهود والرسائل، وتأديةِ المعنى الواحد بألفاظ كثيرة وجمل مترادفة، وغير ذلك مما زان اللغة من جهة وشانها من جهة أخرى.

وما زالت اللغة تتسع وتنمو باتساع الملك وتقدم العلم ونمو الحضارة، وتنتشر وتسمو في حمى الدين وظل الخلافة وسلطان العرب، حتى خلافة المتوكل على اللّه سنة ٢٣٢ إذ

استفحل أمر الأتراك الذين جلبهم المعتصم من التركستان فأخذوا يغالبون العرب، ويوالون الفرس، ويغتصبون السلطان. وكان الأمر للموالي بعد غلبة المأمون وهم شيعة فجاء المتوكل فعضد الأتراك ونصر السنة. فتقاتل العنصران، وتناضل المذهبان، وابتغى كل منها الفلج والفوز بقهر العرب وكبت الخلفاء، حتى ذهب جلال الخلافة من النفوس، وزالت هيبتها من القلوب، فاستشرف ولاة الأطراف إلى الاستقلال، وبدأ بنو بويه فوضعوا أيديهم سنة ٣٣٤هـ على شؤون الدولة في بغداد. وامتد نفوذهم إلى جُل الممالك الشرقية الإسلامية، فأخذ سلطان العرب والعربية يتراجع في الشرق، وهبَّ أحفاد الأكاسرة وأبناء الدهاقين يستردون مجد أجدادهم، ويطاردون اللغة ونفوذها من بلادهم. وطلبوا إلى شعرائهم من أمثال الدقيقي والفردوسي أن يجددوا مفاخر الأسلاف بتأليف المنظومات القصصية والأناشيد القومية. ومن العجيب أن تم لهم ذلك سريعاً، فإن المتنبي، وهو من رجال القرن الرابع يقول وقد زار شعب بوان من بلاد الفرس:

مغاني الشعب طيباً في المعاني بمنزلة الربيع من الزمان
ولكن الفتى العربيّ فيها غريبُ الوجه واليد واللسان
ملاعب جنة لو سار فيها سليمان لسار بترجمان

ثم اقتدى بالفُرس في ذلك الأتراك والأكراد. ولكن العربية بقيت في حمى القرآن تدافع سبيل الفارسية والتركية الجارف، وقد عز النصير من أهلها، حتى غلب التتار على بغداد فغُلبت على أمرها وخضعت لقانون الطبيعة القاهر، بعد ما خلفت في تلك البلاد شرائع وعلوماً وآداباً لم تقو على محوها الأيام.

الفصل الثاني

النثر

الكتابة

الإنشاء مَظهر العقل، ومرآة الخاطر، يتأثر بما ينال المداركَ والمشاعر من عوامل الحضارة، ونتائج العلم، وظواهر العمران.

ولقد كان لذلك الانقلاب العباسي أثرٌ عظيم في العقول والميُول ظهر على أقلام الكاتبين وألسنتهم. فقد استنبطوا عيون المعاني. وتخيروا شريف الألفاظ، مما لم يكن حوشيًا ولا سُوقيًا، وفتحوا أبواب البديع، وعُنُوا بالتنميق والتنسيق.

ولما استبحر العمران، وطما بحر الخراج، واتسع نطاق الدولة، ولم تعد الكتابة مقصورة على الدواوين وإنشاء الرسائل كما كانت في الدولة الأموية، بل تعهدتها إلى أغراض شتى، كالتصنيف والترجمة. والمقالات والمقامات، والعهود، والوصف، والمناظرة، وإنشاء الكتب في الإهداء والاستهداء، والتعارف قبل اللقاء، والشكر والعتاب والتعازي والتهاني والاستعطاف، وغير ذلك من المعاني الحضرية التي لم يعهد أكثرها من قبل.

وحلت الكتابة محل الخطابة في قمع الأهواء، وردع الأعداء، وإطفاء الفتن، وتأليف القلوب. ثم تنوع الكتّاب بتنوع الدواوين: فكان منهم كتّاب الخراج والنفقات، وكتّاب المظالم والقضاء، وكتّاب الجيش والشرطة، وكتّاب الضياع والإقطاع، وكتّاب الرسائل، وهؤلاء هم أساطين البلاغة واستاذوا البيان، وموضوع أدب اللغة؛ لأن كتابة غيرهم لا تعتمد على فن ولا تقوم على ذوق.

وظلت الكتابة في أول العصر العباسي على أسلوب عبد الحميد من الميل إلى الإيجاز والقصد في الغلو والتنميق، ولا سيما في الرسائل والتوقيعات، فإن النظر فيها أكثر ما يكون للخلفاء والوزراء، عنهم تصدر، وإليهم ترد. وكان جعفر بن يحيى يقول في إيثار الإيجاز: «إن إستطعتم أن تجعلوا كتبكم كلها توقيعات فافعلوا».

فلما نزع العرب إلى الترف، وزاد اختلاطهم بالفرس، أخذوا يتأنقون ويطيلون. وازداد ذلك بتراخي الزمن حتى خرجوا عن أساليب القدماء، وعاقبوا الجملَ على المعنى الواحد، ورأوا ذلك التكرار أبلغَ للمعنى، وأوقع في النفس. وانتقدوا مذهب الإيجاز في صدر الإسلام وبعده كقول يزيد لمروان وإن وقد تلكّأ في بيعته: «أراك تقدم رجلاً وتؤخر أخرى فاعتمد على أيهما شئتَ» فقال ابن قتيبة في أدب الكاتب. «إن هذا لو قيل الآن لم يأت بالتأثير المطلوب. والصواب أن يطيل ويكرر، ويُعيد ويُبدىء، ويحذر وينذر». ثم مالوا إلى الازدواج والسجع، وتضمين الأشعار والأمثال. وكل ذلك جار مجرى الطبع لحسن التصرف في المعنى وقلة التكلف في اللفظ.

فلما ضعفت الخلافة وقام بالأمر غير أهله، سَرى الضعف إلى الكتابة، فجهل أربابها الغرض منها، ومالوا إلى زخرف القول وتدبيج اللفظ بأنواع البديع، وأوغلوا في ذلك حتى سمحت مبانيهم وفسدت معانيهم، فكانت مموّهة الظاهر مشوّهة الباطن، كسيف من الخشب في غمد من الذهب. وليتهم وقفوا بهذا الأسلوب عند الرسائل والعهود، بل خرجوا به إلى تصنيف الكتب وتدوين العلوم، كتاريخ العُتْبي والفتح القدسي.

وكتّاب هذا العصر أربع طبقات نبغَتْ كل طبقة في عصر من عصوره الأربعة:

فالطبقة الأولى: إمامها ابن المقفع. وطريقته تنويع العبارة، وتقطيع الجملة، والمزاوجة بين الكلمات، وتوخي السهولة، والعناية بالمعنى، والزهد في السجع. وقد حدَّ البلاغة فقال: «هي التي إذا سمعها الجاهل ظن أنه يحسن مثلها». وقال لبعض الكتاب: «إياك وتَتبُّع الوحشيِّ من الكلام طمعًا في نيل البلاغة فإن ذلك هو العِيُّ الأكبر». وقال لآخر: «عليك بما سهل من الألفاظ مع التجنب لألفاظ السفلة». ومن رجال هذه الطبقة يعقوب بن داود، وجعفر بن يحيى، والحسن بن سهل، وعمرو بن مسعدة، وسهل بن هرون، والحسن بن وهب.

والطبقة الثانية: إمامها الجاحظ. وطريقته أشبه بالطريقة الأولى في سهولة العبارة وجزالتها، وإنما تمتاز بتقطيع الجملة إلى فقرات كثيرة مقفّاة أو مرسلة، وزيادة الإطناب في الألفاظ والجمل، والاستطراد، ومزج الجد بالهزل لدفع سآمة القارىء، وتحليل للمعنى واستقصائه، وتحكيم العقل والمنطق، والاعتراض بالجمل الدعائية. ومن رجال هذه الطبقة ابن قتيبة والمبرد والصولي.

والطبقة الثالثة: إمامها ابن العميد وطريقته أعلق بالنفس وأملك للوجدان لأنها شعر لا يعوزه إلا الوزن. وهي أشبه بالطريقة الإتّباعية عند الفرنج. لتقيدها بقيود لا بدَّ من مراعاتها وتغلبها على سائر الأساليب.

فمن قيودها السجع القصير، والجناس، وتضمين المُلَح من التاريخ والعلوم، والاستشهاد بالنظم في غضون النثر، والتوسع في الخيال والتشبيه؛ مع إجادة المعنى وسلامته. ومن رجالها الصاحب بن عباد، والوزير المهلبي، والخوارزمي، والبديع، والصابي، والثعالبي. ومن آثار هذه الطبقة المقامات.

والطبقة الرابعة: إمامها القاضي الفاضلي. وطريقته مؤسسة على أصول الطريقة الثالثة من توخي السجع والبديع، إلا أنه غالى في التورية والجناس حتى أصبحت الكتابة في عهده صناعية محضاً: ألفاظ منمقة تحتها معنى غثٌّ وخيال ضئيل. ومن رجالها ابن الأثير صاحب المثل السائر، والكاتب الأصبهاني.

على أنَّ عقيدة الكتَّاب أن استظهار المأثور من المنثور هو عُدَّة الثقافة وسبيل التفوق كانت تختلف بين الأقلام، وتتباعد بين الأساليب، فتعدّدت مذاهب الكتابة في العصر الواحد، فتجد في عصر الجاحظ من يقلد ابن المقفع كابن عبد ربه. وفي عصر ابن العميد من يقلد الإمام علياً كالشريف الرضي. ولكن المعاصرين بالرغم من ذلك يخضعون لأحوالهم السياسية والاجتماعية، فيكون لإنشائهم طابع خاص يميزهم من باقي العصور.

الخطابة

كان للخطابة في صدر هذا العصر مكانةٌ في النفوس وسلطان على القلوب؛ لاعتماد القوم عليها في توطيد الملك، وتحميس الجند؛ واستقبال الوفود. وكان للخلفاء الأولين وضعتهم فيها الشأن الرفيع والشأو البعيد، كالمنصور والمهدي والرشيد والمأمون وداود بن علي وخالد بن صفوان وشبيب بن شبيبة.

فلما استوثق الأمر لبني العباس وقام الموالي بسياسة الدولة وقيادة الجيش، وقلّ الفضال باللسان واللسان، ضعفت الخطابة لضعف القدرة عليها، وقلة الدواعي إليها، وحلت الرسائل والمنشورات محلها في دفع العظائم وسل السخائم. وقصُرت على خطب الجُمَع والعيدين والزواج. على أن الخلفاء أنفسهم ما برحوا يخطبون الناس ويؤمونهم إلى عهد الخليفة الراضي. فلما غل بنو بويه أيديهم وحصروهم في دورهم عهدوا بالخطابة والإمامة إلى الكفاة من العلماء؛ فنبغ في آخر هذا العصر طائفة من الأدباء شُهروا بهذا النوع من الخطابة: كالخطيب البغدادي والخطيب التبريزي. ولما استعجم المسلمون وملَك العيُّ ألسنة الوعاظ فلم يستطيعوا إنشاء الخطب في الموضوعات المختلفة، عمدوا إلى استظهار خطب أسلافهم كابن نباتة المصري، وأخذوا يرددونها فوق المنابر من غير فهم لمعناها، ولا علم بمغزاها. ودرجوا على هذه الحال المخزية تلك القرون الطويلة حتى أدركتها عوامل النهضة المصرية الحديثة فرقاها قسم الوعظ والإرشاد بالجامعة الأزهرية.

نماذج النثر

التوقيعات:

التوقيعات هي ما يعلقه الخليفة أو الأمير أو الوزير أو الرئيس على ما يقدم إليه من الكتب في شكوى حال أو طلب نوال. وميزتها الجمع بين الإيجاز والجمال والقوة. وقد تكون آية أو مثلاً أو بيت شعر. مثالها:

وقع السفاح في كتاب لأبي جعفر وهو يحارب ابن هُبَيْرَة بواسط: إن حلمك أفسد علمك، وتراخيَك أثر في طاعتك. فخذلي منك، ولك من نفسك.

وقع أبو جعفر المنصور في كتاب عبد الحميد صاحب خراسان: شكوت فأشكيناك، وعتبت فأعتبناك، ثم خرجت على العامة، فتأهب لفراق السلامة. ووقع إلى صاحب مصر حين كتب يذكر نقصان النيل: طهِّر عسكرك من الفساد، يعطك النيل القياد. ووقع في كتاب أتاه من صاحب الهند يخبره أن جنداً شغبوا عليه وكسروا أقفال بيت المال: لو عدلت لم يشغبوا، ولو وفيت لم ينهبوا.

وقع هارون الرشيد إلى صاحب خراسان: داو جُرحك لا يتسع. ووقع في نكبة جعفر بن يحيى: أنبتته الطاعة وحصدته المعصية.

وقع المأمون إلى الرستمي في قصة من تظلم منه: ليس من المروءة أن تكون آنيتك من ذهب وفضة، وغريمك خاو، وجارك طاو. ووقع في قصة متظلم من أبي عيسى أخيه: **﴿فإذا نفخَ في الصُّور فلا أنسَابَ بينهُمْ يومئذ وَلا يتساءلون﴾**. وكتب إليه إبراهيم بن المهدي: إن غفرت فبفضلك، وَإن أخذتَ فبعدلك. فوقع في كتابه: القدرة تذهب الحفيظة، والندم جزء من التوبة، وبينهما عفو الله. ووقع في رقعة مَوْلى طلب الكسوة: لو أردت الكسوة للزمت الخدمة، ولكنك آثرت الرقاد فحظك الرؤيا.

وقع جعفر بن يحيى في قصة محبوس: العدل أُوثقه، والتوبة تطلقه، وَوقع في كتاب رجل شكا إليه بعض عماله: قد كثر شاكوك، وقلَّ شاكروك، فإما اعتدلْت، وإما اعتزلْت.

ووقعَ في قصة مستمنح قد أعطاه مراراً: دَعِ الضرع يدر لعيرك كما دَرَّ لك.

الخطب:

خطب المنصور بعد قتل أبي مسلم قال:

أيها الناس: لا تخرجوا من أنس الطاعة إلى وحشة المعصية، ولا تُسرُّوا غش الأئمة؛ فإنه لم يسر أحد قط منكرة إلا ظهرت في آثار يده، أو فلتات لسانه، وأبداها الله لإمامه،

(١) سورة المؤمنون الآية: ١٠١.

لإعزاز دينه وإعلاء حقه. إنا لن نبخسكم حقوقكم، ولن نبخس الدين حقه. إن من نازعنا عروة هذا القميص أجْزَزْناه خبىء هذا الغمد. إن أبا مسلم بايعنا وبايع الناس لنا على أن من نكث فقد أباح دمه، ثم نكث بنا فحكمنا عليه حكمه على غيره، ولم تمنعنا رعاية الحق له من إقامة الحق عليه.

ومن خطبة لعبد الملك بن صالح الهاشمي بعد أن خرج من السجن يذكر فيها ظلم الرشيد أباه:

والله إن الملك لشيء ما نويته ولا تمنيته، ولا قصدت إليه ولا ابتغيته ولو أردته لكان أسرعَ إليَّ من السيل الحَدور، ومن النار إلى يابس العَرْفَج. وإني لمأخوذ بما لم أجْنِ، ومسئول عما لا أعرف. ولكنه والله حين رآني للملك قمناً، وللخلافة خطراً، ورأى لي يداً تنالها إذا مُدت، وتبلغها إذا بسطت، ونفساً تكمل لخصالها، وتستحقها بخلالها ـ وإن كنت لم أختر تلك الخصال، ولا اصطنعت تلك الخلال، ولم أرشح لها في سر، ولا أشرت إليها في جهر، ورآها تَحِنُّ إليَّ حنين الوالدة، وتميل إليَّ ميل الهلوك، وخاف أن تنزع إلى أفضل منزع، وترغب في خير مرغب، عاقبني عقاب من قد سهر في طلبها، ونصب في التماسها. وتفرد لها بجهده وتهيأ لها بكل وسعه، فإن كان إنما حبسني على أني أصلح لها وتصلح لي، وأليق بها وتليق بي، فليس ذلك بذنب فأتوب منه، ولا تطاولت إليه فأحط نفسي عنه. وإن زعم إنه لا صَرْف لعقابه، ولا نجاة من عذابه، إلا بأن أخرج له من الحكم والعلم، والحزم والعزم، فكما لا يستطيع المضيع أن يكون حافظًا، كذلك لا يستطيع العاقل أن يكون جاهلاً، وسَواء عليه أعاقبني على عقلي أم عاقبني على طاعة الناس لي. ولو أردتها لأعجلته عن التفكير، وشغلته عن التدبير، ولم يكن لما كان من الخطب إلا اليسير. ومن المجهود إلا القليل!

وخطب داود بنُ عليٍّ يوم بيعة أبي العباس على منبر الكوفة قال:

شكراً شكراً! إنا والله ما خرجنا لنَحْفُر فيكم نهراً، ولا لنبني فيكم قصراً. أظنَّ عدوَّ الله أن لن نقدر عليه أن رُوحي له من خطامه، حتى عثر في فضل زمامه؟ فالآن حيث أخذ القوس باريها، وعاد القوسَ إلى النزَعة، ورجع الملك إلى نصابه في أهل بيت النبوّة والرحمة، أمِنَ الأسودُ والأحمر. ولكم ذمة الله. لكم ذمة رسول الله ﷺ. لكم ذمة العباس لا وربِّ هذه البَنيَّة ـ وأومأ بيده إلى الكعبة ـ لا نهيج منكم أحداً.

وخطب شبيب بن شيبة يعزي المهدي يوم توفيت آبنته قال:

أعطاك الله يا أمير المؤمنين على ما رُزئتَ أجراً، وأعقبك صبراً، ولا أجهد الله بلاءك

بنقمَة، ولا نزع منك نعمة. ثواب الله خير لك منها. ورحمة الله خير لها منك، وأحقُّ ما صبر عليه ما لا سبيل إلى رده!

الرسائل:

كتب أحمد بن يوسف إلى إبراهيم بن المهدي في هدية استقلها:

بلغني استقلالك لما ألطَفتْك. والذي نحن عليه من الأنس سهل علينا قلة الحشد لك في البر، فأهدينا هدية من لا يحتشم، إلى من لا يغتنم.

وكتب في تهنئته بابلاله من مرض:

قد أذهبَ الله وصَب العلة ونصبها؛ ووفر أجرها وثوابها، وجعل فيها من ارغام العدوّ بعُقباها، أضعافَ ما كان عنده من السرور بأولاها.

وكتب محمد بن عبد الملك الزيات على لسان الخليفة لأحد العمال:

أما بعد: فقد انتهى إلى أمير المؤمنين كذا فأنكره، ولا تخلو من إحدى منزلتين ليس في واحدة منهما عُذر يوجب حجة، ولا يزيل الأئمة: إما تقصير في عملك دعاك إلى الإخلال بالحزم والتفريط في الواجب، وإما مظاهرة لأهل الفساد ومداهنة لأهل الريب. وأية هاتين كانت منك، مُحِلة للنُّكْر بك، وموجبة للعقاب عَليك، لولا ما يلقاك به أمير المؤمنين من الأنَاة والنَّظِرَة والأخذ بالحجة، والتقدم في الإعذار والإنذار، وعلى حسب ما أقِلْتَ من عظم العَثرة يجب اجتهادك في تلافي التقصير والإضافة. والسلام.

وكَتب أبو الفضل ابن العميد إلى أبي عبد الله الطبري:

كتابي وأنا بحال لَوْ لم ينغصْ منها الشوقُ إليك، ولم يُرَقِّقْ صفوَهَا النزوعُ نحوك، لَعدَدتُها مِن الأحوال الجميلة، وأعددتُ حَظِّي منها في النِّعَم الجليلة، فقد جمعت فيها بين سلامة عامة، وحَظيتُ مِنها في جسمي بصلاح، وفي سَعْيي بنجاح؛ لكنْ، ما بَقِي أن يَصفوا عَيشٌ مع بُعدي عنك ويخلو ذَرْعي مع خلوِّي منك، ويسوغ لي مطعمٌ ومشربٌ مع انفرادِي دونَك، وكيف أطمعُ في ذلك وأنت جزءٌ من نفسي، وناظمُ لشَمل أنسي. وقد حُرِمْتُ رؤْيتك، وعدمت مشاهدتك. وهل تسكُنُ نفْسٌ مُتَشعِّبةٌ ذات انقسام، وينفعُ أُنسُ بَيْت بلا نظام، قرأْت كِتابك ـ جعلني الله تعالى فداءك ـ فامتلأتُ سروراً بملاحظة خطِّكَ، وتأمُّلِ تصرُّفك في لفْظك. وما أُمرِّظُهما، فكل خصالك مقرَّظ عندي. وما أمدَحهما، فكل أمرك ممدوحٌ في ضميري وعقْدي. وأرجو أن تكونَ حقيقة أَمْرُكَ موافِقةً لتقْديري فيك، فإنْ كانَ كذلك وإلا فقد غَطى هَواكَ وما ألْقَى عَلَى بَصري.

المقامات

المقامة الحرزية لبديع الزمان الهمذاني

حدثنا عيسى بنُ هشام قال: لما بلغتْ بي الغربةُ بابَ الأبواب، ورضيتُ من الغنيمة بالإياب، ودونه من البحر وثّابٌ بغاربه، ومن السفن عسّاف براكبه، استخرتُ الله في القُفول، وقعدت من الفلك، بمثابة الهُلك. ولما ملكنَا البحرُ وجن علينا الليل، غشيتنا سحابة تمد من الأمطار حبالاً، وتحوذُ من الغيم جبالاً بريح ترسل الأمواج أزواجًا، والأمطار أفواجاً، وبقينا في يد الْحَينِ، بين البحرين، لا تملك عُدَّة غير الدعاء، ولا حيلة إلا البكاء. ولا عصمة غير الرجاء. وطويناها ليلة نابغية، وأصبحنا نتباكى ونتشاكى، وفينا رجل لا يخضلُّ جفنه، ولا تبتل عينه، رخيُّ الصدر منشرحه، نشيط القلب فرحُه. فعجبنا والله كل العجب. وقلنا له: ما الذي آمنك من العطب؟ فقال: حرز لا يغرق صاحبه. ولو شئت أن أمنح كلاً منكم حرزاً لفعلت. فكلٌّ رغب إليه، وألح في المسألة عليه. فقال لن أفعل ذلك حتى يعطيني كل واحد منكم ديناراً الآن ويعدني ديناراً إذا سلم. قال عيسى بن هشام: فنقدناه ما طلب، ووعدناه ما خطب، وآبت يده إلى جيبه فأخرج قطعة ديباج، فيها حُقة عاج، قد ضمَّن صدرها رقاعاً وحذف كل واحد منا بواحدة منها. فلما سلمت السفينة، وأحلّتْنا المدينة، اقتضى الناس ما وعدوه، فنقدوه. وانتهى الأمر إليَّ فقال دعوه فقلت لك ذلك، بعد أن تعلمني سرَّ حالك. قال: أنا من بلاد الاسكندرية. فقلت: كيف نصرك الصبر وخَذَلنا؟ فأنشأ يقول:

ويْك لولا الصبر ما كُنْـ ـت ملأتُ الكيس تبرا
لن ينال المجدَ من ضا ق بما يخشاه صدرا
ثم ما أعقبني السا عة ما أُعطيتُ ضُرا
بل به أشند أزراً وبه أجبر كسرا
ولو أني اليوم في الغر قى لما كلفت عذرا

ومن المقامة البغدادية للحريري على لسان عجوز مستجدية:

اعلموا يا آمال، وثمال الأرامل، أنى من سَرَوات القبائل، وسَريَّات العقائل، لم يزَل أهلي وبعلي يحلون الصَّدر، ويسيرون القلب، ويُمْضون الظهر، ويولون اليد. فلما أردى الدهرُ الأعضاد، وفَجَعَ بالجوارح الأكباد، وانقلب ظهراً لبطن، نبا الناظر، وجفا الحاجب، وذهَبَتِ العين، وفقدت الراحة، وصَلَد الزند، ووَهَنَتِ اليمين. وضاع اليسار، وبانت المرافق، ولم يبق لنا ثنية ولا ناب. فمذ اغبرَّ العيش الأخضر، وازوَرَّ المحبوب الأصفر اسودَّ يومي الأبيض، وابيض فَوْدي الأسود؛ حتى رثى لي العدو الأزرق، فحبذا الموت الأحمر!

الفصل الثالث

الكُتَّاب

٣٠ ـ ابن المقفع
٧٢٤ ـ ٧٥٩ م
١٠٦ ـ ١٤٢ هـ

نشأته وحياته:

عبد الله بن المقفع كاتب فارسي الأصل عربي النشأة. ولد حوالي سنة ست ومائة للهجرة، ونشأ بالبصرة على ما ينشأ عليه أبناء اليسار، وكان والده داذويه المجوسي يتولى خراج فارس للحجاج بن يوسف، فاحتجن من مال السلطان شيئًا، فضربه الحجاج حتى تقفعت يده فلقب بالمقفع. وربيَ عبد الله منذ طفولته على النمط الإسلامي وأولع بالعلم وهو فارغ القلب من هموم العيش، فنبغ وهو يافع في الكتابة باللغتين الفارسية والعربية، فاستكتبه في عهد بني أمية داود بن هُبيرة، وفي عهد بني العباس عيسى بن علي عم المنصور، وعلى يديه أسلم. قال له ذات يوم: «قد دخل الإسلام في قلبي وأريد أن أسلم على يدك»، فطلب إليه عيسى أن يغدو عليه بين القواد ورؤوس الأجناد ليكون إسلامه مشهوداً. ثم حضر معه المائدة عشية ذلك اليوم فجعل يأكل ويزمزم على عادة المجوس. فلما كلمه عيسى في ذلك قال «كرهت أن أبيت على غير دين» ثم غدا عليه فأعلن إسلامه، وتسمى عبد الله واكتنى أبا محمد، وقد كان اسمه من قبل روزبة.

---

٣٠ ـ انظر ترجمته في: أخبار الحكماء: ص ١٤٨، وأمراء البيان: ص ٩٩ ـ ١٥٨، وأمالي المرتضى: ٩٤/١، وتاريخ اليعقوبي: ١٠٤/٣، وتاريخ الطبري: ١٨٢/٩، وخزانة الأدب: ٤٥٩/٣ ـ ٤٦٠، ومعجم المطبوعات: ٢٤٩، والبداية والنهاية: ٩٦/١٠، وسير أعلام النبلاء: ٢٠٨/٦، والأعلام للزركلي: ١٤٠/٤

وقد قيل إنه أسلم ابتغاء عرض الدنيا. ورُمي بالإلحاد لمعارضته القرآن، وترجمته كتب الزنادقة، وتمثُّلِه حينما مر على بيت ناز للمجوس ببيتي الأحوص:

يا بيت عاتكة الذي أتَعزَّلُ حذر العدى وبه الفؤاد موكل
إني لأمنحك الصدودَ وإنني قسما إليك مع الصدود لأمْيَل

وبقي ابن المقفع في خدمة عَمَّيْ المنصور عيسى وسليمان حتى كانت حادثة الأمان الذي كلف أن يكتبه عن لسان المنصور لعمه عبد الله، فإنه تشدد فيه على الخليفة بمثل قوله: «ومتى غدر أمير المؤمنين بعمه عبد الله فنساؤه طوالق، ودوابه حُبَّسٌ، وعبيده أحرار، والمسلمون في حِلّ من بيعته» فوجِد المنصور عليه وأوعز بقتله إلى سفيان بن معاوية المهلبي أمير البصرة، وكان يضطغن على ابن المقفع لسخره منه واستخفافه به في حضرة وجوه البصرة. فقد قالوا إنه كان كبير الأنف، فكان كلما دخل عليه ابن المقفع قال: (السلام عليكما) يعني سفيان وأنفه. فاهتبل الأمير هذه الفرصة وقتله حرقًا بالنار بالغًا من العمر ستًا وثلاثين سنة.

أخلاقه وعلمه:

كان ابن المقفع ذكي القلب فصيح المنطق ضليعًا في أدب العرب والفرس «مقدَّمًا في بلاغة اللسان والقلم ووالترجمة واختراع المعاني وابتداع السِّير. وكان يتعاطى الكلام ولا يحسن منه لا قليلاً ولا كثيراً».

وقد قيل: لم يكن للعرب بعد الصحابة أذكى من الخليل، ولا كان في العجم أذكى من ابن المقفع. وقد اجتمع هذان الصديقان لأول مرة. فمكثا يتحدثان ثلاثة أيام ثم افترقا فقيل للخليل كيف رأيت عبد الله؟ فقال ما شئت من علم وأدب! إلا أن علمه أكثر من عقله. وقيل لعبد الله كيف رأيت الخليل؟ فقال ما شئت من علم وأدب! إلا أن عقله أكثر من علمه. وقد سئل ابن المقفع: من أدَّبك؟ فقال نفسي: كنت إذا رأيت من غيري حسناً أتيتُه، وإن رأيت قبيحاً أبيتُه. وكان في سائر أحواله عفيفًا أديبًا وفيًا لأصحابه. وأمره مع عبد الحميد الكاتب شهيد بذلك.

نثره وشعره:

ابن المقفع إمام الطبقة الأولى من الكتَّاب. وقد استخلص من الأسلوب الفارسي والعربي طريقة في الكتابة عُرفت به وأخذت عنه. وقد فصلنا ذلك في أثناء كلامنا عن النثر في هذا العصر فارجع إليه. أما شعره فقليل جيد، روى صاحب الحماسة منه في قوله في رثاء يحيى بن زياد:

رُزِئْنا أبا عمر ولا حيَّ مثلهُ فلله رَيْبُ الحادثات بمن وقع!

فـإن تَـكُ قـد فـارقتنـا وتـركتنـا ذوي خـلةٍ فـي انـسـدادٍ لـهـا طـمـع
فـقـد جـرَّ نفـعـاً فقـدُنـا لـك أننـا أمِنَّـا على كـل الـرزايـا مـن الجـزع

مترجماته ومؤلفاته:

ابن المقفع مترجم قدير لا تلمح في ترجمته أثر العجمة، وتكاد لا تفرق بين نقله ووضعه. وكتابه كليلة ودمنة إذا صح أنه مترجَم لا يزال مثالاً للترجمة الصحيحة البليغة. وهو كما قال القفطي أول من اعتنى في الملة الإسلامية بترجمة الكتب المنطقية لأبي جعفر المنصور، فترجم كتب أرسطو الثلاثة في المنطق. وكتاب إيساغوجي لفرفوريوس الصوري؛ نقلها عن ترجمة بالفارسية لأنه لم يعرف غيرها على الأرجح: ونقل كتاب التاج في سيرة أنوشروان. وألف كتابَيْ الأدب الصغير والكبير في الأخلاق، وكتاب اليتيمة في طاعة السلطان.

نموذج من نثره:

قال: لا يؤمننَّك شرَّ الجاهل قرابةٌ ولا جوارٌ ولا إلف، فإن أخوفَ ما يكون الإنسان لحريق النار أقربَ ما يكونُ منها. وكذلك الجاهلُ إن جاورك أنصبك، وإن ناسبك جنى عليك، وإن ألِفَك حمل عليك ما لا تطيق، وإن عاشرك آذاك وأخافك؛ مع أنه عند الجوع سَبُعٌ ضارٍ، وعند الشبَع ملك فظ، وعند الموافقة في الدِّين قائدٌ إلى جهنم: فأنت بالهرب منه أحق منك بالهرب من سم الأساوِد، والحريق المُخوف، والدِّين الفادح، والداء العَياء».

وقال أيضًا: «إن استطعت أن تُنْزِل نفسَك دون غايتك في كل مجلس ومقام ومقال ورأي وفعل فآفعل. فإن رفع الناس إياك فوق المنزلة التي تحطُّ إليها نفسَك، وتقريبَهم إياك في المجلس الذي تباعدت عنه، وتعظيمَهم من أمرك ما لم تعظمِ، وتزيينهم من كلامك ما لم تزين، هو الجمال».

وقال أيضًا: كان لي أخ أعظم الناس في عيني. وكان رأسَ ما عظمه في عيني صغرُ الدنيا في عينه. كان خارجاً من سلطان بطنه، فلا يشتهي ما لا يجد ولا يكثر إذا وجد. وكان خارجاً من سلطان لسانه، فلا يتكلم بما لا يعلم، ولا يُماري فيما علم. وكان خارجاً من سلطان الجهالة، فلا يتقدم أبداً إلا على ثقة بمنفعه. وكان أكثر دهره صامتًا، فإذا قال بذَّ القائلين. وكان ضعيفًا مستضعفًا، فإذا جد الجِدَّ فهو الليث عاديًا وكان لا يدخل في دعوى، ولا يشارك في مِراء، ولا يُدلي بحُجة حتى يرى قاضيًا فَهْماً وشهوداً عُدولاً وكان لا يلوم أحداً فيما يكون العذرُ في مثله حتى يعلم ما عذرُه. وكان لا يشكو وجعه إلا عند من يرجو عنده البرْء، ولا يستشير صاحبًا إلا أن يرجوَ منه النصيحة. وكان لا يتبرَّم ولا يتسخَّط ولا يتشهى،

ولا ينتقم من العدو ولا يغفل عن الـولي، ولا يخص نفسه بشيء دون إخـوانه من اهتمـامه وحيلته وقوته.

فعليك بهذه الأخلاق إن أطقتها، وإن تطيق. ولكن أخذ القليل خير من ترك الجميع.

٣١ ـ الجـاحـظ
٧٨٠ ـ ٨٦٩ م
١٦٣ ـ ٢٥٥ هـ

نشأته وحياته:

ولد أبو عثمان عمرو بن الجـاحظ بالبصـرة ونشأ بهـا وهي يومئـذ مهد العلم ومنتـدى الأدب، فأكبَّ على الدرس وجد في التحصيل وأخذ عن جهابذة اللغة والرواية كالأصمعي وأبي عبيدة. وتخرج في علم الكلام على أبي إسحق النَّظام أحد المعتزلة فأخذ بمقـالتـه، ونصر الاعْتزال بكتابته. وصاحب فئة من كتاب العرب ومترجمي الفرس فنقل عنهم واستفاد منهم، وأُغْرِمَ بالمطالعة إغرامًا شديداً فلم يقع في يده كتـاب إلا استتم قراءتـه، واستوعب مادته. وكان يكتري حوانيت الورَّاقين ويعتكف فيها للدرس والمطالعة حتى أحصى مسائـل العلوم، واستبطن دخائل الفنون، وأصبح في الأدب منقطع القرين.

قضى أكثر عمره في مسقط رأسه عاكفًا على التأليف مرعيَّ الجانب، مكفيَّ الحاجة، أثيراً لدى الولاة، مكَرَّماً عند الوجوه، بما يؤلف من الرسـائل ويصنف من الكتب. ثم كـان ينتجع بغداد في عهد المأمون والمعتصم والواثق والمتوكل؛ وانقطع بعد ذلك إلى محمد بن عبد الملك الزيات طول وزاراته الثلاث؛ ثم استقر بالبصرة بعد نكبة الوزير. وأصيب بالفالج النصفي في عاقبة عمره. وطال عليه المرض وتبلغت به العلة حتى قبضة الله إليه سنة خمسة وخمسين ومائتين وقد شارف المائة.

صفاته وأخلاقه:

كان أبو عثمان دميمَ الخلقة جَهْم الوجه جاحظ العينين «ومن ذلك لَقَبُه»؛ حتى قيل إن الخليفة المتوكل سمع بمنزلته من العلم والفهم فآستقدمه إليه بسُرَّ مَنْ رأى ليؤدب ولده. فلما

---

٣١ ـ انـظر ترجمتـه في: إرشاد الأريب: ٦/٥٦ ـ ٨٠، والفهـرست: ص ٢٠٨، ٢١٢، وسـرح العيـون: ص ١٣٦، وأمراء البيان: ص ٣١١ ـ ٤٨٧، وميزان الاعتدال: ٣/٢٤٧، وتاريخ بغداد: ١٢/٢١٢، وتـذكرة النـوادر: ص ١٠٨، والفهرس التمهيـدي: ص ٥٥٠، ووفيـات الأعيـان: ٣/٤٧٠، ٤٧٥، وآداب اللغة: ٢/١٦٧.

رآه استبشع منظره وصرفه بعشرة آلاف درهم. وكان في الجاحظ دُعابة وَمجَانة واستخفاف بالعادات المرعية والآداب الوضيعة، ولكنه كان لطيف الروح ذكي الفؤاد فكهَ المحاضرة صادق المواساة.

علمه وأدبه:

ليس في مقدور هذا القلم العاجز الموجز أن يصف للقارىء ما لنابغة العرب وڤولتير الشرق من الأثر في الأدب. ويحَسْبنا أن نقول إنه تميز من أنداده بغزارة العلم، وقوة الحجة، واستقصاء البحث، وشدة المعارضة، وبلاغة القول، وإنه تبحر في علم الكلام وخلطه بفلسفة يونان، وانفرد دون المتكلمين بمذهب في التوحيد شايعه عليه كثير منهم فسُمّوا بالجاحظية. وشارك في سائر العلوم وكتب فيها كتابة محقق ضليع. وهو أول عالم عربي جمع بين الجد والهزل، وتوسع في المحاضرات وأكثر من التصنيف وكتب في الحيوان والنبات والأخلاق والاجتماع.

نثره وشعره:

نقل الجاحظ الكتابة إلى طور جديد في الأسلوب والغرض، ونهج للمترسلين والمصنفين طريقة في الإنشاء ذكرناها في معرض الكلام عن الكتابة فلا نعيد فيها القول. وقد قال فيه البديع: إن كلامه بعيد الإشارة، قريب العبارة، قليل الاستعارة. وهذا الحكم وإن كان شديداً يطابق الحق أحيانًا. أما شعره فلا روعة له ولا جمال فيه. وقد نزع في نظمه إلى الاتباع لا إلى الابتداع وهو قليل منثور في ثنايا الرسائل والكتب كقوله للوزير ابن عبد الملك:

بدا حين أثرى لإخوانه ... ففلّلَ منهم شبَاةَ العَدَمْ
وأبصر كيف انتقالُ الزمان ... فبادر بالعُرْفِ قبل الندم

وقوله:

لئن قُدِّمتْ قبلي رجالٌ فطالما ... مشيت على رِسْلي فكنتُ المقدما
ولكنَّ هذا الدهر تأتي صروفه ... فتبرم منقوضاً وتنقض مُبرَما

مؤلفاته:

كُتب الجاحظ تربى على مائتي كتاب، وهي كما قال الأستاذ ابن العميد؛ «تعلم العقل أولاً والأدب ثانيًا» ولم ينشر منها إلا كتاب البيان والتبيين في الأدب والإنشاء والخطابة، وكتاب الحيوان وهو أقدم كتاب عربي في موضوعه، وكتاب المحاسن والأضداد، وكتاب البخلاء، وديوان رسائله.

مثال من نثره:

قال يعاتب صديقًا له: «والله يا قُليب لـولا أن كبدي في هـواك مقروحـة وروحي بك مجروحة، لساجلتك هذه القطيعة، ومامددتك حبل المصارمة، وأرجو الله أن يديلَ صبري من جفائك، فيردك إلى مودتي وأنفُ القِلَى راغم؛ فقد طال العهد بالاجتماع، حتى كدْنا نتناكر عند اللقاء».

وقال في رسالة التربيع والتدوير وهي من أبلغ رسائله:

قد اعتدنا في معصيتك والخلاف على محبتك، مرة بالمزاح، ومرة بـالنسيان، ومـرة بالاتكال على عفـوك. وعلى ما هـو أولى بك. والجملة أنّـا لو اعتمـدنا، ثم أصـررنا، ثم أنكرنا، لكان في فضلك ما يتغمده، وفي كرمك ما يوجب التغافل عنه فكيف وإنما سهونا ثم تذكرنا، واعتذرنا ثم أطنبنا؟ فإن تقبلْ فحظّك أصبت، ولنفسك نظرت. وإن لم تقبل فاجهَدْ جهـدك، ولا أبقى الله عليك إن أبقيت، ولا عفـا عنك إن عفـوت. وأقول كمـا قـال أخـو بني مِنْقر:

فمـا بُقْيَـا عَلَيَّ تـركـتمـانـي ولكن خـفتـمـا صـدَر النبـال

والله لئن رميتني ببجيلة لأَرْمِيَنَّكَ بكنانـة. ولئن نهضت بصـالـح بن عليّ لأنهضنَّ بإسماعيل بن عليّ. ولئن صُلْت عليّ بسليمان بن وهب لأدمغتك بالحسن بـن وهب. وأنـا أرى لك أن تقبل العافية، وترغب إلى الله تعالى في السـلامة. واحـذر البغيّ فإن مصـرَعه وخيم، واتق الظلم فإن مرعاه وبيل. وإياك أن تتعرض لجرير إذا هجا، وللفرزدق إذا فخر، ولهرثمة إذا دبر، ولقيس بن زهير إذا مكَرَ، وللأغلب إذا كرَّ، ولطاهِر إذا صال. ومن عرف قدره عرف قدر خصمه، ومن جهل نفسه لم يعرف قدر غيره. وعليك بالجادَّة ودع البُنَيَّاتِ. فإن ذلك أمثل لك. وأنت والله تعلم علم الاضطرار، وعلم الاختيار، وعلم الأخبـار، أني أظهر منك حربًا، وألطف كيداً، وأكثر علماً، وأوزن حلماً، وأخف روحاً، وأكرم عيناً، وأقل غشاً، وأحسن قداً، وأبعد غوراً، وأجمل وجهًا، وأنصع ظَرْفًا، وأكثر مُلحـاً وأنطق لسـانًا، وأحسن بيانًا، وأجهر جهارة، وأحسن شارة، وأنت رجل تشذُّ من العلم، وتَنْتف من الأخبار، وتموِّه نفسك، وتُعِزُّ من قدرك، وتتهيأ بالثياب، وتتنبَّل بالمراكب، وتتحبب بحسن اللقـاء؛ ليس عنـدك إلا ذاك. فلِم تزاحمُ البحـر بالجـداول، والأجسام بـالأعراض، ومـا لا يتناهى بالجزء الذي لا يتجزأ؟ ومن يَعدلُ بين القناة والكُرَة؟ وبين رحَى الطحان وبين سيف يمان؟ وإنما يكون التمثيل بين أتم الخيرين، وأنقص الشرّين، وبين المتقاربين دون المتفـاوتين. فأما الخل والعسل، والحصاة والجبل، والسم والغذاء، والفقر والغنى، فهذا مما لا يخطىء فيه الذهن، ولا يكذب فيه الحِسّ.

٣٢ ـ ابن العميد
٨٩٢ ـ ٩٧٠ م
٢٩٧ ـ ٣٦٠ هـ

نشأته وحياته:

أبو الفضل محمد بن الحسين المعروف بابن العميد فارسي الأصل من أهل مدينة (قم). كان أبوه مترسلاً بليغاً يتولى الكتابة لنوح بن نصر الساماني ملك بخارى، فنشأه على الأدب ودرّبه في الكتابة، وغذاه بالعلم، فبرع في الإنشاء والترسل، وتوسع في الفلسفة والنجوم، حتى سمي بالأستاذ ولقب بالجاحظ الثاني.

ولما استكملت عُدَّته، واستحصدت قوته، غادر بخارى إلى بلاد الجبل من ملك آل بويه؛ فتقلد الأعمال في دولتهم. وما زال يتنقل في مدارج الرقي، ويتوقل في معارج الشرف، حتى وزَرَ لركن الدولة بن بويه سنة ثماني وعشرين وثلثمائة، فاضطلع بأعباء الوزارة، وقام بشؤون الدولة، وجرى على منهاج بني برمك في الجود، فانتجعه الشعراء وقصده العلماء من بغداد والشام ومصر فكان هو والصاحب بن عباد والوزير المهلبي روحاً لنهضة العلم وقطباً لدائرة الأدب في ذلك العصر. وقد كان المتنبي على مكانته يجله ويتهيّبه، وله فيه مدائح مشهورة منها قصيدته التي مطلعها:

بادٍ هواك صبَرت أم لم تصبرا ... وبُكاك إن لم يجر دمعُك أو جرى

ويقول فيها:

مَنْ مُبلغُ الأعراب أني بعدها ... شاهدت رَسْطاليس والإسكندرا
ومللت نحر عِشارها فأضافني ... من ينحر البَدرَ النُّضارَ لمن قرَى
وسمعت بطليموس دارس كتبه ... متملكًا متبدِّياً متحضرا
ولقيت كلَّ الفاضلين كأنما ... ردَّ الإله نفوسهم والأعصرا

ولكن ابن العميد كان قليل الحظ من العافية ألحَّت عليه الأوصاب وتناوبه القُولنج والنِّقْرس حتى استعز الله به سنة ستين وثلثمائة.

---

٣٢ ـ انظر ترجمته في: الإمتاع والمؤانسة: ٦٦/١، وتجارب الأمم: ٢٧٤/٦ ـ ٢٨٢، ومعاهد التنصيص: ١١٥/٢، ويتيمة الدهر: ١٥٤/٣ ـ ١٨٨، والكامل في التاريخ، في حوادث سنة ٣٥٩، ووفيات الأعيان: ١٠٣/٥ ـ ١١٣، وشذرات الذهب: ٣١/٣ ـ ٣٤، وطبقات أعلام الشيعة: ص ٢٦٩، والأعلام: ٩٨/٦.

نثره وشعره:

عصر ابن العميد عصر تأنق وزخرف، وعهد خيال وشعر، فهداه طبعه إلى استحداث أسلوب جديد متناسب الفِقَر أنيق الديباجة، بديع الوشي، طبع على غِراره مشايعوه لموافقته ذوق العصر. ولمكانة الوزير من الفضل. إلا أنه كان أرقى معاصريه طبعًا، وأقلهم سجعًا، وأكثرهم نثراً للشعر وتلميحاً لـلأمثال، وتضميناً للحكم، ولا يضارعه في أكثر ذلك على ما رأى إلا البديع، وكان ابن العميد متفنناً في فنون الكتابة، متفوقًا في ضروب الرسائل، حتى شاعت فيه الكلمة المأثورة: «بُدئت الكتابة بعبد الحميد، وخُتمت بابن العميد».

أما شعره فيغلب فيه الحسن ويرويه ماء الطبع؛ إلا أنه على الجملة أخف وزناً من نثره.

مختار من كلامه:

قال من رسالته إلى ابن بلكا عند استعصائه على ركن الدولة:

كتابي وأنا مُترجح بين طمع فيك ويأس منك، وإقبال عليك وإعراض عنك. فإنك تدِل بسابق حُرْمة، وتمت بسالف خدمة، أيسرهما يوجب رعاية ويقتضي محافظة وعناية، ثم تشفعهما بحادث غلول وخيانة، وتتبعهما بآنف خلاف ومعصية: وأدنى ذلك يحبِط أعمالك، ويمحق كل ما يُرْعى لك. ولا جرم أني وقفت بين ميل إليك، وميل عليك، أقدم رجلاً لصدمك، وأؤخر أخرى عن قصدك، وأبسط يداً لاصطلامك واجتياحك، وأُثْنِي ثانية لاستبْقائك واستطلاحك، فقد يَغرُب العقل ثم يؤوب، ويعزُت اللب ثم يثوب، ويذهب الحزم ثم يعود، ويفسد العزم ثم يصلح، ويُضاع الرأي ثم يُستدرك، ويسكر المرء ثم يصحو، ويكدر الماء ثم يصفو.

ومنها: وزعمت أنك في طرَف من الطاعة بعد أن كنت متوسطها. وإذ كنت كذلك فقد عرفتَ حاليها، وحلبت شطريها؛ فنشدْتُك اللَّه إلا ما صَدقتني عما سألتك كيف وجدت ما زلت منه، وكيف تجد ما صرت إليه؟ ألم تكن من الأول في ظل ظليل، ونسيم عليل، وريح بَليل، وهواء غذِيّ وماء رَوِيّ، ومهاد وطيّ، وكنّ كنين، ومكان مكين، وحصن حَصين، عززتَ به بعد الذلة، وكثرت بعد القلة، وارتفعت بعد الضعَّة، وأيسرت بعد المعسرة، وأثربت بعد المتْربة؟... ففيَم الآن أنت من الأمر؟ وما العوضُ عما عددت، والخَلفَ مما وصفت؟ وما استفدتَ حين أخرجت من الطاعة نفسك، ونفضت منها كفك، وغمست في خلافها يدَك؟ وما الذي أظلّك بعد انحسار ظلها عندك؟ أظلٌّ ذو ثلاث شُعَب، لا ظليل ولا يُغْنِي من اللهب؟ قل نعم كذلك.

ومنها: تأمل حالك وقد بلغت هذا الفصل من كتابي فستنكرها. والمس جسدك وانظر هل يُحسُّ؟ واجسُسْ عرقك هل ينبض؟ وفتش ما حنا عليك هل تجد في عرضها قلبك؟

وهل حلىَ بصدرك أن تظفر بِفوْت سريح، أو موت مريح؟ ثم قس غائب أمرك بشاهده، وآخر شأنك بأوله.

ومن شعره قوله لبعض إخوانه:

قد ذبتُ غيرَ حشَاشَة وذماء ... ما بين حرَّ هوى وحر هواءِ
لا أستفيق من الغرام ولا أُرى ... خلوا من فلأشجان والبُرَحاء
وصروف أيام أقمَن قيامتي ... بنَوى الخليط وفرقة القرناء
وجفاء خِل كنت أحسب أنه ... عوني على السراء والضراء
أبكي ويُضحكه الفراق ولن ترى ... عجباً كحاضر ضحكه وبكائي

ومنها:

من يشف من داء بآخرَ مثله ... أثرَتْ جوانحه من الأدواء
لا تغتنم إغضاءتي فلعلها ... كالعين تغضبها على الأقذاء
واستبق بعض حشاشتي فلعلني ... يوماً أقيك بها من الأسواء
فلئن أرحت إليّ عازب بلوتي ... ووجدت في نفسي نسيم عزاء
لأجهِّزنّ إليك قبجَ تشكر ... ولأنثرنّ عليك سوءَ ثناء
ولأعْضلنّ مودتي من بعدها ... حتى أزوجها من الأكْفاء

٣٣ ـ الصاحب بن عباد
٩٣٨ ـ ٩٩٥ م
٣٢٦ ـ ٣٨٥ هـ

نشأته وحياته:

وُلد كافي الكفاة أبو القاسم إسماعيل الصاحب بن عبَّاد بطالقان من أعمال قزوين، ودرس على ابن فارس اللغوي، واتصل بابن العميد شابًّا فأخذ عنه؛ واشتدت صحبتُه له فلقب من أجل ذلك بالصاحب. ثم وزَرَ لمؤيد الدولة ابن بُويه بعد أن قُتل أبو الفتح بنُ العميد وزيره، فدبر أموره وسدَّ ثغوره. ولما ملك فخر الدولة بعد أخيه استعفى الصاحب،

---

٣٣ ـ انظر ترجمته في: البداية والنهاية: ١١/٣١٤ ـ ٣١٦، ولسان الميزان: ١/٤١٣ ـ ٤١٦، ومعجم الأدباء: ٦/١٦٨ ـ ٣١٧، ووفيات الأعيان: ١/٢٢٨ ـ ٢٣٣، والنجوم الزاهرة: ٤/١٦٩ ـ ١٧١، ومعاهد التنصيص: ٤/١١، وابن الوردي: ١/٣١٢، والمنتظم: ٧/١٧٩ ـ ١٨١، ونزهة الجليس: ٢/٢٨٤، والأعلام: ١/٣١٦.

فقال له: «لك في هذه الدولة من إرث الوزارة، ما لنا فيها من إرث الإمارة. فسبيل كل منا أنْ يحتفظ بحقه.

فاتسع سلطان الصاحب وعم إحسانه، وغرس للأدب جناناً ناضرة، وشار للعلم ربوعاً عامرة. وقصد حضرته الأدباء والعلماء والمتكلمون والمصنفون يتعرضون لمنحه، ويتنافسون في مدحه، وهو يرشدهم بنقده، ويعينهم برفده، حتى أزدهر الأدب في عهد بني بويه بفضله ازدهاراً قلَّ أن يصادفه في عهد آخر.

وكان للصاحب وَلَعٌ بجمع الكتب وشغف بمطالعتها. وكان مجلسه لا يخلو من أديب يحاضر، ومتكلم يناظر، وناشىء يروي ويستفيد. وعاش الصاحب ما عاش مبجلاً مفضلاً نافذ الأمر مطاع الإشارة. فلما مات أغلقت له أبواب الري واجتمع الناس على باب قصره ينتظرون جنازته وفيهم فخر الدولة وقوادُهُ في خير ملابسهم. فلما خرج نعشه من الباب صاحوا بأجمعهم صيحة واحدة وقبلوا الأرض. ودفن بأصبهان.

نثره:

سار الصاحب على نهج ابن العميد وأربى عليه في الحِلْية اللفظية ولا سيما في السجع والجناس، حتى قيل فيه: «لو رأى سجعه تنحلُّ بموقعها عروة الملك، ويضطرب بها حبل الدولة، لما هان عليه أن يتخلى عنها» ومنزلته بعد البديع وقبل الخوارزمي. وله ذوق سليم في صوغ الشعر ونظر صادق في نقده. ولم تعقُه تكاليف الوزارة ولا مظاهر الإمارة عن التأليف، فصنف في اللغة كتاب المحيط في سبعة مجلدات، وكتاب الإمالة، والكشف عن مساوىء المتنبي، وغير ذلك: وأكثر فضله في تشجيع الأدباء وتنشيط العلماء وإذكاء شُعلة الأدب.

نموذج من كلامه:

كتب إلى القاضي أبي بشر الجرجاني حين وروده باب الرّي وافداً عليه:

تحدثت الركابُ بسيْر أروى ... إلى بلد حططتُ به خيامي
فكدتُ أطير من شوق إليها ... بقادمة كقادمة الحمام

أحقٌّ ما قيل أَمرُ القادم، أم ظنٌّ كأماني الحالم؟ لا واللّه بل هو درك العيان، وإنه ونيل المنى سيَّان. فمرحباً أيها القاضي براحلتك ورحْلِك، بل أهلاً بك وبكافة أهلك، ويا سرعة ما فاح نسيم مسراك! ووجدنا ريح يوسف من ريَّاك؟ فحثُّ المطيِّ تُزل غُلتي بسقياك، وتزح عِلتي بلقياك. وقص عليَّ يوم الوصول لنجعله عيداً مشرّفاً، ونتخذه موسماً ومعرَّفاً ورُدّ الغلام، أسرع من رجْع الكلام، فقد أمرته أن يطير على جنَاح نسر، وأن يترك الصبَّا في عقال وأسْر.

سقى اللّه دارات مررتَ بأرضها فأدّتك نحوي يا زيادُ بن عامر
أصائلَ قُربٍ أرتجي أن أنالها بلقياك قد زحزحن حرَّ الهواجر

٣٤ ـ الخوارزمي
٩١٥ ـ ٩٩٣ م
٣٠٣ ـ ٣٨٣ هـ

نشأته وحياته:

هو أبو بكر محمد بن عباس الخوارزمي، أصل آبائه من طبرستان وولد بخوارزم، ثم فارقها وهو فتيُّ السن ابتغاء للعلم والتماساً للرزق، فجاب الأقطار وتقلب في خدمة كثير من الملوك والأمراء. ولقي سيف الدولة وخدمه بالشام ثم مضى على غلوائه في الاضطراب والاغتراب: فورد بخارى ونيسابور وسيجستان حتى وافى الصاحب بن عباد بأصبهان، فأكرم مثواه ثم زوده بكتاب إلى عضد الدولة بشيراز فنجحت سفَرته، وربحت تجارته، وصدر عنه بمال جم وخير كثير فاستوطن نيسابور واقتنى بها ضياعاً وعقاراً، وعاش قرير العين ناعم البال بين مجالس الدرس ومجالس الأنس حتى مُنِيَ في آخر زمانه بمساجلة البديع الهمذاني ومناظرته. فانخذل انخذالاً شديداً، ونالت منه هذه النكبة فاعتلت صحته، وخمدت شهرته، ولم يحل عليه الحول حتى علقه حمامة سنة ثلاث وثمانين وثلثمائة.

منزلته في الأدب والكتابة:

رُوي عن الخوارزمي ما رُوي عن أنداده من سرعة الحافظة وقوة الذاكرة، وشُهر بذلك حتى قيل: إنه قصد الصاحب بن عباد بأرَّجان، فلما وقف ببابه ذهب الحاجب إلى الصاحب وقال: إن بالباب أديباً يستأذن في الدخول. فقال الوزير قل له: قد ألزمت نفسي ألا يدخل عليّ إلا أديب يحفظ عشرين ألف بيت من شعر العرب «فقال أبو بكر للحاجب: آرجع إليه وقل له: هذا القدر من شعر الرجال أم من شعر النساء؟ فلما أُخبر بذلك الصاحب قال: هذا أبو بكر الخوارزمي.

وكان الخوارزمي مع ذلك إماماً في اللغة والأنساب، عالماً بأشعار العرب وأخبارها، واقفاً على أسرار اللسان وخواص التراكيب. وهو في النثر من طبقة ابن العميد. وكثير

---

٣٤ ـ انظر ترجمته في: يتيمة الدهر: ٤/١٩٤ ـ ٢٤١، والأنساب: ٨/٢٠٢ ـ ٢٠٣، واللباب: ٢/٢٧٣، وبغية الوعاة: ١/١٢٥، ووفيات الأعيان: ٤/٤٠٠ ـ ٤٠٣، وشذرات الذهب: ٣/١٠٥ ـ ١٠٦ ومعجم الأدباء: ١/١٠١، والأعلام للزركلي: ٦/١٨٣، وسير أعلام النبلاء: ١٦/٥٢٦.

من الناس يفضله على الصاحب. ولكنه يتخلف أحياناً فلا يحور إلى ذوق، ولا يرجع إلى سليقة. أما شعره فبين الرديء والجيد.

مختار من كلامه:

من فصوله المختارة قوله: الرجال حصون يبنيها الإحسان، ويهدمها الحرمان، وتبلغ بثمرها البرَّ واليُسر، ويمحقها الحفاء والكِبر. وإنه لا مال إلا برجال، ولا صلح إلا بعد قتال. والجبان مقتول بالخوف. قبل أن يُقتل بالسيف، والشجاع حي وإن خانه العمر، وحاضر وإن غيَّبه القبر ومن طلب المَنية هربت منه كل الهرب، ومن هرب منها طلبته أشد الطلب. وقال:

أكبر من الأسير من أسره ثم أعتقه، وأشجع من الأسد من قيده ثم أطلقه. وأكرم من النبت الزكي من زرَعه، وأكرم من الكريم من اصطنعه. لا صيدَ أعظمُ من إنسان، ولا شَبكة أَصْيَدُ من انسان، وشتان بين من اقتنص وحشياً بحبالته، وبين من اقتنص إنسياً بمقالته!

ومن أجود شعره قوله:

مضت الشبيبة والحبيبة فالتقى ... دمعان في الأجفان يزدحمان
ما أنصفتني الحادثات، رميتني ... بمودعين وليس لي قلبان

وقوله:

قلت للعين حين شامت جمالاً ... في وجوه كواذب الإيماض
لا يَغُرّنْك هذه الأوجه الغرُّ (م) فيا رُبّ حية في رياض

وقد ذم أحد خلفاء بني العباس قال:

ما لي رأيت بني العباس قد فتحوا ... من الكُنَى ومن الألقاب أبوابا؟
ولقبوا رجلاً لو عاش أوَّلهُم ... ما كان يرضى به للقصر بوَّابا
قلَّ الدراهمُ في كفيْ خليفتنا ... هذا فأنْفَقَ في الأقوام ألقابا

وقال في الحِكَم:

لا تصحب الكسلان في حالاته ... كم صالح بفساد آخر يفسد
عدوَى البليد إلى الجليد سريعةٌ ... والجمر يوضع في الرّماد فيخمد

وقال يرثي ركن الدولة:

ألست ترى السيفَ كيف انْثَلم ... وركن الخلافة كيف انهدم؟
طوى الحسن بن بُوَيه الردى ... أيدري الرَّدى أيَّ جيش هزم
فصيح اللسان بديع البيان ... رفيع السنان سريع القلم
إذ تم شيءٌ بدا نقصُه ... توقع زَوالا إذ قِيلَ تمَ

٣٥ ـ بديع الزمان الهمذاني
٩٦٩ ـ ١٠٠٨ م
٣٥٨ ـ ٣٩٨ هـ

نشأته وحياته:

أبو الفضل أحمد بن الحسين ولد بهمذان ونشأ بها. وتعلم العلم باللغتين الفارسية والعربية، ولم يترك أديباً في همذان إلااستنفذ ما عنده. ثم غادرها إلى الصاحب ابن عباد فازداد من معارفه وعوارفه. وقصد جرجان فأقام في أكناف الإسماعيلية واختص بأبي سعيد محمد بن منصور. وفي سنة ٣٨٢ يمم نيسابور فتجلت فيها عبقريته، وذاعت بين الناس شهرته، وأملى بها أربعمائة مقامة. ثم تصدى لمناظرة أبي بكر الخوارزمي، وكان أسنَّ منه بأشهر. وجرت بينهما مكاتبات أفضت إلى مناظرات. وغلَّب هذا قوم وذاك آخرون. وساعد لبديعَ شبابُه ولسانه وحاجتُه إلى الظهور، فظهر على الخوارزمي ظهوراً أطار ذكره ورفع قدره عند الملوك والرؤساء. وأجاب قرنه داعيَ ربه، فخلا له الجو، وابتسم له الدهر، وتنقل في حواضر فارس منتجعاً أمراءها، حتى ألقى عصاه بهَرَات وصاهر أحد وجهائها وعلمائها، وعاش بها رَخيَّ البال متسق الحال إلى أن ناداه ربه فلباه سنة ٣٩٨.

واختُلف في موته فقيل مات مسموماً، وقيل مات بالسكتة وعُجِّل بدفنه فأفاق في جَدَثه، وسُمع صوته بالليل فنبشوا عليه فوجدوه قد مات قابضاً على لحيته من هول القبر.

أخلاقه ومواهبه:

كان البديع مقبول الصورة، خفيف الروح، ناصع الظرف، ذكي القلب، قوي الحافظة حدَّث التاريخ عنه أنه كان ينظر في أوراق من كتاب لم يعرفه نظرة واحدة ثم يؤدي ما فيها لا يخرم منه حرفاً. وأنه كان يقترح عليه إنشاء رسالة في معنى غريب فيخرج منها عفو الساعة والجواب عنها فيها. وربما ابتدأ بآخر سطر من الرسالة وانتهى بها إلى أولها فيخرجها بلفظ مرتبط ومعنى متَسِق. وكان يترجم ما يُقترح عليه من الشعر الفارسي إلى الشعر العربي فيجمع بين الإبداع والإسراع.

---

٣٥ ـ انظر ترجمته في: الوافي بالوفيات: ٦/٣٥٥ ـ ٣٥٨، وأعيان الشيعة: ٨/٣٠٦ ـ ٣٥٥، ويتيمة الدهر: ٤/٢٥٦ ـ ٣٥١، ومعجم الأدباء: ٢/١٦١ ـ ٢٠٢، ومعاهد: ٣/١١٣، والنويري: ٣/١١٠، والنجوم الزاهرة: ٤/٢١٨، ٢١٩، والكامل في التاريخ: ٩/٢٠٩، والأعلام للزركلي: ١/١١٦، ودائرة المعارف الإسلامية: ٣/٤٧١.

نثره وشعره:

نثر البديع يستهوي القلوب ويملك الشعور، وكله من قبيل الشعر المنثور، وللصناعة تأثير فيه؛ إلا أنه مع ذلك جار مجرى الطبع، لم يفسده تكلف، ولم يبهمه تعمق. وقد جمع كلامه بين متانة اللفظ ورشاقة المعنى وجمال العبارة ودقة التخيُّل. وقد تصرف هذا الكاتب في فنون الترسل، وتفنن في ضروب الرسائل حتى كان بحَقٍّ فارس الطريقة العميدية وابن بَجْدَتها.

وله شعر رقيق لم يبلغ من الجودة مبلغ نثره، لأن الجمع بين حسن النظم وحسن النثر قلما يتفق لأحد.

مقاماته:

المقامات حكايات قصيرة تشتمل كل واحدة منها على حادثة لا تَسْتَغْرِق غالباً أكثر من مقامة (جلسة) وتنتهي بعظة أو مُلْحة. ولحسن الديباجة وأناقة الأسلوب فيها المحل الأول. والبديع أول من أجاد هذا النوع. والمظنون أنه حاكى بالمقامات الأحاديث الأربعين لابن دريد المتوفى سنة ٣١٠. وقد كتب أربعمائة مقامة في الكدْية وغيرها، نحلها أبا الفتح الإسكندري على لسان عيسى بن هشام. ولم يعثروا منها إلا ثلاث وخمسين مقامة شرحها الأستاذ محمد عبده. أسلوباً طلي شهي، إلا أن قِصَرَ حكاياتها وتقارب الخيال فيها يبعدها عن الكمال. وللبديع غير المقامات ديوان رسائل ومجموعة شعر وكلاهما مطبوع.

مختار من كلامه:

قال من رسالة: واللَّه لو لا يدٌ تحت الحجر. وكبدٌ تحت الخنجر، وطفل كفرخ يومين قد حَبَّبَ إلَيَّ العيش، وسلب من رأسي الطيش، لشمخت بأنفي عند هذا المُقام. ولكن صبراً جميلاً واللَّه المستعان.

وقال من رسالة أخرى: وجدتك تعجب أن يجحد لئيم فضل صنيعك. فخفض عليك يرحمك اللَّه! إن الذي تعجب منه يسير، في جنب ما يجحد من الناس كثير. إن اللَّه خلق أقواماً وشقّ لهم أبصاراً وآتاهم بصائر، فغاصوا بها على عرق الذهب ففصدوه، ولم يزالوا بالنجم حتى رصدوه، واحتالوا للطائر فأنزلوه من جو السماء، وللحوت فأخرجوه من الماء، ثم جحدوا مع هذه الأفكار الغائصة والأذهان النافذة صانعهم: فقالوا أين وكيف؟ حتى رأوا السيف. فلِمَ تعجب إن جحدوا فضلاً ليست الأرض بساطه ولا الجبال سماطه، ولا السماء فسطاطه، ولا الليل رباطه، ولا النهار صراطه، ولا النجوم أشراطه، ولا النار سياطه...؟

وكتب إلى بعض أصدقائه يحذره:

لعلك يا سيدي لم تسمع بيتي الناصح حيث قال:

اسمع نصيحة ناصح جمع النصيحه والمِقَة
إياك واحذر أن تكو ن من الثقات على ثقة

صدق واللّه وأجاد. فللثقات، خيانةٌ في بعض الأوقات. هذه العين تريك السراب شراباً، وهذه الأذن تسمعك الخطأ صواباً، فلست بمعذور، إن وثقت بمحذور، وهذه حال السامع من أذنه، الواثق بعينه. وأرى فلاناً يكثر غِشْيانك وهو الدنيءُ دِخْلته، الرديء نحلته، السيىء وصلته، الخبيث جملته. وقد قاسمته في أزْرك، وجعلته موضع سرك. فأرني موضع غلطك فيه، حتى أريك موضع تلافيه. ما أبعدَ غلطَك عن غلط إبراهيم عليه السلام! إنه رأى كوكباً، ورأيتَ تَوْلباً. وأبصر القمر، وأبصرت القدر. وغلط في الشمس، وغلطت في الرمس! أظاهرُه غرك، أم باطنه سرك؟

ومن قوله في أبي القاسم ناصر الدولة:

غضِّي جفونك يا ريا ض فقد فتنت الحورَ غمزا
واقْنيْ حياءك يا ريا ح فقد كَدرْتِ الغصنَ هزا
وارفق بجفنك يا غما م فقد خدشت الورد وخزا
خلع الربيع على الرُّبى وربوعها خزًّا وبزّا
ومَطارفاً قد نقشت فيها يدُ الأمطار طرزا

ومنها:

وكأن أمطار الربيع إلى ندى كفيك تُعزَى
يا أيها الملك الذي بعساكر الآمال يُغزَى
خلقت يداك على العِدى سيفاً وللعافين كنزا
لا زلت يا كنف الأمي ـر لنا من الأحداث حرزا

٣٦ ـ الحريري
١٠٥٤ ـ ١١٢٢ م
٤٤٦ ـ ٥١٦ هـ

نشأته وحياته:

محمد القاسم بن علي البصري عربي صميم من بني حرام. ولد بقرية يقال لها

---

٣٦ ـ انظر ترجمته في: معاهد التنصيص: ٣/ ٢٧٠ ـ ٢٧٧، وكشف الظنون: ٥٠٧ ـ ٧٨٩، ومرآت الجنان: ٣/ ٢١٣ ـ ٢٢١، وتلخيص ابن مكتوم: ص ١٩٤، ومختصر دول الإسلام: ٢/ ٣٠، والفلاكة =

المشان، ونشأ بالبصرة وتخرج على فضلائها. وكان في أول أمره يبيع الحرير أو يصنعه فلقب بالحريري. وصرفه عن ذلك شغفه بالعلم وولوعه بالأدب، فجد في الدرس والتحصيل حتى سمت منزلته واستطارت شهرته في وقوفه على أساليب العرب وحفظه لأخبارهم وأشعارهم فقربه الأمراء وأمّه الأدباء يستفيدون من علمه ويستزيدون من أدبه.

صفاته وأخلاقه:

كان الحريري دميماً قصيراً بخيلاً قذر الثوب مولعاً بنتف لحيته عند التفكير. فعاضه اللّه من ذلك برائع أدبه، ورقيق ملحه، وسعة صدره، واعترافه بالحق لأهله. ولذلك كان الحديث عنه خيراً من النظر إليه. سمع بشهرته رجل غريب فجاءه يتلقى عنه الأدب، فلما رآه استزرى شكله، وفهم الحريري منه ذلك. فلما التمس منه أن يملي عليه قال له اكتب:

ما أنت أولُ سار غرّه قمرٌ ... ورائدٌ أعجبته خُضْرة الدمن

فاختر لنفسك غيري إنني رجل ... مثل المعيديّ فاسمع بي ولا ترني

فخجل الرجل وانصرف.

نثره وشعره:

الحريري كاتب مكثر وشاعر مقل كالبديع. وهو من ساقة أتباع ابن العميد ومن الممهدين لظهور الطريقة الفاضليَّة بالقصد إلى البديع، والبالغة في الصنعة، والإفراط في تدبيج اللفظ، والتفريط في جانب المعنى، حتى تراءت معانيه من خلال ألفاظه عليلة ضئيلة كالعروس المسلولة جمَّلوها بالأصباغ وأثقلوها بالغلائل والحلى. وشعره كنثره في الكلَف بالبديع والعناية باللفظ. وضع منه كثيراً في ثنايا المقامات وجُمع في ديوان خاص.

مؤلفاته:

له من المؤلفات كتاب درة الغواص في أوهام الخواص، انتقد فيه أهل عصره في خروجهم عن حدود العربية في بعض الألفاظ والتراكيب. وكتاب ملحة الإعراب في النحو، وديوان رسائل، ثم المقامات وهي أجود آثاره.

مقاماته:

له خمسون مقامة نحلها أبا زيد السُّروجيّ على لسان الحارث بن همام ونسجها على منوال البديع، جمع فيها من اللغة والأمثال والأحاجي مالا غاية بعده. فهي ديوان مُمْتعٌ

= والمفلوكون: ص ١١٨ ـ ١١٩، وخزانة البغدادي: ١١٧/٣، ومطالع البدور: ٩/١، والأعلام للزركلي: ١٧٨/٥.

للألفاظ العربية، والنوادر اللغوية؛ والصناعة اللفظية، ولعل ذلك هو السبب في عناية الأدباء من العرب والفرنج بها وانتشارها بينهم. فقد ترجمها أكثر من عشرين مستشرقاً من الفرنسيين والألمان والإنجليز. وطبعت بالإنجيلزية في لندن سنة ١٨٥٠، وباللاتينية في هيسبرج سنة ١٨٣٢، ونقلت إلى الفارسية سنة ١٢٩٣، ثم إلى التركية وطبعت بالآستانة. ولا تزال تدرس في بعض جامعات أوروبا بالشرح الذي وضعه لها رأس المستشرقين سلفستر دساسي سنة ١٨٢٢.

عيوبها:

ينتقدها أدباء الفرنج في قصرها، ووحدة مغزاها، وأن المؤلف لم يُعن فيها بتصوير الحكايات على نحو ما ألّفه الفرنج واليونان قديماً، وإنما صرف همه إلى تحسين اللفظ وتزيينه. وأدباء العرب يقولون إنها تكاد لا تخرج عن خيال متكرر في صور مختلفة، وإن إنشائها تكلفاً لا تسمح به طبيعة البدوي الذي قيلت على لسانه.

سبب وضعها:

سبب وضع المقامات أن الحريري كان جالساً بمسجد بني حرام بالبصرة، فدخل المسجد شيخ ذو طمْرَيْن عليه أُهبة السفر، ورث الحال، فصيح المقال. فسأله الحاضرون: من أين الشيخ؟ فقال: من سروج. فاستخبروه عن كنيته، فقال أبو زيد. فأنشأ الحريري المقامة الحرامية وعزاها إلى أبي زيد وجعل الراوي فيها الحارث بن همام مريداً نفسه. أخذاً بالحديث المأثور: كلكلم حارث وكلكم همام. واشتهرت تلك المقامة حتى بلغ خبرها شرف الدين وزير المسترشد بالله، فأعجب بها وأشار على الحريري أن يضم إليها سواها فأتمها خمسين.

مختار من كلامه:

قال يشكر أحد الوزراء: دعاء العبد للوزير دامت جدوده سعيدة، وسعوده جديدة، وعلياؤه محسودة، وأعداؤه محصودة، دعاءُ من يقترب بإصداره، على بعد داره، ويقصر عليه ساعاته، مع قصور مسعاته. وشكره للأنعام الذي أوصله إلى التجميل والتأميل، وجمع له بين التنويه والتنويل، شكْر من أُطلق من أسره، وأذيق طعم اليسر بعد عسره. ولو نهضت به القدمان، وأسعده عون الزمان، لقدم اعتمار الباب المعمور، وأسرع إليه إسراع العبد المأمور، ليؤدي بعض حقوق الإحسان، ويقرأ صحف الشكر باللسان. ولكن أنى ينهض المُقعدَ؟ ومَنْ له بأن يصعد فيسعد؟

ومن شعره في الحكم قوله:

لا تزرْ من تحب في كل شهر ... غير يوم ولا تزده عليه

فـاجتـلاء الهـلال في الشهـر يـوم ثـم لا تـنـظر الـعـيـون إلـيـه

وقال أيضاً:

لا تـقعـدن عـلى ضـر وَمَسْـغَـبَـة لكي يقـالَ عـزيـزُ النفس مصـطبـر
وانـظر بعينيـك هـل أرض مُعَـطلةٌ من النبـات كأرض حفَّهـا الشجـر؟
فعـدّ عمـا تـشيـر الأغـبيـاءُ بـه فـأيُّ فضـل لعـود مـا لـه ثمـر؟
وارحـل ركابـك عن رَبع ظمئت بـه إلى الجنـاب الذي يَهمى بـه المطر
واستنزل الرَّيَّ من دَرِّ السحـاب فإن بُلَّت يـداك بـه فليهنـك الـظفَـر

٣٧ ـ القاضي الفاضل
١١٣٥ ـ ١٢٠٠ م
٥٢٩ ـ ٦٩٥ هـ

نشأته وحياته:

ولد أبو علي عبد الرحيم البَيساني بمدينة عسقلان من بلاد فلسطين، وأخذ العلم عن أبيه بهاء الدين عليّ قاضي عسقلان. ثم ورد مصر في أواخر الدولة الفاطمية ليتعلم الكتابة في الديوان، وذهب إلى الإسكندرية فـدخل ديوان ابن حديد قاضيها. وما لبث أن ظهر فضله ودل عليه نبوغه، فقدم القاهرة وكتب في ديوان الظافر. ولما قامت الدولة الأيوبيـة استوزره صلاح الدين بن أيوب فساس ملكه خير سياسة. ثم وزر من بعـده لولـده العزيـز ثم لأخيه الملك الأفضل. وتوفي سنة ٦٩٥ بالقاهرة.

منزلته في الكتابة:

كان من طبيعة منصب القاضي الفاضل أن يخالط الكتَّاب في الأصقاع المختلفة ويقف على المذاهب الكتابية المتباينة في الشام والعراق ومصر. فجرته المحاكاة والمفاضلة وقوة الشخصية إلى استحداث طريقة جديدة بناها على أصول طريقة ابن العميد ومازها بالإغراق في التورية والجناس، حتى أصبحت الكتابة في عهده كما ذكرنا من قبلُ طـلاء خدَّاعـاً من زخـرف اللفظ على هيكل بـالٍ من المعنى السقيم. بهرت هـذه الطريقـة العقيمة العيـون الكليلة والقرائح الناضبة فاقتفاها عُبَّاد الصنعة من أشباه الكتَّاب، ووَرّطوا أنفسهم فيما لا غناء

---

٣٧ ـ انظر ترجمته في: النجوم الزاهرة: ١٥٦/٦، وخطط مبارك: ١٢/٦، وكتاب: الروضتين: ٢٤١/٢، والكتبخـانة: ٢٩٠/٤، وفـريدة القصـر: قسم شعـراء مصـر ٣٥/١، وكشف الـظنـون: ١٠١٦/٢، والنعيمي: ٩٠/١، والنويري: ١/٨ ـ ٥١، والأعلام للزركلي: ٣٤٦/٣.

فيه ولا رجْع منه. وظل هذا المذهب غاشياً على العيون، رائناً على القلوب، حتى عصرنا الحديث فزال على التدريج بتأثير ابن خلدون وتقليد الآداب الفرنجية.

نموذج من كلامه:

كتب هذه الرسالة إلى صلاح الدين يشفع لخطيب عَيْذَاب في توليته خطابة الكرك وهي:

أدام اللَّه السلطان الملكَ الناصر وثبَّته، وتقبَّلَ عمَله بقبول صالح وأثبته، وأخذ عدوَّه قائلاً أو بيّته، وأرغم أنفه بسيفه وكبَتَه.

خدمة الملوك هذه واردة على يد خطيب عيْذَاب. ولما نبا به المنزل عنها، وقلّ عليه المرفق منها، وسمع هذه الفتوحات التي طبَّق الأرض ذكرها، ووجب على أهلها شكرُها، هاجر من هجير عيْذاب ومِلْحها، سارياً في ليلة أملٍ كلها نهارٌ فلا يسأل صبحها. وقد رغب في خطابة الكَرك وهو خطيب، وتوسل بالملوك في هذا الملتَمس وهو قريب، ونزع من مصر إلى الشام وعن عيْذاب إلى الكرك وهذا عجيب. والفقر سائق عنيف، والمذكور عائل ضعيف، ولطف اللَّه بالخلق بوجود مولانا لطيف، والسلام.

الفصل الرابع

الشعر وأثر السياسة والحضارة فيه

لقد كان أثر هذا الانتقال الإجتماعي في خواطر الشعراء أَبلغَ منه في نفوس الكتاب؛ فإن أولئك بالخلفاء ألصقُ، ونفوسهم بالترف والمدنية أعلقُ. وهم المنادمون على الشراب، والمفاكهون في السمر ضاق مضطربُهم في السعي فاتسع متقلبُّهُم في الخيال، وغلَّت أيديهم بالكسل عن العمل فاشتغلت أفئدتهم بالفكر وانطلقت ألسنتهم بالقول ولم يجدوا العيش ميسوراً بالتأليف لصعوبة النسخ والنشر فتفرغوا لصوغ الشعر في ضروبه المختلفة. ووجدوا من الخلفاء والأمراء مؤازراً، ومن الحضارة والطبيعة ناصراً، ومن القريحة والسليقة مؤاتاةً، فجالوا في الشعر جولة لم تتوافر أسبابها لأسلافهم، ونقلوه من البوادي المجدبة، والأخبيَة المطنَّبة إلى الرياض الناضرة، والقصور الشاهقة، والمناظر المونقة. على يد زعيم المولدين بشار.

ولقد عرضت للشعر عوارض أثرت في أسلوبه ومعانيه وأغراضه وأوزانه.

فأما التأثير في أسلوبه، فهجر الكلمات الغريبة، وعذوبة التركيب ووضوحه، واستحداث البديع والاستكثار منه، وتركِ الابتداء بذكر الأطلال إلى وصف القصور والخمور والغزل، والإغراق في المدح والهجاء، والإكثار من التشبيه والاستعارة، والحرص على التناسب بين أجزاء القصيدة، ومراعاة الترتيب في التركيب.

وأما في معانيه فبتوليد المعاني الحضرية، واقتباس الأفكار الفلسفية، إذ أكثر شعراء هذا العصر وِلْدَان جنسيتين، ورضّاع لغتين وأدبين، وربائب حضارتين مختلفتين. ولهذا اللقاح من الأثر في الفكر والعقل ما يعلل لك وفرة المعاني الجديدة في شعر بشار وأبي نواس وأبي العتاهية وابن الرومي. ثم نقل العرب علوم اليونان وغيرهم فكان لهذا النقل فضل على الشعر في معانيه لا في فنونه، لأنهم لم يترجموا إلا كتب العلم والحكمة، ولم يحفلوا بشعر اليونان وقصصهم. ولا بشعر اللاتين وخطبهم؛ تعصباً لأدبهم وإيثاراً لشعرهم؛ فلم تؤثر الترجمة في الشعر إلا بما دخله من الخواطر الفلسفية والسياسية والآراء العلمية في شعر أبي تمام والمتنبي وأبي العلاء وأضرابهم.

وأما في أغراضه فبالمبالغة في نعت الخمر ومجالسها، ووصف الرياض والصيد، وغزل المذكر، والمجون، والوعظ، والزهد، والأخلاق، والفلسفة، وضبط العلوم كالنحو وغيره.

وأما في أوزانه، فبالإكثار من النظم في البحور القصيرة، وابتداع أوزان أخرى، كالمستطيل والممتد وهما عَكس الطويل والمديد، والموشح والزجل، والدوبيت والمواليا. وكذلك في القافية كالمُسَمَّطِ والمُزْدَوج.

ولما انفرط عقد الخلافة، وتعددت حواضر الدولة، باستقلال الولاة في فارس والشام ومصر والمغرب، وجد الشعر في غير بغداد ملاذاً وحِمى؛ فانتقل إلى تلك الأمصار فصادف من أمثال بني بويه وآل حمدان أكفاً سمْحة، وصدوراً رحْبة، وربوعاً خصبة، فازداد ابتكاراً وانتشاراً وكثرة ولَنَظْرةٌ عَجْلى في فهرس اليتيمة للثعالبي تكفيك لتعلم أثر ذلك التشعب السياسي في نهضة الشعر، إذ كان الأمراء يتقيلون الخلفاء في تقريب الشعراء وتعضيد الأدباء والشعر والعلم كما رأيت لا يزهوان إلا في ظل ملك أو أمير.

وما زال الشعر على حاله من العناية بالألفاظ، والإصابة للغرض، والافتنان في المعنى، حتى تجرّم القرن الخامس للهجرة، فذهب معه جمال الشعر العربي من الشرق، وفقد تأثيره في النفوس، لذهاب المعضدين له من بني بويه، وقلة الراغبين فيه من آل سلجوق، واستشعار النفوس لذل الغلبة والقهر بتوالي الفتن والمحن، فانصرفت الخواطر إلى التصوف والأدعية، وعَيَّت القرائح عن التوليد والابتداع، فجلا الشعراء معاني الأقدمين في حلل مُهلهلة النسج مُنَمَّقة الوشْي، وأخذوا يتعلقون بالبديع، ويُغلون في المجاز والكناية، ويقلدون العجم في إغراقهم ومهاواتهم الملوك والأمراء. ولا سيما المتأخرون منهم، حتى أصبح غرض الشعر عندهم إنما هو الكذب والاستجداء فقالوا: «أعذب الشعر أكذبه». ثم كان مآل الشعر في هذا العصر كمآل النثر فيه سواء بسواه.

وأنت إذا أخذت الشعر العربي كله بنظرة واحدة فعرضت تاريخه كما تعرض تاريخ الكائن الحي وجدته قد تطور في موضوعه تطور الأمة العربية، وقطع معها مراحل الحياة الإنسانية؛ فهو في الجاهلية أنغام صبي، وحماسة فتوة وعواطف أثرة، وفي الإسلام أناشيد جهاد، وثوران عصبية، وأطماع حياة. ثم استحار شبابه واكتمل في صدر الدولة العباسية، فظهر في شعر بشار وأبي نواس وأضرابهما عبث شباب، وأغاني طرب، ومظاهر ترف. ثم عض على نواجذ الحلم واكتهل في أوساطها فبدا في شعر ابن الرومي وأبي تمام والمتنبي وأمثالهم دروس تجربة، ونتائج حكمة، وخواطر فلسفة. ثم أدركه الهرم في أواخرها فظهر في شعر المتأخرين تمويه صنعة، وخرف شيخوخة، ومعالجة روح. أما ولادته وطفولته فلم يدركهما التاريخ ولم يدخلا في علمه.

نماذج من الشعر العباسي

الحماسة:

قال أبو فراس الحمداني:

ولما ثار سيف الدين ثُرنا ... كما هيجت آساداً غضابا
أسنته إذا لاقى طعانا ... صوارمه إذا لاقى ضرَابا
دعانا والأسنة مُشْرعَاتٌ ... فكنا عند دعوته الجوابا
صنائع فاق صانعها ففاقت ... وغرس طاب غارسه فطابا
وكنا كالسهام إذا أصابت ... مراميها فراميها أصابا
فلما اشتدت الهيجاء كنا ... أشدّ مخالباً وأَحَدَّ نابا
وأمنع جانباً وأعزّ جاراً ... وأوْفى ذِمة وأقلَّ عابا
إذا ما أرسل الأمراء جيشاً ... إلى الأعداء أرسلنا الكتابا

وقال أبو الطيب المتنبي:

عش عزيزاً أو مُتْ وَأنت كريمٌ ... بين طعن القنا وخَفْق البنود
فرؤوس الرماح أذْهَب للغيـ ... ـظ وأشفي لِغلِّ صدر الحقود
لا كما قد حييتَ غيرَ حميدٍ ... وإذا متَّ مُت غيرَ فقيد
فاطلب العز في لظىً ودع الذل (م) ... ولو كان في جنان الخلود

المدح:

قال أبو تمام:

بمهديّ بن أصرم عاد عُودي ... إلى إيراقه وامتد باعي
سعى فاستنزل الشرف اقتساراً ... ولولا السعي لم تكن المساعي
ونغمة مُعْتَفٍ يرجوه أحلى ... على أذنيه من نغم السماع
جعلت الجود لألاء المساعي ... وهل شمسٌ تكون بلا شعاع؟
ولم يحفظ مُضاعَ المجد شيء ... من الأشياء كالمال المضاع
ولو صورت نفسك لم تزدها ... على ما فيك من كرم الطباع

وقال المتنبي:

قور بلوغ الغلام عندهُم ... طعنُ نحور الكُماة لا الحلم
كأنما يولد الندى معهم ... لا صغرٌ عاذرٌ ولا هرَم
إذا تولوا عداوة كشفوا ... وإن تولوا صنيعة كتموا

تـظن مـنَ كثـرة اعتـذارهُـم ... أنـهـم أنـعـمـوا ومـا عـلـمـوا
إن بَـرقـوا فـالحتـوفُ حـاضـرةٌ ... أو نـطقـوا فـالصـوابُ والحِكَم
تـشـرق أعـراضهـم وأوجُهـهـم ... كـأنـهـا في نـفـوسهـم شيَـم
أعيـذكـم من صُـروف دهر كمـو ... فـإنـهُ في الكـرام مُـتـهـم

وقال ابن الرومي :

كـأن مـواهبـهُ في المحـو ... ل آراؤه عـنـد ضيق الحـيَـلْ
فـلو كـان غيثـاً لعمَّ البـلادَ ... ولـو كـان سيفـاً لكـان الأجـل
ولـو كـان يعطى على قـدره ... لأغنى النفـوس وأفـنى الأمـل

الرثاء :

قال الحسين بن مطير يرثي معن بن زائدة :

ألمَّـا على مَعـن وقَـولاَ لـقـبـره ... سقتـكَ الغَوادِي مـربْعـاَ ثم مَـربعـا
فـيـا قبـر مَعْنٍ أنت أوّلُ حُفْـرة ... من الأرض خُطّت للسماحة مضجعا
ويـا قبـر معن كيف واريتَ جُـودَه ... وقـد كان منه البر والبحـر مترعـا!
بلِى قد وسعتَ الجود والجـودُ ميتٌ ... ولو كان حَيًّـا ضقْتَ حتى تَصّدعـا!
فتًى عيشَ في معـروفـه بعـدَ مـوتـه ... كمـا كان بعـد السيل مَجْراه مَرْتعـا
ولما مضى معنٌ مضى الجود وانقضى ... وأصبح عـرْنينُ المكـارم أجْـدَعـا

وقال محمد بن عبد الملك الزيات يرثي زوجته :

ألا مَنْ رأى الطفل المفـارق أمِّـه ... بُعيـد الكـرى عينـاه تتسكبـان؟
رأى كـل أم وابنـهَـا غيـر أمـه ... يـبيتـان تحت الليـل ينتجيـان
وبـات وحيـداً في الفـراش تجُنُّه ... بـلابـلُ قلب دائم الخـفـقـان
فـلا تلحيـاني إن بكيت فـإنمـا ... أداوي بهـذا الـدمـع مـا تـريـان
فهبني عـزمت الصبر عنهـا لأنني ... جليـد، فمن بـالصبـر لابن ثمـان؟
ضعيف القوى لا يطلب الأجر حِسبة ... ولا يـأتسي بـالنـاس في الحـدَثـان
فلم أر كـالأقـدار كيف تصيبني ... ولا مثل هـذا الـدهـر كيف رماني
أعينيَّ إن لم تسعـدا اليوم عبـرتي ... فـبئس إذَنْ مـا في غـد تـعـداني

وقال المتنبي يرثي أخت سيف الدولة :

طوى الجـزيـرَة حتى جـاءني خبرٌ ... فـزعت فيه بـآمـالي إلى الكـذبِ
حتى إذا لم يَـدَعْ لي صدقُـه أمـلا ... شرِقْتَ بـالـدمع حتى كـاد يشْرَق بي

الهجاء:

قال مسلم بن الوليد:

أما الهجاء فدق عرضك دونه ... والمدح عنك كما علمت جليل
فاذهب فأنت طليق عرضك إنه ... عرض عززت به وأنت ذليل

وقال أبو تمام:

كم نعمة للّه كانت عنده ... فكأنها في غربة وإسار
كسِيت سبائب لؤمه فتضاءلت ... كتضاؤل الحسناء في الأطمار

وقال ابن الرومي:

يقتر عيسى على نفسه ... وليس بباق ولا خالد
فلو يستطيع لتقتيره ... تنفس من مِنخر واحد

وقال المتنبي في كافور الإخشيدي:

أكلما أغتال عبدُ السوء سَيدَة ... أو خانه فله في مصر تمهيد؟
صار الخصيُّ إمام الآبقين بها ... فالحر مستعبد والعبد معبود!
نامت نواطير مصر عن ثعالبها ... حتى بشمن وما تفنى العناقيد
العبد ليس لحر صالح بأخ ... لو أنه في ثياب الحر مولود
لا تشتر العبد إلا والعصا معه ... إن العبيد لأنجاس مناكيد
من علم الأسودَ المخصيَّ مكرُمة؟ ... أقومهُ البيض أم آباؤه الصِّيدُ؟
أم أذنه في يد النخاس داميةً ... أم قدره وهو بالمفلسين مردود؟
وذاك أن الفحول البيض عاجزة ... عن الجميل فكيف الخصية السود؟

وقال ابن لنكك:

وعصبةٍ لما توسطهم ... صارت عليَّ الأرض كالخاتم
كأنهم من سوء أفهامهم ... لم يخرجوا بعدُ إلى العالم
يضحك إبليسُ سروراً بهم ... لأنهم عارٌ على آدم

الوصف:

قال البحتري من قصيدته في وصف إيوان كسرى:

صنْت نفسي عما يدَنِّس نفسي ... وترَفعْتُ عن جَدَا كل جِبس
وتمَاسَكْتُ حيْنَ زَعْزَعني الدّهـ ... ـرُ التماساً منه لتَعسي ونكسي
بُلغٌ منْ صبابة العيش عنْدي ... طفَّفتها الأيام تطفيف نجس
وكأن الزمان أصبح محمو ... لا هواه مع الأخسِّ الأخس

واشتـرائي العـراق خُـطة غبْنٍ بعـد بيعي الشـآم بيعـة وكس
ولـقـد رابني نبّـو ابن عمـي بعـد لين من جـانبيـه وأنس
وإذا مـا جُفيت كنت حَريـاً أن أرى غيـر مُصبح حيث أمسي
حضرت رحْلي الهموم فوجهـ ـت إلى أبيض المدائن عَنسي
أتسلى عن الحظوظ وآسى لمحلٍّ من آل ساسان دَرْس
ذكّرتنيهمُ الخطوب التوالي ولقد تُذكر الخطوب وتُنسي
وهُمُ خافضون في ظل عال مشرف يُحْسرُ العيون ويخسي
مُغلق بابهُ على جبل القيـ ـق إلى دارتيْ خِلاط ومكس
حِلَلٌ لم تكن كأطلال سُعْدى في قفار من البسابس مُلْس
ومَساع لوْلا المُحَاباة مني لم تطقها مَسْعاة عنس وعبس
نقل الدهرُ عهدهن عن الجـ ـدّة حتى غدون أنضاءَ لُبس
فكأن الجرماز من عدم الأنـ ـس وإخلاقه بَنيّة رمس
لو تراه علمت أنّ الليالي جعلت فيه مأتماً بعد عرس
وهو ينبيك عن عجائب قوم لا يُشاب البيان فيهم بلبس
وإذا ما رأيت صورة أنطا كّية ارتعت بين روم وفرس
والمنايا موائل وأنو شر وان يزجي الصفوف تحت الدرَفس
وعراك الرّجال بَين يَديهِ في خفوت منهم وإغماض جَرس
من مشيح يهوي بعامل رمح ومُليح من السنان بترس
تصف العينُ أنهم جِدُّ أحيا ءٍ لهم بينهم إشارة خرس
يغتلي فيهمُ ارتيابيَ حتى تتقراهُم يَدي بلمس
قد سقاني ولم يُصَرِّد أبو الغو ث على العسكرين شربة خَلس
من مُدَامٍ تَقُولُها هي نجْمٌ أضْوأ الليلَ أوْ مُجاجة شمْس
وتراها إذا أجدّت سرُوراً وارتياحاً للشارب المَتحسي
أفرغت في الزجاج كلّ قلبٍ فهْي محبوبَةٌ إلى كلٍّ نفس
وتوهمت أن كسرَى أبرْويـ ـز معاطيَّ والبلْهَبذَ أنسي
حُلمٌ مطبقي على الشكّ عيني أم أمانٍ غيرْن ظني وحدسي
وكأنّ الإيوان من عجب الصنـ ـعة جَوْبٌ في جنب أرْعن جَلْس
يتظَنى من الكآبة إن يبْـ ـد لعينيْ مُصبِّح أو مُمَسّي
مزعَجاً بالفراق عن أنس إلف عز أو مُرْهَقاً بتطليق عِرس
عكست حظّه الليالي وبَات الـ ـمُشتري فيه وهو كوكب نَحس
فهوَ يُبْدِي تجلداً وعليهِ كلْكَلٌ من كلاكِل الدهر مُرسي

openkandil.com

لم يَعِبْـه أن بُـزّ من بُـسط الـديـ ... بـاج واستُلّ من ستـور الـدمَقْس
مشـمـخـرٌ تعلـو لـه شُـرُفـات ... رفعت في رءوس رَضْـوى وقُـدس
لابسـات من البيـاض فمـاتُبْـ ... صـرُ منهـا إلا غـلائـل بُـرس
لـيس يُـدْرى أصنـع إنس لـجنِ ... سـكـنـوه أم صـنـع جن لإنس
غيـر أني أراه يـشهـد أن لـم ... يـك بـانيـه في الـملوك بِنكس
فكـأني أرَى الـمـراتـب والقـوْ ... مَ إذا مـا بـلغت آخـر حـسي
وكـأن الـوفـودَ ضـاحين حَسـرى ... من وقـوف خلْفَ الـزحـام وخُنس
وكـأن القيـان وسط المقـاصيـ ... ـر يُرَجِّعـن بَيـن حـو ولُـعس
وكـأن الـلقـاء أوّل مـن أمـ ... س ووشْـكَ الـفـراق أوّل أمس
عُمِّـرت للسـرور دهـراً فصـارَت ... لـلتعـزِّي ربـاعـهم والتـأسي
فـلهـا أن أعـيـنـهـا بـدُمـوع ... مـوقفـات على الصبـابـة حُبْس
ذاك عنـدي وليست الـدار داري ... بـاقتـراب منهـا ولا الجنس جنسي
غيـر نُعمى لأهـلهـا عنـد أهـلي ... غـرسـوا من زكـائها خيـر غـرس
أيـدوا مـلكـنـا وشـدُّوا قـواه ... بكمُـاة تـحـت السَّنَـوّر حُـمْس
وأعـانـوا عـلى كـتـائـب أريـا ... ط بـطعـنٍ على الـنحـور ودَعْس
وأراني مـن بـعـد أكـلَف بالأشـ ... ـراف طراً مـن كـل سِنـخ وأسّ

وقالت إحدى شواعر الأندلس تصف وادي آش:

وقـانـا لـفـحـةَ الـرمـاد واد ... سقـاه مضـاعـف الغيثِ العميمِ
حـللنـا دوْحـه فـحـنـا عـلينـا ... حنـوَّ الـمـرضعـات على الفـطيم
وأرشـفـنـا عـلى ظـمـأ زلالا ... ألـذّ مـن الـمـدامـة لـلنـديم
تـروع حصـاه حـاليـة العـذارى ... فتلمس جـانب العـقـد العـظيم
يَـصـدُ الـشـمس أنـى واجـهـتـنـا ... فـيـحـجـبـهـا ويـأذن لـلنسـيـم

الحكم والأمثال:

قال بشار بن برد:

إذا كنت في كـل الأمـور معـاتبـاً ... صـديقـك لم تلق الـذي لا تعـاتبـه
فعِشْ واحـداً أو صِلْ أخـاك فـإنـه ... مُـقَـارف ذنـب مـرة ومـجـانـبـه
إذا أنت لم تشرب مراراً على القذى ... ظمئت، وأي الـنـاس تصفو مشـاربه

وقال مسلم بن الوليد:

حسبي بمـا أبـدت الآيـام تجـربـةً ... سَعى عليّ بكـأسيْهـا الجـديـدان
دلت على عيبهـا الـدنيـا وصـدقهـا ... ما استرجع الدهر مما كـان أعطاني

ما كنت أدَّخر الشكوى لحادثة ... حتى ابتلى الدهر أسراري فأشكاني

وقال أبو العتاهية:

الصمت أجمل بالفتى ... من منطق في غير حِينه
لا خير في حشو الكلا ... م إذ اهتديت إلى عيونه
كل امرىء في نفسه ... أعلى وأشرف من قرينه

وقال أبو تمام:

مَن لي بإنسان إذا أغضبته ... وجهلت كان الحلمَ ردُّ جوابه
وإذا طربت إلى المدام شربت من ... أخلاقه وسكرت من آدابه
وتراه يصغي للحديث بقلبه ... وبسمعه ولعله أدرى به!

وقال البحتري:

وتِرتُ القوم ثم ظننت فيهم ... ظنوناً لست فيها بالحكيم
فما خُرْقُ السفيه وإن تعدَّى ... بأبلغ فيك من حقد الحليم
متى أحْرَجْتَ ذا كرم تخطى ... إليك ببعض أخلاق اللئيم

وقال ابن الرومي:

عدوك من صديقك مستفاد ... فلا تستكثرنَّ من الصحاب
فإن الداء أكثر ما تراه ... يحول من الطعام أو الشراب
وما اللجَجُ المِلَاحُ بُمرْوياتٍ ... وتلقى الرِّيَّ في النُّطَف العذاب

وقال المتنبي:

إنا لفي زمن ترك القبيح به ... من أكثر الناس إحسان وإجمال
لو لا المشقة ساد الناس كلهم ... الجود يفقر والأقدام قتال
وإنما يبلغ الإنسان طاقته ... ما كل ماشية بالرحل شِملال
ذكر الفتى عمره الثاني، وحاجته ... ماقاته، وفضول العيش أشغال

الاعتذار والاستعطاف:

قال علي بن الجهم يعتذر للمتوكل:

عفا الله عنك ألا حرمةٌ ... تجود بعفوك أن أبعدا
لئن جلّ ذنب ولم أعتمد ... لأنت أجل وأعلى يدا
أم تر عبداً عدا طَوره ... ومولى عفا ورشيداً هدى؟
ومفسد أمر تلافيته ... فعاد فأصلح ما أفسدا
أقِلى أقالك من لم يزل ... يقيك ويصرف عنك الردى

وقال البحتري:

فَدَيناك من أي خطب عَرى ... ونائبة أوشكت أن تنوبا
وإن كان رأيك قد خال فيَّ ... وأوليتني بعد بشر قطوبا
أكذِّبُ نفسي بأن قد سخطت ... وما كنت أعهد ظني كذوبا
ولو لم تكن ساخطاً لم أكن ... أذم الزمان وأشكو الخطوبا
أيصبح ورِديَ في ساحتيك ... طرْقاً وَمرعَايَ مَحْلاً جديبا!
ومَا كان سخطك إلا الفراق ... أفاض الدموع وأشجى القلوبا
ولو كنت أعرف ذنباً لما كا ... نَ خالجني الشكّ في أن أتوبا
سَأصبرُ حتى ألاقي رِضا ... كَ إمَّا بَعيداً وَإمَّا قريبا
أرَاقِبُ رأيك حَتى يَصحَّ ... وأنظر عطفك حَتى يَثوبا

وقال سعيد بن حميد:

لم آت ذنباً، فإنْ زعمت بأن ... أتيت ذنباً، فغير مُعتمد
قد تطرف الكفُّ عين صاحبها ... فلا يرى قطعها من الرَّشد

ومن قصيدة للمتنبي يستعطف بها سيف الدولة لبني كلاب بعد أن ظفر بهم:

طَلبتهُم على الأمَواء حَتى ... تخّوف أن تفتشه السحاب
يهز الجيش حولكَ جانبيه ... كما نفضَتْ جناحيْها العُقَاب
وكيف يتمُّ بأسك في أناس ... تُصيبُهُم فيؤلمكَ المصاب؟
ترَفّقْ أيها المولي عليهم ... فإنْ الرّفق بالجانِي عتاب
وإنهمُ عبيدكَ حيثُ كانوا ... إذَا تدعو لحادثة أجابوا
وعينُ المخطئين همُ وليسوا ... بِأوّل مَعشر خَطئوا فتَابوا
ومَا جهلت أياديكَ البَوادي ... ولكن ربما خفيَ الصَواب
وكم ذنب مُولَدُهُ دلال ... وكم بَعد مُولَدُهُ اقتراب
وجُرم جّرهُ سفهاءُ قوْم ... وحلّ بغير جارمه العِقَاب

الفصل الخامس

الشعراء المولدون

كان الشاعر في الجاهلية لسان دفاع، وحامي ذمار، ومسجل محامد؛ وفي الدولة الأموية كان داعية دين، ودعامة مُلك، وناصر مذهب، ومؤيد فرقة؛ وفي الدولة العباسية كان نديم خليفة، وسمير أمير، وأليف كأس، وصريع غانية. وكان أكثر شعراء بغداد في صدْر هذا العصر من الموالي الذين أطاعوا العرب كرهاً، واعتقدوا الإسلام رياء، فهاجموا الأخلاق بالخلاعة والمجون، وأذاعوا في الناس الزندقة والشك، ولكنهم أذاعوا كذلك الآراء الحرة، والمعاني المبتكرة، والأخيلة البديعة، والأوصاف الدقيقة، والمذاهب الجديدة، والعبقريات المأثورة، كمطيع بن إياس، وحماد عجْرد، وحسين بن الضحاك، وبشار بن برْد، ووالبة بن الحباب، وأبي نواس، ومسلم بن الوليد، وأبان بن عبد الحميد، وأبي العتاهية، وأبي دلامة، ومروان بن أبي حفصة، وعباس بن الأحنف، وعلي بن الجهم، ودعبل الخزاعي، والعَسكَوّك.

شعراء بغداد

٣٨ ـ بشار بن برد

٧١٤ ـ ٧٨٤ م

٩٥ ـ ١٦٧ هـ

نشأته وحياته:

هو بشار بن بُرْد بن يرجوخ العقيلي بالولاء كنيته أبو معاذ ولقبه المرَعَّث لأنه كان في

---

٣٨ ـ انظر ترجمته في: فحولة الشعراء: ص ٤٧، ٤٨، والشعر والشعراء: ص ٤٧٦ ـ ٤٧٩، وطبقات الشعراء: ص ٢ ـ ٦، (طبعة ثانية) ص ٢١ ـ ٣١، والأغاني: ٣/١٣٥ ـ ٢٥٠، وزهر الآداب، =

أُذنيه رُعثة، «والرعثة القرط». أصل أبيه من فرس طخارستان من سبي الملهب بن أبي صفرة، وهبه لامرأة من بني عقيل فتزوجته ونسب إليها. ولد بشار بالبصرة ونشأ في بني عقيل مولعاً بالاختلاف إلى الأعراب المخيمين ببادية البصرة، حتى شب فصيح اللسان صحيح البيان من اللكنة والخطأ، ولذا كان آخر من يحتج النحاة بشعرهم من الشعراء. فلما بلغ مبلغ الرجال انتجع الخلفاء والأمراء بالمدح، وكاد يعيش في ظلال الشعر وادع النفس رغد العيش لو لا تعديه بالهجاء، وتعرضه للنساء، وهتكه ستر الحشمة، حتى نقم الناس ذلك منه، وتمنوا موته صوناً للعذارى وغيرة على المخدرات. قال مالك بن دينار. «ما شيء أدْعى لأهل هذه المدينة إلى الفسق من أشعار هذا الأعمى الملحد»، ودخل فريق من الغُيُرِ على المهدي فأسمعوه قصيدة من غزله، فقال: «بمثل هذا الشعر تميل القلوب ويلين الصعب» وأمر به، فلما جاء قال له: «واللّه لئن قلت بعد هذا بيتاً واحداً في تشبيب لآتينّ على روحك»، فكان بشار بعد ذلك إذا أراد الغزل ذكره أن الخليفة منعه من كيت وكيت ويذكر ما يريد من اللهو وحديث النساء.

ولما توقح بشار وتهتك، ولم يردعه تهديد المهدي له، ولا زراية الناس عليه، سُعِيَ به ثانية إلى الخليفة ورُمي عنده بكل نقيصة. وصادف ذلك أن بشاراً مدح المهدي فلم يجزه لميله عنه وتغيره عليه، فهجاه بأبيات منها:

بني أمية هبُّوا أطال نومكم ... إن الخليفة يعقوبُ بن داود
ضاعت خلافتكم يا قوم فالتمسوا ... خليفة اللّه بين الزقّ والعود

وبلغ الخليفة ذلك، فدعا صاحب شرطته وأمره أن يضربه بالسوط، فضربه حتى مات سنة ١٦٧، وقد أوفى على السبعين.

صفته وأخلاقه:

ولد بشار أكْمَهَ فما رأى الدنيا قط. على أنه كان يشبه الأشياء بعضها ببعض في شعره فيأتي بما لا يقدر عليه البصراء، كقوله:

كأن مثار النقع فوق رؤوسنا ... وأسيافنا ليلٌ تَهاوى كواكبُه

وكان ضخم الجثة، مفرط الطول، مجدور الوجه، جاحظ الحدقين، قد تغشاهما لحم أحمر؛ فكان أقبح الناس عَمى وأفظعهم منظراً. قالت له امرأة ذات يوم: لا أدري لِمَ يهابك

للحصري، انظر فهرسه، والموشح: ص ٢٤٦ ـ ٢٥٠ وسمط اللآلىء: ص ١٩٦، ١٩٧، ونكت الهميان، ص ١٢٥ ـ ١٣٠ وخزانة الأدب: ١/٩٦ ـ ٩٧، والأعلام، للزركلي ٢/٥٢، ومعجم المؤلفين: ٣/٤٤ ـ ٤٥.

الناس مع قبح صورتك فأجابها: ليس من حسنه يُهاب الأسد. ودخل عليه أحد الأدباء يوماً وهو نائم في دهليزه كأنه جاموس، فقال له: يا أبا معاذ، من القائل:

إن في بردتيَّ جسماً ناحلا ... لو توكأت عليه لانهدم

قال: أنا. قال: من القائل أيضاً:

في حُلتي جسم فتى ناحل ... لو هبت الريح به طاحا

قال: أنا، قال حملك على هذا الكذب؟ والله إني لأرى أن لو بعث الله الرياح التي أهلك بها الأمم الخالية ما حركنك من موضعك!

وكان بشار متوقد الذكاء، حاضر الجواب، صادق الحسن، بذيء اللسان، كثير المجون، مغموز الدين، يؤمن بالرجعة ويصوِّب رأي إبليس في تقديم النار على الطين وإباته السجود لآدم في مثل قوله:

الأرض مظلمة والنار مشرقة ... والنار معبودة مذ كانت النار

وكان إذا أراد الإنشاد صفق بيديه وتنحنح وبصق يميناً وشمالاً ثم ينشد!

شعره:

قال بشار الشعر وهو ابن عشر سنين، فما بلغ الحلم إلا وهو طائر الصيت فيه. وقد أدرك جريراً وهجاه وقال هجوت جريراً فاستصغرني وأعرض عني، ولو رد علي لكنت أشعر الناس. وأول ما تكلم فيه من أنواع الشعر الهجاء لأن سوقه كانت نافقة أيام ولد. وطرق كل باب من أبواب الشعر التي فتحت قبله ثم زاد عليها. ورواة الشعر ونقدته متفقون على أنه زعيم طبقة المولدين، وأسبقهم إلى المجون البذيء والغزل الرقيق، وأول من جمع شعره بين جزالة البدو ورقة الحضر، وأن شعره هو الحد الأوسط بين الشعر القديم والحديث. فهو في المولدين كامرىء القيس في الجاهليين، والبارودي في المحدثين، وكان الأصمعي يشبهه بالأعشى والنابغة لسلامة شعره من الخلل وخلوه من الحوشي والتعقيد. وقد شهد له الجاحظ بالتبريز في سائر مناحي القول وفنون الكلام فقال: «كان بشار خطيباً صاحب منظوم ومنثور ومُزدوج وسجع ورسائل. وهو من المطبوعين أصحاب الإبداع والإختراع المتفننين في الشعر، القائلين في أكثر أجناسه وضروبه».

ولسلامة شعر بشار وطلاوته أولع به شبان البصرة وخلعاؤها، وافتن به نساؤها؛ فكن يذهبن إليه، وينعمن بحديثه، ويتغنين بشعره. فهوى جارية منهن تسمى عَبْدَة، شهرها بشعره حتى صار له معها أخبار طائرة وأشعار سائرة.

عيوب شعره:

لا يسن لباحث أن يعرف ما ينتقد به عليه؛ لأن شعره لم يدون فذهب به الزمان، ولم

يبق من اثنى عشر ألف قصيد إلا قطع مختارة منتشرة في الكتب وكل ما يعلم من عيوبه خروجه في شعره عن الحد المألوف من المجون، وتكميله القافية إذا أعوزته بألفاظ لا حقيقة لها، وتبذله في شعره أحياناً فيميل عن الشعر الجزل إلى الركيك السهل كقوله في جاريته:

ربَابة ربة البيت   تصب الخل في الزيت
لها عشر دجاجات   وديك حسن الصوت

وقوله:

إن سلمى خلقت من قصب   قصب السكر لا عظم الجمل
وإذا أدنيت منها بصلا   غلب المسك عَلَى ريح البصل

ولكنه كان يعتذر عن مثل الأول بأن له حالاً تقتضيه، وعن مثل الثاني بأنه قاله في صباه.

نموذج من شعره

من قوله في الغزل:

يزهدني في حب عبْدَة مغشرٌ   قلوبُهمُ فيها مخالفة قلبي
فقلت دعوا قلبي وما آختار وآرتضى   فبالْقلب لا بالْعين يبصر ذو الحبِ

وقوله:

يا قوم أُذْني لبعض الحي عاشقة   والأذن تعشق قبل العين أحيانا
قالوا بمن لا ترى تهذي؟ فقلت لهم   الأذن كالعين توفي القلب ما كانا

وقوله:

لمٍ يطل ليلى ولكن لم أنم   ونفى عني الكَرَى طيف ألم
نفسي يا عبد عني واعلمي   أنني يا عبدَ من لحم ودم
إن في بردي جِسماً ناحلاً   لو توكأت عليه لآنْهَدَمِ

ومن أبياته السائرة قوله:

هل تعلمين وراء الحب منزلة   تدني إليك، فإن الحب أقصاني

وقوله:

أنا واللَّه أَشْتَهي سحر عينيـ   ـك وأخشى مصارع العشاق

وقال وهو يدل على اعتقاده بالجبر:

طبعت عَلَى ما فيّ غيرَ مخَيَّر   هوايَ، ولو خُيرت كنت المهذبا
أريد فلا أعطى، أُعطي ولم أرد   وقصّر علمي أن أنال المغيبا

ومن قوله في الوصف والحماسة:

إذا الملكُ الجبارُ صعّر خدّهُ ... مَشَينَا إليه بالسيوف نعاتبه
وأَرْعَنَ يغشى الشّمسَ لونُ حديده ... وتحبسُ أبصارَ الكماة كتائبهُ
تغصُّ به الأرضُ الفضاءُ إذا غدا ... تزاحِمُ أركانَ الجبال مَنَاكبُه
ركبنَا له جَهْراً بكلِّ مثقف ... وأبيض تستسقي الدِّماء مضاربه
كأن مثار النّقع فوق رؤوسنا ... وأسيافنا ليل تهاوى كواكبه

٣٩ ــ أبو العتاهية

٧٤٨ ـ ٨٢٦ م

١٣٠ ـ ٢١١ هـ

نشأته وحياته:

هو إسماعيل بن القاسم بن سُويد وكنيته أبو إسحاق ولقبه أبو العتاهية ولد بعين التمر قرية بالحجاز ونشأ في الكوفة على صناعة أهله، وكانوا باعة جِرَار. فجعل يصطنعها ويحملها في قفص على ظهره متنقلاً في شوارع الكوفة يبيعها. إلا أنه مع ذلك كان ولوعاً بالقريض، نزوعاً إلى الأدب، يقول الشعر على سجيته من غير أن يجهد نفسه فيه وربما حدَّث ببعض الحديث فيأتي موزوناً مقفى فيظنه الناس نثراً وهو شعر. ومنشأ ذلك تمكن الشاعرية منه ورسوخها فيه، حتى إنه كان يقول عن نفسه «لو شئت أن أجعل كلامي كله شعراً لفعلت».

ومما يؤيد أن الشعر كان فيه سليقة لا صناعة، أنه كان يجهل العروض جهلاً تاماً؛ وله أوزان لا تدخل فيه، ولا تجري في مجاريه ولما سمع به متأدبو الكوفة وفتيانها كانوا يذهبون إليه في مصنعه ويستنشدونه فينشدهم أشعاره، فيأخذون ما تكسر من الخَزَف فيكتبونها فيه. وهكذا بدأ أبو العتاهية يصنع الشعر في أتونِه خَزَفاً، ثم ما لبث أن صنعه دراً تقلدته الأمراء والكبراء، وجرى ذكره مجرى المثل، فانتقل الخزاف من بين الطين والماء، إلى مجالس الشعراء ودواوين الخلفاء.

وفد إلى بغداد حاضرة العلم والأدب في أول خلافة المهدي ومدحه فحظي لديه واختلط ببعض جواريه فعشق منهن جارية تسمى عُتبة، أكثر فيها الغزل حتى هَمَّ المهدي أن

---

٣٩ ـ انظر ترجمته في: طبقات الشعراء: طبعة أولى ص ١٠٥ ـ ١٠٨، وطبعة ثانية ص ٢٢٨ ـ ٢٣٤، ومروج الذهب: ٨٢/٧ ـ ٨٣، والأغاني: ١/٤ ـ ١١٢، ووفيات الأعيان: ١/٨٩ ـ ٩٢، وتاريخ بغداد: ٢٥٠/٦ ـ ٢٦٠، ولسان الميزان: ٤٢٦/١ ـ ٤٢٩، وأعيان الشيعة للعاملي ٨٠/١٢ ـ ١١٠.

يهبها إياه لو لا ضراعتها وكراهتها له. فألهاه عن ذكرها بالمال الكثير، فكان يأخذ المال ولا يفتر عن ذكرَها في شعره حتى في مدائحه له. وكل ذلك كما قيل تصنع وتخلق ليُذكر بذلك. فلما توفي المهدي واستخلف الهادي، تغيرت أخلاق الشاعر فلها عن ذكر عتبة، وأخذ في التزهد والتخشن، وأقبل على درس مذاهب المتكلمين وبعض الفِرق، فكان يأخذ بكلٍ وقتاً ثم ينصرف عنه إذا سمع طاعناً عليه. ولم يأت عصر الرشيد حتى أضرب عن الغزل وقصر قوله على التزهيد في الدنيا والتذكير بالموت. ثم عرضت له حال امتنع فيها عن قول الشعر ألبَتَة. فأرغمه الرشيد عليه فأبى، فضربه ستين عصا وسجنه ولم يطلقه حتى رجع إلى قول الشعر. وكان بعد ذلك لا يفارقه في حضر ولا سفر، وأجرى عليه وظيفة مقدارها خمسون ألف درهم غير الجوائز منه ومن أمرائه. واتصلت شهرته بالآفاق وتَغَنَّى بشعره المغنون وتناجى به الزهاد وسائر الناس على اختلاف طبقاتهم، وعنى العلماء والرواة بجمع شعره، ولم تزل تلك حاله مدة الرشيد والأمين وأكثر أيام المأمون حتى مات سنة ٢١١.

صفته وأخلاقه:

كان أبو العتاهية أبيض اللون أسود الشعر له وفْرة جعْدة وهيئة حسنة. وكان لبِق اللسان مذبذب الرأي مفككاً معتل العقيدة لاضطرابه في الآراء وتلونه في النِّحل، مقتراً على نفسه وأهله مع وفرة ماله وحسن حاله. وكان بعض الناس ينسبه إلى إنكار البعث محتجاً بأن شعره إنما هو في ذكر الموت والنفاد دون ذكر النشور والمعاد. وعلى الجملة فالدارس لحياة الرجل يراه مضطرب المزاج غريب الأخلاق مذبذباً في نسبه وحبه وعلمه وعقيدته.

شعره:

كان هذا الشاعر غزير البحر، لطيف المعاني، سهل الألفاظ، كثير الافتنان قليل التكلف، إلا أن شعره كثير الساقط المرذول. وأجوده ما قاله في الزهد والأمثال. ولقد قال الأصمعي: «إن شعر أبي العتاهية كساحة الملوك، يقع فيهاالجوهر والذهب والتراب والنوى» وذلك حق؛ لأنه كان يرسل الشعر ارسالاً على البديهة من غير تعمُّل ولا تنقيح. على أنه في الطبقة الأولى من المولدين كبشار وأبي نواس، وهذا كان يفضله على نفسه ويمتاز أبو العتاهية بقلة تكلفه وسهولة ألفاظه حتى كادت تخرج إلى حد الابتذال. وحجته في ذلك أنه يرمي إلى العظة والزهد فينبغي أن يكون شعره مفهوماً لدى الناس على السواء. وهو الذي نهج للشعراء مناهج الزهد والعظات فاقتفوا أثره فيها. ولقد طرق أبواب الشعر فأجاد، إلا أن تفوقه ونبوغه إنما هو في الحِكَم وضرب الأمثال. وله أرجوزة جمعت أكثر من أربعة آلاف مثل. أما غزله فخيره ما قال في عتبة وأحسن مدائحه ما قاله في المهدي والرشيد. ولقد صان لسانه عن الهجاء إلا ما كان بينه وبين عبد الله بن معن، فإنه قال فيه من غير فحش ولا هُجر:

فصغ ما كنت حليت به سيفك خلخالا

وما تصنع بالسيف إذ لم تكُ قتالاً؟
ولو مَدّ إلى أذنيـ ـهِ كفيه لما نالا
أرىَ قومكَ أبطالاً وقد أصبحتَ بَطالا

درر من قلائده:

من قوله في الغزل:

عيني على عتبة مُنْهلّةً بدمعها المنسكب السائل
كأنها من حسنها درّة أخرجها اليمُّ إلى الساحل
كأن في فيها وفي طرفها سواحراً أقبلن من بابل
بسطت كفي نحوكم سائلاً ماذا تردون على السائل؟
إن لم تنيلوهُ فقولوا لهُ قولاً جميلاً بدل النائل
لم يُبق مني حبها ما خلا حُشاشةً في بدنٍ ناحِل
يا من رأى قبلي قتيلاً بكى من شدة الوجد على القاتل!

وقال للمهدي وقد توفيت ابنته:

ما للجديدين لا يَبْلَى اختلافهما وكلّ غصن جديد فيهما بالي؟
يّ من سلا عن حبيب بعدَ ميتته كم بعد موتك أيضاً عنك من سالي!
كأنَّ كلّ نعيم أنتَ ذائقه من لذَّةِ العيش يحكي لمعَة الآل
لا تَلْعَبَنَّ بك الدُّنيا وأنتَ ترى ما شئت من عبر فيها وأمثال
ما حيلة الموت إلا كل صالحة أو لاَ ، فما حيلة فيهِ لمحتال

ومن قوله للرشيد وقد سجنه لاضرابه عن الغزل:

تذكر أمينَ الله حقي وحرمتي وما كنت توليني لعلكَ تذكر
ليالِيَ تدني منك بالقرب مجلسي ووجهك من ماء البشاشة يقطر
فمنْ لي بالعين التي كنت مرَّةً إليَّ بها في سالف الدهر تنظر

ومن قوله يعظ الرشيد:

لا تأمن الموت في طرف ولا نفسَ وَلوْ تسترت بالأبوابِ والحرَس
واعلم بأن سهام الموت قاصدةٌ لكلِّ مدرَّع منّا ومترس
ترجو النجاة وَلم تسلك مسالكها إن السفينةَ لا تجري على اليبس

وقال:

لدوا للموت وابنوا للحرَب فَكلكم يصيرُ إلى ذَهَاب
ألاَ يا موت لم أرَ منكَ بدًّا أتيت وَما تحيف وما تحابي
كأنك قد هجمت على مشيبي كما هجَم المشيب على الشبابِ

٤٠ ـ أبو نواس
٧٦٢ ـ ٨١٥ م
١٤٥ ـ ١٩٩ هـ

نشأته وحياته:

هو الحسن بن هانىء بن عبد الأول الحكمي. يكنى بأبي نواس لأن خلفا الأحمر كان له ولاء باليمن، وكان من أميل الناس إلى أبي نوَاس فقال له: أنت من أشراف اليمن فتَكَنَّ بأسماء الذوين (وهم الملوك الذين تبتدأ أسماؤهم بذو) ثم أحصى أسماءهم فقال: ذو جدن وذو يزن وذونواس فآختار ذاتوس فكناه بها، فغلبت على كنيته الأولى وهي أبو علي وُلِدَ بقرية من قرى الأهواز ونقل إلى البصرة ونشأ بها. ثم انتقل إلى بغداد وتوفي فيها. كان أبوه من جند مزوان بن محمد آخر خلفاء بني أمية. ولما توفي لم يجد أبو نواس من يعوله، فآلتجأ إلى عطار يشتغل عنده. ولكنه كان مولعاً بالعلم مشغوفاً بالأشعار والأخبار، فكان كثيراً ما يغشى أندية العلماء، ويحضر حوار الشعراء، ويترنم بالنظم. وقد سمع بذكر والبة بن الحباب وشهرته في الشعر فكان يود لو يتصل به ليأخذ عنه. فآتفق أن مر والبة هذا بالعطار الذي كان يعمل عنده أبو نواس فتوسم فيه الذكاء والفطنة وتوقد الذهن. فقال له إني أرى فيك مخايل أرى ألا تضيعها، وستقول الشعر فآصحبني أخَرّجك، فقال له ومن أنت؟ قال: أنا والبة بن الحباب. فقال له. نعم أنا واللّه في طلبك، ولقد أردت الخروج إلى الكوفة لآخذ عنك. فسار أبو نواس معه، وقدم بغداد وقد أربى على الثلاثين، وهناك صحب الشعراء ودرس على العلماء حتى أصبح من أشعر أهل عصره وأغزرهم علماً وأنبههم اسماً. وتأدى خبره إلى الرشيد فأذن له في مدحه فمدحه وآتصل به ونفق عنده. وبلغ من دالة أبي نواس عليه أنه كان يمر به بنو هاشم والقوَّاد والكتاب فيحيونه وهو متكىء ممدود الرجل فلا يتحرك لأحد منهم. وكان يقصد عمال الولايات فيمدحهم ومن هؤلاء الخصيب عامل مصر، فقد مدحه بقصائد رواها عنه المصريون دون العراقيين. ثم انقطع بعد ذلك إلى محمد الأمين فنادمه ومدحه، وثبت عنده ما يوجب سجنه فسجنه مدة ولم يلبث بعد إطلاقه أن مات سنة ١٩٩ ببغداد.

صفاته وأخلاقه:

كان أبو نواس جميل الصورة، خفيف الروح، حلو الحديث، حاضر البديهة فصيح

---

٤٠ ـ انظر ترجمته في: الشعر والشعراء: ص ٥٠١ ـ ٥٢٥ وتاريخ الطبري: ٣/٧٠٤، ٩٥٨ ـ ٩٦٧، ٩٧٢ ـ ٩٧٣، وأخبار الشعراء: ص ٣٣، ٣٩ وأشعار أولاد الخلفاء: ص ١٤٤، والموشح: ص ٢٦٣ ـ ٢٨٩ وشعراء الشيعة: ص ١١٣، والبداية والنهاية: ١٠/٢٢٧ ـ ٢٣٥، وتاريخ بغداد: =

اللسان، مدمناً للخمر، كثير الهزل والمجون، جامعاً لأشتات الصفات التي يجب أن تكون في النديم، مستخفاً بأمور الدين. وله مع الشعراء مناقضات كثيرة. ونوادره المجونية مجموعة في كتاب خاص غير ديوانه طبع منه جزؤه الأول في القاهرة؛ إلا أن أكثر هذه النوادر وتلك الأشعار المجونية مدسوس عليه؛ لأن جل أشعاره في ذكر اللهو ووصف الخمر وما يتبع ذلك، وليس هذا مذهب المعاصرين له ولا المتأخرين عنه، فألحق الناس بشعره كل ما وجدوه من جنسه ولم يعرفوا قائله. وأكثر أخباره مع جارية شاعرة تسمى جنان قد هويها وكلف بها.

منزلته في الشعر:

كان أبو نواس ضليعاً في اللغة راوياً للشعر والأخبار حتى قيل إنه لم يقل الشعر إلا بعد أن حفظ شعر ستين امرأة خلاف الرجال. وقد قال فيه الجاحظ ما رأيت أحداً كان أعلم باللغة من أبي نواس ولا أفصح لهجة منه مع حلاوة ومجانبة استكراه. ولج أبواب الشعر كلها، إلا أنه آمتاز من كل الشعراء بفحش مجونه، وصراحة قوله، وصدقه في تصوير خليقته وبيئته، ووصفه الخمر وصفاً «لو سمعه الحَسَنان لهاجَرا إليها وعكفا عليها» وأقل شعره مدائحه، وأكثرها في الرشيد وولده الأمين. ويعد أبو نواس ثاني بشار في منزعه لفظاً ومعنى، وكثيراً ما ضرب على وتره، حتى قال الجاحظ: «بشار وأبو نواس معناهما واحد والعِدة اثنان: بشار حل من الطبع بحيث لم يتكلف قولاً ولا تعب في عمل شعر، وأبو نواس حل من الطبع بحيث يصل شعره إلى القلب بغير إذن».

وكان أبو نواس مشهوراً بالتنقيح، يعمل القصيدة ويتركها ليلة ثم ينظر فيها فيحذف أكثرها ويقتصر على الجيد منها، ولهذا قصر أكثر قصائده وهو على رقته ومجونه جزل الألفاظ، فخم الأسلوب، كثير الغريب ولقد ابتدع في الشعر أشياء أنكرها عليه العقلاء، وأخذها عنه الشعراء، كاستهتاره في الفجور، وآسترساله في المجون، ونقله الغزل من أوصاف المؤنث إلى أوصاف المذكر. ولا ريب أن هذه الطريقة التي شرعها هذا الشاعر الماجن كانت جناية على الأدب ووصمة في تاريخ شعر العرب.

درر من قلائده:

قال في الخمر:

ما زلت أستَلُّ رُوح الدَّنِ في لَطَفٍ ... وأستقي دَمه من جوف مجروح
حتى انثنيت ولي روحان في جسدي ... والدَّن منطرح جسماً بلا روح

وقال أيضاً:

مُعَتّقة صاغ المزاجُ لرأسها ... أكاليلَ دِرّ ما لمنظومها سلك

= ٤٣٦/٧ ـ ٤٤٩، ووفيات الأعيان: ١٦٨/١ ـ ١٧٢، وأعيان الشيعة: ٣/٢٤ ـ ٢٤٩، والأعلام، للزركلي ٢٢٥/٢ ومعجم المؤلفين: ٣٠٠/٣ ـ ٣٠١.

جرت حركات الدهر فوق سكونها ... فذابت كذوب التِّبْرْ أَخْلصه السبك
وقد خفيت من لطفها فكأنها ... بقايا يقين كاد يذهبها الشك

قال في وصف شاربها:

ومستطيل على الصهباء باكرَها ... في فتْية بآصطباح الراح حُذَّاق
فكل شيء رآه ظنه قدحاً ... وكل شخص رآه ظنه الساقي

وقال في وصف الكأس:

ودار ندامى عطلوها وأدلجوا ... بها أثرٌ منهم جديدٌ ودارس
مساحب من جرِّ الزقاق على الثرى ... وأضغاثُ رَيحان جنيٌّ ويابس
حبسْت بها صحْبي فجددتُ عهدهم ... وإني على أمثال تلك لحابس
تدارَ علينا الراحُ في عسجديةٍ ... حبتها بألوان التصاوير فارس
قراراتها كسرى، وفي جنباتها ... مَهاً تدَّرِيها بالقسي الفوارس
فللخمر ما زَرَّت عليه جيوبُها ... وللماء ما دارت عليه القلانس

وقال في عاقبة الجهالة:

ولقد نهزْتُ معَ الغُواة بدلْوهم ... وأسمْتُ سَرْح اللهو حيث أسلمو
وبلغت ما بلغَ آمرؤٌ بشبابه ... فإذا عُصارة كلّ ذاك أثامُ

وقال في مدح الخصيب أمير مصر:

تقول التي من بيتها خفَّ محملي ... عزيز علينا أن نراك تسيرُ
أَمَا دون مصر للغنى مُتَطَلبٌ ... بلى إنّ أسباب الغنى لكثير
فقلت لها وآستعجلتها بوادر ... جرت فجرى في إثرهن عبيرُ
دعيني أكَثِّر حاسديك برحلة ... إلى بلد فيه الخصيب أمير
فتى يشتري حسن الثناء بماله ... ويعلم أن الدائرات تدور
فما جازه جود ولا حل دونه ... ولكن يسير الجود حيث يسير

وقال في وصف الدنيا:

ألا كل حي هالك وابن هالك ... وذو نسب في الهالكين عريق
إذا امتحن الدنيا لبيبٌ تكشفت ... له من عدو في ثياب صديق

ومن أبياته التي يتمثل بها:

قوله:

لا أذود الطيرَ عن شجر ... قد بلوتُ المرَّ من ثمره

وقوله:

ليس على اللَّه بمستنكر ... أن يجمع العالم في واحد

وقوله:

صار جدا ما مزحت به ‏ ‏ ‏ ‏ رُبَّ جد ساقه اللعب

٤١ ـ ابن الرومي
٨٣٦ ـ ٨٩٧ م
٢٢١ ـ ٢٨٤ هـ

نشأته وحياته:

أبو الحسن علي بن العباس بن جرجيس مولى عبيد اللّٰه بن علي رومي الأصل. ولد ببغداد وفيها نشأ وتأدب حتى شعر ونبغ. ثم قضى حياته كأكثر الشعراء في انتجاع السراة والولاة. وقد حمل الناسَ بلسانه على بره وتكرمته، إما رغبة وإما رهبة.

كان ابن الرومي شرهاً كما يظهر من غضون شعره. وله أشعار كثيرة في الطعام والشراب. وكان شديد الطِّيَرةِ يغلو فيها ويحتج لها ويقول: إن النبي ﷺ كان يحب الفأل ويكره الطيرة، وأنه مر برجل وهو يَرْحَل ناقة له ويقول: (يا ملعونة)، فقال لا يصحبنا ملعون. وأن علياً رضي اللّٰه عنه كان لا يغزو غزاة والقمر في العقرب. وكان يزعم أن الطيرة موجودة في الطباع، وهي في بعضهم أظهر، وأن الأكثر في الناس إذا لقي ما يكرهه قال: على وجه مَنْ أصبحتُ اليوم؟ قال علي بن المسيب: دخل علينا ابن الرومي يوم مهرجان سنة ٢٧٨ وقد أهْدى إليّ عدة من الجواري القيان؛ وكانت فيهن صبية حولاء وعجوز في إحدى عينيها نكتة. فتطيَّر من ذلك ولم يظهر لي أمره، وأقام باقي يومه لا يخرج. فلما كان بعد مدة يسيرة سقطت ابنة لي من بعض السطوح، وجفاه القاسم ابن عبيد اللّٰه فجعل القينتين سبب ذلك وكتب إليَّ يقول:

أيها المُتْحفي بحول وعُور ‏ ‏ ‏ ‏ أين كانت عنك الوجوه الحسان؟
قد لعمري ركبت أمراً مهيناً ‏ ‏ ‏ ‏ ساءني فيك أيها الخُلْصان
فتحك المهرجانَ بالحول والعو ‏ ‏ ‏ ‏ ر أرانا ما أعقب المهرجان
كان من ذاك فقْدُك ابنتك الحرّ ‏ ‏ ‏ ‏ ة مصبوغةً بها الأكفان
وتجافى مؤمَّل لي جليل ‏ ‏ ‏ ‏ لجَّ فيه الجفاء والهجران

---

٤١ ـ انظر ترجمته في: أخبار أبي تمام: ص ٢٥، ٦٧، والأغاني: ١٠/٥٩، طبعة ثانية ٢٠/٧٢، والموشح: ص ٣٥٧ ـ ٣٥٨، وسمط اللآلىء: ص ١٦٠ ـ ١٦١، والمنتظم: ٥/١٦٥ ـ ١٦٨، وإرشاد الأريب: ١/٢٢٤ ـ ٢٢٧، ومعاهد التنصيص: ١/١٠٨ ـ ١١٨.

قف إذا طِيرة تلقتك وآنظر ... وآستمع ثَمَّ ما يقول الزمان
خبَّر اللّه أن مشأمة كا ... نت لقوم وخبَّر القرآن

وبلغ من تطير ابن الرومي أنه كان يقيم الأيام لا يخرج من داره إذا قرعت أذنه صبيحةَ اليوم كلمةٌ سيئة. وله في ذلك أخبار غريبة مع الأخفش. وكان هذا الشاعر فاحش الهجو شديده حتى خشيه الكبراء والوزراء لذلك. وكان أبو الحسن القاسم بن عبيد اللّه وزير المعتضد لا يفتأ حَذِراً منه خائفاً من هجائه، ولا يكاد يصدق أنه يسلم من لسانه. وكان هذا الوزير شريراً سفاكاً للدماء، فدس عليه من سمه في أكلة وهو حاضر. فلما أحس ابن الرومي بالسم قام، فقال له الوزير: إلى أين؟ فقال إلى الموضع الذي بعثت بي إليه! فقال له سلم على والدي. فقال ليس طريقي على النار. ولحق بمنزله فأقام به أياماً وكان الطبيب يتردد عليه فزعم أنه غلط في بعض العقاقير، فقال وقد سأله نفطويه النحوي وهو يجود بنفسه:

غلط الطبيب عليّ غَلطة مُوردٍ ... عجزت موارِدُه عن الإصدار
والناس يَلْحَون الطبيب وإنما ... غلط الطبيب إصابة الأقدار

شعره:

كان في الناس من يعير ابن الرومي جنسيته، وينتقص لأجلها شاعريته كما يؤخذ من قوله:

كم عائب كل شيء ... وكلُّ ما فيه عيب
قد تُحْسِنُ الروم شعراً ... ما أحسنته العُرَيبُ
يا منكر المجد فيهم ... أليس منهم صهَيب؟

ولكن هذه الجنسية كان لها الأثر الأظهر والفضل الأكبر في نبوغه، فإنه جمع إلى تعمق الآريين في الفكر، تفوّق الساميين في الخيال؛ وضم إلى دقة الروم في التصوُّر، قوة العرب في التصوير. فآمتاز بتوليد المعنى وآستقصائه حتى لا يترك فيه بقية لغيره. ومن ثم طالت قصائده من غير تكرير ولا سقط. وقلما رأينا شاعراً يسلم على الطول وتتساوى أجزاء قصيدته في الحسن والقوة. ولابن الرومي براعة نادرة في وصف الشيء وتشبيهه، وقدرة غريبة على العتاب والهجاء، لما كان يُمْنَى به من جفاء الأصدقاء، وإعراض الكبراء، لحدة طبعه وضيق خلقه. وهو في منزلة أبي تمام والبحتري، وربما فضَلهما أحياناً؛ لأنه قال في كل فنون الشعر المعروفة (وزاد عليها زيادة لو وزعت على عشرة شعراء لأحلتهم منازل الفحول).

على أنه يسفُّ أحياناً فيطلب صحة المعنى ولا يبالي حيث وقع من هُجنة اللفظ وخشونته. ولو أنه نشأ نشأة عبد اللّه بن المعتز لما كان له معه ذكر في باب التشبيه والملح؛ فإن ابن الرومي أعلى كعباً منه في الشعر، ولكن علمه بالمشبهات دون علم الملوك وقد قال

له بعض معاصريه يلومه: لِمَ لا تشبه كتشبيهات ابن المعتز؟ فقال له: أنشدني من قوله الذي آسْتَعْجَزْتني عن مثله. فأنشده قوله في الهلال:

انظر إليه كزورق من فضة ... قد أثقلته حمولة من عنبر؟

فقال له زدني. فأنشده قوله في الآذريون، وهو زهر أصفر في سوطه خمل أسود:

كأن آذرْيونَها ... غبَّ سماء هَاميَه
مداهنٌ من ذهب ... فيها بقايا غالِيَهْ

فصاح واغوثاه! لا يكلف اللّه نفساً إلا وسعها. ذاك إنما يصف ماعون بيته لأنه ابن خليفة، وأنا أي شيء أصف؟ ولكن انظر إذا وصفت ما أعرف أين يقع قولي من الناس. فهل لأحد قط مثل قولي في قوس الغمام:

وقد نشرت أيدي الجنوب مطارفاً ... من الجود كناً والحواشي على الأرض
يطرزها قوس السحاب بأخضر ... على أحمر في أصفر إثْرَ مُبْيَض
كأذيال خَوْدٍ أقبلت في غلائل ... مُصَبَّغة والبعض أقصر من بعض

وقولي في صانع الرقاق:

ما أنس لا أنس خبازاً مررت به ... يدْحو الرقاقة مثل اللمح للبصر
ما بين رؤيتها في كفه كرَةً ... وبين رؤيتها قوراء كالقمر
إلا بمقدار ما تنداح دائرة ... في لجة الماء فيه بالحجر

نموذج من شعره:

من قوله، وقال ما سبقني أحد إلى هذا المعنى:

آراؤكم ووجوهكم وسيوفكم ... في الحادثات إذا دجَوْن نجوم
منها معالم للهدى، ومصالح ... تجلو الدجى، والأخريات رجوم

ومن معانيه المخترعة قوله:

وإذا امرؤ مدح امرأ لنواله ... وأطال فيه فقد أراد هجاءه
لو لم يقدر فيه بُعْدَ المستقَى ... عند الورود لما أطال رِشاءَة

وكان هو يطيل

وقوله:

تودَّدتُ حتى لم أجدُ مِتَوَدِّدا ... وأفنيت أقلامي عتاباً مُردّدا
كأني أستدني بك ابن حَنِيَّة ... إذا النزع أدناه من الصدر أبعدا

ومن بدائع قوله في الشباب:

رأيتُ سواد الرأس واللهو تحته ... كليل وحُلم بات رائيه ينعم

فلمـا اضمحـل الليـل زال نعيمـه   فـلم يبـقَ إلا عـهـده المـتـوهَّـم

وقوله في قصيدة يصف الشمس في الأصيل:

وقـد رنَقت شمس الأصيل ونفَضت   على الأفق الغـربيِّ وَرْساً مـزَعـزعـا
ووَدعت الـدنيـا لتقضيَ نـحبهـا   وشـوَّل بـاقي عمـرهـا فتشعشعـا
ولاحـظت النُّـوّار وهي مـريضـة   وقد وضعت خدًّا إلى الأرض أضْرَعا
كمـا لاحـظت عـوّادَه عينُ مـدْنف   تـوجَّـعَ مِن أوصـابـه مـا تـوَجعـا
وظلَّت عيون النّور تخضـلُّ بالنـدى   كما آغرورقت عينَ الشجّي لتـدمعا
يـراعينهـا صُـوراً إليهـا روَانيـا   ويلحظن الحاظـاً من الشجو خُشَّعـاً
وبـيَّن إغـضـاءُ الفـراق عـليهـمـا   كـأنهمـا خِـلاً صـفـاءٍ تـودَّعـا
وقد ضربت في خضرة الروض صفرة   من الشمس فاخضراخضراراً مشعشعا
وأذكى نسيمَ الـروض ريعـان ظله   وغنى مغنيٍ الـطيـر فيـهِ وسجّعـا
وغـرّد رَيـعيُّ الـذُّبـاب خـلالَـهُ   كما حَثْحَثَ النشوان صنْجاً مشرّعـا
فكـانت أرانينُ الـذُّبـاب هنـا كمـو   على شـدوات الطيـر ضربـاً مـوقعـاً

٤٢ ـ ابن المعتز
٨٦٣ ـ ٩٠٩ م
٢٤٩ ـ ٢٩٦ هـ

نشأته وحياته:

هو أمير المؤمنين أبو العباس عبد اللّه بن الخليفة المعتز، ولد في بيت الملك وموئل الخـلافة، وربيَ في بـاحة النعيم ومـوطن الجلالـة، فنشأ نبيـل النفس دقيق الحس، قوي الشعور بالجمال، ولوعاً بالأدب والمـوسيقى. تأدب على شيـوخ الأدب في عصره كـالمبرّد وثعلب، وشارك في اكثر العلوم النقلية والعقلية وشغله الأدب والطرب واللعب عن دسائس القصر ومطامع الخلافة فكان كما وصف نفسه:

قـليـلٍ هـمـوم الـقـلب إلا لـلـذّة   يُـنَعِّـم نفسـاً آذنـتْ بـالـتـنـقـل
فـإن تَـطِلْبُـه تقتنصـه بـحـانـة   وإلا بـبـسـتـان وكـرم مـظلَّل
ولست تـراه سـائـلاً عن خليفـة   ولا قـائـلاً من يعـزلـون ومن يلي

---

٤٢ ـ انـظر تـرجمتـه في: أشعـار أولاد الخلفـاء: ص ١٠٧ ـ ١١٧، ومـروج الـذهب: ٨/٢٤٩ ـ ٢٥٤، والأغـاني: ١٠/٢٧٤ ـ ٢٨٦، والفهرست: ص ١١٦، وتـاريخ بغـداد: ١٠/٩٥ ـ ١٠١، ووفيـات الأعيـان: ١/٣٢٣ ـ ٣٢٦ وفـوات الـوفيـات: ١/٥٠٥ ـ ٥١١، ومعـاهـد التنصيص: ٢/٣٨ ـ ٤٧، ومعجم المؤلفين: ٦/١٥٤ ـ ١٥٥.

obeikandl.com

ولا صـائحـاً كـالعيْـر في يـوم لـذة ينـاظـر في تفضيـل عثمـان أو علي

إلا أن جماعة من شيعته لما رأوا ضعف المقتدر وآستبداد المماليك وسوء سياستهم خلعوه وبايعوا ابن المعتز فما تبوأ العرش إلا يوماً وليلة، لأن أنصار المقتدر لم يشاؤوا التسليم راضين. فتحزّبوا وحاربوا أعوان ابن المعتز فشتتوهم، وأعادوا المقتدر إلى دسته. وآختفى الخليفة الشاعر في دار الجصاص الجوهري، فتقحموا عليه الدار وآعتقلوه. ودفعه المقتدر إلى مؤنس الخادم فخنقه وسلمه إلى أهله ملفوفاً في كساء.

شعره:

لنشأة ابن المعتز أثر ظاهر في شعره. فهو رقيق اللفظ، سهل العبارة، صافي الأسلوب، لرقة طبعه وسهولة خلقه، وصفاء خاطره. وهو بليغ الاستعارة رائع التشبيه، دقيق الوصف، لدقة حسه، ولطف شعوره، وآمتلأ ذهنه بروائع الجمال وبدائع الخيال ورونق الحضارة. وكان يقول الشعر إرضاء لنفسه وتصويراً لحسه، فبرىء من كذب المدح ولؤم الهجاء، وآنصرف إلى وصف الطبيعة ومجالس الأنس ومطاردة الصيد ومراسلة الإخوان. وله ولع بالبديع في حسن صَوْغ وقلة تكلف. ونثره لا يقل عن شعره في نقاء الأسلوب وجودة اللفظ ودقة التخيل.

مؤلفاته:

لابن المعتز كتاب البديع، وهو أول مصنف في هذا الفن، جمع فيه سبعة عشر نوعاً منه. وكتاب مكاتبات الإخوان بالشعر، وكتاب الجوارح والصيد، وكتاب أشعار الملوك، وكتاب طبقات الشعراء، وكتاب الزهر والرياض، وتصانيف أخرى أغلبها مفقود. وقد طبع ديوانه بالقاهرة في جزأين.

نموذج من شعره:

كـن جـاهـلاً أو فتَـجـاهـل تفُـزْ للجهل في ذا الدهرِ جاهٌ عريض
والعقـل محروم يـرى مـا يـرى كما ترى الوارثَ عينُ المريض

وقال:

آقتلا همي بصِرْف عُقارٍ وآتركا الدهرَ فما شاء كانا
إن للمكروه لذعة هَمْ فإذا دام على المرء هانا

وقال:

ونسيم يبشر الأرض بالقَطـ ـر كذيل الغِلالة المبلول
ووجوه البلاد تنتظر الغيـ ـث انتظار المحب رَجْع الرسول

وقال:

أعـاذلَ قـد كبـرت على العتـاب ... وقد ضحك المشيب على الشباب
رددت إلـى التـقى نـفسـي فقـرّتْ ... كـمـا رُدَّ الحسـامُ إلى القِـراب

وقال في مقبره:

وسكـان دار لا تـزاور بيـنـهـم ... على قرب بعض في المحَلة من بعض
كـأن خـواتيمـاً من الـطين فـوقهم ... فليس لهم حتى القيـامـة من فضّ

وقال:

كـم حـاسـد حَنِـق علـيّ بـلا ... جُـرْم فـلم يـضْـرُرْني الـحنَقُ
متضاحك نحـوي كما ضحكت ... نـار الذُبـالـة وهـي تـحـتـرق

وقال:

انـظر إلـى حُـسـن هـلال بـد ... يهتـك من أنـواره الحِـنـدِسـا
كـمنجـل قـد صِيـغَ مـن فضـة ... يحصِد من زهـر الـدجى نـرجسـا

وقال:

قـلبـيَ وثّـاب إلـى ذا وذا ... لـيس يـرى شيئـاً فـيـأبـاه
يهيـم بـالحُسن كـمـا ينبغي ... ويـرحـم الـقُـبـح فـيـهـواه

وقال:

من لي بقلب صيـغَ من صـخـرة ... فـي جـسـد مـن لـؤلـؤ رطَـبِ
جـرحتُ خـديـه بلحـظى فـمـا ... بـرحـت حتـى آقتصَّ مـن قـلبـي

وقال:

ولـقـد قضـت نفسـي مـآربـهـا ... وقـضـيـتُ غـيّاً مـرة وَرَشَـد
ونـهـار شيـب الـرأس يـوقظ من ... قـد كـان في ليـل الشبـاب رقـد

وقال:

وإني على إشفـاق عيني من البكـا ... لتجـمـح مني نـطرة ثم أُطـرق
كما حلئتْ عن مـاء بـرد طـريـدة ... تمـد إليـه جيـدَهـا وهي تفْـرَق

وقال أيضاً وإشارته إلى الديك:

صفـق إمـا ارتيـاحـة لِسنَـا الـفجـ ... ـر وإمـا عـلـى الـدجـى أسـفـا

ويقال إن له هذا الموشح المشهور، ولا ندري إن كان ابتدعه أم آتبع فيه الأندلسيين:

أيها السـاقي إليـك المشتكى! ... قـد دعـونـاك وإن لم تسمـع

* * *

وندیم همت في غرته
ويشرب الرّاح من راحته
كلما استيقظ من سكرته
جذب الكأس إليه واتّكى وسقاني أربعاً في أربع

***

ما لعيني عشِيت بالنظر!
أنكرت بعدك ضوءَ القمر
وإذا ما شئت، فآسمع خبري:
عشيت عيناي من طول البكا وبكى بعضي على بعضي معي!

***

غصن بان مال من حيث التوى
مات من بهواه من فرط الجوى
خفِقَ الأحشاء موهون القوى
كلما فكر في البين بَكَى ويحُه! يبكي لما لم يقعِ!

***

ليس لي صبر، ولا لي جَلد
يا لَقومي عذلُوا وآجتهدوا!
أنكروا شكواي مما أجد
مثل حالي حقه أن يشتكي؟ كمد اليأس وذل الطمع!
كبد حَرّي، ودمع يكِفُ
يذرف الدمع ولا ينذرف
أيها المعرض عما أصف!
قد نما حبي بقلبي وزكا لا تقل في الحبِّ إني مُدَّعي

٤٣ ـ الشريف الرَّضيّ

٩٧٠ ـ ١٠١٣ م

٣٥٩ ـ ٤٠٤ هـ

نشأته وحياته:

وُلِدَ أبو الحسن محمد بن الحسين المُوسوي ببغداد، ونشأ في حجر والده، ودرَس

---

٤٣ ـ انظر ترجمته في الرجال: ص ٣١٠ ـ ٣١١ وتاريخ بغداد: ٢/٢٤٦ ـ ٢٤٧، والمحمدون: =

العلم في طفولته؛ فبرَع في الفقه والفرائض؛ وفاق في العلم والأدب، وقال الشعر وعمره لا يزيد على عشر سنين. فلما بلغ التاسعة والعشرين من عمره خلف أباه في نقابة الطالبيين سنة ٣٨٨، ثم إليه مع النقابة سائر الأعمال التي كان يليها أبوه، وهي النظر في المظالم والحج بالناس.

وبقي في هذه الأعمال حيناً من الدهر حتى تغير عليه الخليفة القادر لاتهامه عنده بالميل إلى العلويين الفاطميين بمصر فصرفه عنها، فعاش عيش القانع الشريف حتى قبضه اللّه إليه في المحرم من سنة ٤٠٤ ودفن بداره في الكوخ.

صفته وأخلاقه:

كان الشريف أبِيّ النفس عالي الهمة، سمَت به عزيمته إلى معالي الأمور فلم يجد من الأيام معيناً عليها وكان عفيفاً لم يقبل من أحد صلة ولا جائزة؛ حتى بلغ من تشدده في العفة أن رد ما كان جارياً على أبيه من صلات الملوك والأمراء، وآجتهد بنو بويه أن يحملوه على قبولِ صلاتهم فما آستطاعوا.

شعره:

نهج الرَّضيّ في شعره منهج الأقدمين من الشعراء في جزالة اللفظ وفخامة المعنى. وشعره أشبه بشعر البحتري إلا أنه غلب في الفخر والحماسة، وتنزه عن عبث الوليد ومجونه. قال الثعالبي: «وهو أشعر الطالبين من مضى منهم ومن غَبر على كثرة شعوائهم المفلقين. ولو قلت إنه أشعر قريش لم أبعد عن الصدق» ثم قال بعد ذلك: «ولست أدري في شعراء العصر أحسن تصرفاً في المراثي منه». وكان على مكانته في الشعر راسخ القدم في الكتابة، بعيد الشأو في الترسل. ولو كان حقاً ما يقال من أن له يداً في نهج البلاغة لما تردد منصف في الحكم بأنه أكتب الكتّاب في العربية؛ لأن نهج البلاغة هو في المحل الثاني من كتاب اللّه وحديث رسوله بلاغة وبينا.

مؤلفاته:

ألف هذا الشاعر في معاني القرآن كتاباً يدل على تضلعه في النحو واللغة وأصول الدين، وكتاباً آخر في مجازات القرآن. وله مجموعة رسائل وديوان شعر؛ ثم كتاب نهج البلاغة وهو ما جمعه من كلام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب. ومن الناس من يميل إلى

= ص ٢٤٣ ـ ٢٤٤ وإنباه الرواة: ٣/١١٤ ـ ١١٥ ووفيات الأعيان: ٢/٢ ـ ٥، والوافي بالوفيات: ٢/٣٧٤ ـ ٣٧٩، الأعلام، للزركلي ٦/٣٢٩، ومعجم المؤلفين: ١١/٢٦١ ـ ٢٦٢، ومراجع تراجم الأدباء العرب: ٣/١٩٠ ـ ١٩٥.

أن أكثر هذا الكتاب من صنع الشريف؛ لما فيه من التعرض للصحابة بالأذى والهُجر؛ ولأن ما فيه من فلسفة الأخلاق، وقواعد الاجتماع، ودقة الوصف، وتكلف الصنعة، ليس في إمكان ذلك العصر ولا في طبعه. والظاهر أن الشريف جمع كل ما نسب إلى الإمام وفيه الصحيح والمَشوب.

نموذج من شعره:

قال من قصيدة له في مدح القادر باللّه واستعطافه وقد ترسم فيها خُطى البحتري في مدح المتوكل:

لله يوم اطلعتك به العلا ... عَلَماً يُزاوَل بالعيون ويُرشَقُ
لما سمت بك عزة مومقة ... كالشمس تبْهرَ بالضياء وتومق
وبرزت في بُرد النبي وللهدى ... نورٌ على أسرار وجهك مشرق
وكأن دارك جنةٌ حصباؤها الجا ... دِيُّ أو أنماطها الاستبرق
في موقف تغضي العيون جلالةً ... فيه ويعثر بالكلام المنطق
وكأنما فوق السرير وقد سما ... أسدٌ على نشزَات غاب مطرق
والناس إما راجع متهيب ... مما رأى، أو طالع متشوق
مالوا إليك محبة فتجمعوا ... ورأوا عليك مهابة فتفرقوا
وطعنت في غِرر الكلام بفيصل ... لا يستقل به السنن الأزرق
وغرست في حَب القلوب مودة ... تزكو على مرِّ الزمان وتورق
وأنا القريب إليك فيه ودونه ... ليدَي عدوك طود عز أعنَق
عطفاً أمير المؤمنين فإننا ... في دوحة العلياء لا نتفرق
ما بيننا يوم الفخار تفاوت ... أبداً، كِلانا في المعالي مُعْرق
إلا الخلافة ميزتك فإنني. ... أنا عاطل منها وأنك مطوّق

٤٤ ـ الطغرائي
١٠٦٣ ـ ١١٢٠ م
٤٥٥ ـ ٥١٣ هـ

نشأته وحياته:

هو العميد أبو إسماعيل الحسين بن علي المعروف بالطغرائي نسبة إلى مهنته أول

---

٤٤ ـ انظر ترجمته في: النزهة: ٢/٧٣، وفوات الوفيات: ١/١٥٩، وكشف الظنون: ٦٨، والفهرس التمهيدي: ص ٥١٤، ٥١٥، والأعلام للزركلي: ٢/٢٤٦.

حياته. فقد كان يكتب الطغراءَ (الطرة) في أعلى الكتب بخط خاص فيها نعوت السلطان وألقابه. ولد بأصبهان من أسرة فارسية ثم تقلب في ظل آل سلجوق حتى وزر للسلطان مسعود السلجوقي بالموصل، وصار ينعت بالأستاذ ويلقب بالمنشىء. فلما نشبت الحرب بين السلطان مسعود وبين أخيه السلطان محمود بالقرب من همذان وكانت النصرة لثانيهما أخذ الطغرائي أسيراً، ثم أغراه وزيره نظام الدين بقتله، ومالأه عليه بعض حسدته من رؤوس الكتاب فرماه عنده بالإلحاد فقتل ظلماً سنة ٥١٣.

شعره:

شعر الطغرائي عامر الأبيات، متين القافية، مختار اللفظ، يغلب فيه الفخر والحكمة. ونثره من طبقة شعره في إحكام الصنعة ورصانة الأسلوب. وله ديوان شعر كبير أكثره في مدح السلطان سعيد بن ملك شاه ونظام الملك. وخير ما فيه قصيدته اللامية المشهورة بلامية العجم، وهي من عيون الشعر ومختاره. قالها ببغداد يندب الزمان ويشكو الإخوان أثناء عطلة له من العمل. وقد أفردها العلماء بالشروح ما بين كبير وصغير. قال في مطلعها:

أصالة الرأي صانتني عن الخطل ... وحلية الفضل زانتني لدى العطل
مجدي أخيراً ومجدي أولا شرَعٌ ... والشمس رأد الضحى كالشمس في الطّفل

ومنها:

حب السلامة يثنى همَّ صاحبه ... عن المعالي ويغري المرءَ بالكسل
فإن جنحت إليه فآتخِذْ نفقاً ... في الأرض أو سُلّما في الجوِّ فآعتزِل
ودَعْ غِمار العُلا للمُقْدمين هلى ... ركوبها وآقتنع منهن بالبلل
رضا الذليل بخفض العيش مسكنه ... والعِزُّ تحت رسيم الأيْنُقِ الذلل

وقال وقد رُزق مولوداً على كِبَر:

هذا الصغير الذي وافى على كِبَرٍ ... أقَرَّ عيني ولكن زاد في فِكري
سبع وخمسون ولو مرَّت على حجر ... لبَان تأثيرها في صفحة الحجر

ومن قوله في الفخر:

أبى اللّه أن أسمو بغير فضائلي ... إذا ما سما بالمال كلُّ مسوَّد
وإن كَرُمت قبلي أوائل أسرتي ... فإني بحمد اللّه مبدأ سؤددي
وما المال إلا عارة مستردّة ... فهلا بفضلي كاثروني ومحتدي
إذا لم يكن لي في الولاية بسطة ... يطول بها باعي وتسطو بها يدي
ولا كان لي حكمٌ مُطاع أجيزه ... فأرغم أعدائي وأكبت حُسَّدي
فأعذرُ أن فصَّرت في حق مجْتَد ... وآمن أن يعتادني كَيَدّ معتدي
أأكفى ولا أكفي؟ وتلك غضاضة ... أرى دونها وقع الحسام المهند

من الحـزم ألا يضجر المـرء بـالـذي يـعـانيـه مـن مـكـروهـةٍ فـكـأنْ قـد
إذا جلدي في الأمـر حـان ولـم يُعـن مـريـرة عـزمـي نـاب عـنـه تـجـلدي
ومـن يـسـتـعِـن بـالـصـبـر نـال مـراده ولـو بـعـد حـيـن إنـه خـيـر مـسـعـد

الشعر والشعراء في الشام

كانت دمشق في عهد الأمويين حاضرة الخلافة، وقاعدة الملك، ومقر الجند، ومعقل الإسلام، ومناط الأمل. فشغلها أدب السيف عن أدب القلم، وألهاها عن حمل الكتاب حملُ العَلَم وخَلَجَتها خوالج الرياسة والسياسة عن رواية الأدب وقرض الشعر، فتخلت عنهما للعراق والحجاز، فزخرت مدنهما بالشعراء، وغصت مجالسهما بالأدباء. وقد علمتَ كيف كان أثر معاوية وأخلاقه في إذكاء هذه النهضة.

فلما أدال اللّٰه العباسيين من الأمويين والفرسَ من العرب، وبغداد من دمشق، فترت حركة الأدب في الشام، فما كان يصدر عنها ولا يرد إليها، حتى تملك بنو حمدان في القرن الرابع على حلب، وهم كما قال الثعالبي: «ملوك وأمراء ألسنتهم للفصاحة، وأيديهم للسماحة، وسيف الدولة مشهور بسيادتهم، وواسطة قلادتهم»وهو أديب بارع وشاعر مطبوع وملك مُمدَّح؛ فوطّأ كنفه للأدباء والشعراء والعلماء، حتى (ليقال إنه لم يجتمع بباب أحد من الملوك بعد الخلفاء ما آجتمع ببابه من شيوخ الشعر ونجوم الدهر، وإنما السلطان سوق يجلب إليها ما ينفق لديها).

والطريقة الغالبة على أهل الشام في الشعر هي طريقة البحتري في إيثار اللفظ الجزل، والأسلوب الفصيح السهل، دون تعمق في المعنى، ولا إفراط في الإيجاز. وقد سمع الثعالبي عن الصاحب بن عباد أنه كان يُعجب بها، وينهل من أدبها. وَرَوى هو أيضاً عن الخوارزمي أنه قال: «ما فتق قلبي، وشحذ فهمي، وصقل ذهني وأرهف حد لساني، وبلغ بي هذا المبلغ إلا تلك الطرائف الشامية، واللطائف الحلبية، التي علقت بحفظي، وآمتزجت بأجزاء نفسي، وغصن الشباب رطيب».

وكفى الشام فخراً أن أعادت إلى العرب في العرب في أبي تمام والبحتري والمتنبي وأبي فراس وأبي العلاء سبق الشعر بعد أن غلبهم عليه متعربو الفرس وأبناء الموالي في صدر هذا العصر.

وسنقتصر على الترجمة بهؤلاء النابهين منهم، فإن الإحاطة بهم، والكشف عن مناحي أدبهم، لا يتسع لهما صدر هذا المختصر.

٤٥ ــ أبو تمام
٨٠٤ ـ ٨٤٦ م
١٨٨ ـ ٢٣١ هـ

نشأته وحياته:

ولد حبيب بن أوس الطائي بقرية يقال لها جاسم من أعمال دمشق. ثم انتقل أبوه إلى دمشق يحترف الحياكة وهو معه في خدمته. فلما ترعرع غادرها إلى مصر فكان يسقي الماء بجامع عمرو ويستقي من أدب علمائه ولم يزل يحفظ الأشعار ويحاكي الشعراء فيصادفه التوفيق مرة ويخطئه أخرى؛ حتى بلغ من الشعر مبلغاً لم يزاحمه فيه أحد من أهل عصره. وقد سار به شعره إلى أسواق الأدب في أنحاء البلاد، فغادر مصر يغشى منازل الكرماء ويتفيأ ظل النعمة. فأقبل عليه عشاق الأدب والمدح إقبالاً لم يُبق لغيره مجالاً، حتى لم يستطع أحد من الشعراء أن يكسب درهماً بالشعر في حياته. ثم آتصل بأحمد بن المعتصم ومدحه فأجازه بولاية بريد الموصل فوليه عامين ثم مضى لسبيله قبل أن يتم الأربعين.

صفاته وأخلاقه:

كان أبو تمام أسمر اللون طويل القامة فصيحاً حلو الكلام فيه تمْتَمة يسيرة. وكان ذكي الطَبع حاضر البديهة قوي الذاكرة قيل: إنه كان يحفظ أربعة عشر ألف أرجوزة غير القصائد والمقطوعات. وكتابا الحماسة وفحول الشعراء ناطقان بذلك. ويدل على فطنته وسرعة خاطره أنه لما أنشد أحمد بن المعتصم قصيدته السينية التي يقول في مطلعها:

ما في وقوفك ساعة من باس تقضي ذمام الأربعُ الأدراس

ووصل إلى قوله فيها:

إقدام عمرو في سماحة حاتم في حلم أحنف في ذكاء إياس

قال أبو يوسف الكندي الفيلسوف وكان حاضراً: الأمير فوق من وصفت. وما زدت على أن شبهته بأجلاف العرب. فأطرق أبو تمام قليلاً ثم قال على البديهة:

لا تنكروا ضربي له مَن دونه مثلاً شروراً في الندى والبأس

---

٤٥ ـ انظر ترجمته في: طبقات الشعراء: طبعة أولى ص ١٣٣ ـ ١٣٥ وطبعة ثانية ص ٢٨٣ ـ ٢٨٧ ومروج الذهب: ١٥١/٧ ـ ١٦٦ ونزهة الألباء: ص ٢١٣ ـ ٢١٦ والموشح: ص ٣٠٣ ـ ٣٢٩ والرجال: ص ١٠٨ ـ ١٠٩ وسمط اللآلىء: ص ٤٢٥ ـ ٤٢٦، وتهذيب ابن عساكر: ١٨/٤ ـ ٢٦، ومعجم المؤلفين: ١٨٣/٣ ـ ١٨٤.

فـالله قـد ضـرَب الأقـلَّ لـنـوره مـثـلاً مـن الـمـشـكـاة والـنِّـبـراس

ولمـا أخذت منـه القصيدة لم يجـدوا فيها هـذين البيتين فعجبـوا. وقـال الفيلسـوف للخليفة: منهما يطلب فأعطه، فإن فكـره يأكـل جسمه كمـا يأكـل السيف المهند غمـده، ولا يعيش كثيراً: فولاه بريد الموصل.

شعره:

أبو تمام رأس الطبقة الثانية من المولدين. جمع بين معاني المتقدمين والمتأخـرين، وظهر والحضارة راقيـة، والعلوم مترجمـة، فحصف عقله ولطف خيـاله بـالاطلاع عليهـا. واستنبط من ذلك طريقته التي آثر فيها تجويد المعنى على تسهيل العبارة فكان أول من أكثر من الاستدلال بـالأدِلَّةِ العقلية والكنايات الخفية ولو أفضى ذلك إلى التعقيد. وكأنه لما رأى أن سلاسة اللفظ فاتته أراد أن يجبر ذلك الكسر فتوخى الجناس والمطابقة والاستعارة، فسلم له بعض واعتل عليه بعض، فصار كالكَلف في صفحة البدر. ومع هذا قد سلم له من كلامه جملة لم يحم حولها السابقون وقصر عنها اللاحقون: معان مبتكرة، وألفاظ متخيرة، ضمنها من الأمثال والحكَم ما زاد في ثروة الأدب العربي، ومهد لمن خَلفه الطريق فسلكها المتنبي وأبو العلاء إلى حكمهم وأمثالهم. ولغلبة الحكمة عليه قيل: «أبو تمـام والمتنبي حكيمان، والشاعر البحتري»، وقد كثر اختلاف النـاس فيه؛ فمنهم من تعصب لـه وأفرط حتى فضله على كـل سلف وخلف. ومنهم من عمد إلى جيـده فطواه، وإلى رديئـه فرواه ولكن لسـان المـدح كان أغلب، فقـد فضله من الرؤسـاء والعظمـاء ما لا قِبَـل للطاعنين عليه بهم. قال محمد بن عبد الملك الزيات وقد مدحه بقصيدة شاعرة: يا أبا تمام إنك لَتُحَلي شعـرك من جواهر لفظك وبديع معانيك ما يزيد حسنا على بهيِّ الجواهر في أجياد الكواعب. وما يُدخر لك شيء من جزيل المكافأة إلا ويقصر عن شعرك في الموازنة».

وقد جمع شعره في ديوان طبع مراراً. وله غيره كتابا الحماسة وفحول الشعراء جمـع فيهما عيون الشعر وغرره في الجاهليةَ والإسلام. وقد أحسن في الاختيار جد الإحسان حتى قيل إنه في اختياره أبلغ منه في شعره.

نموذج من شعره:

من أبدع قصائده قوله:

غـدت تستجيـر الـدمـر خـوف نـوى غـد وعـاد قـتـاداً عـنـدهـا كـلُّ مـرقـد
وأنـقـذهـا مـن غـمـرة الـمـوت أنـه صـدود فـراق لا صـدود تـعـمـد
فـأجـرى لـهـا الإشفـاق دمـعـاً ووَرَّداً مـن الـدم يـجـري فـوق خـد مـورد

ويقول فيها في الحث على الاغتراب، ولو تأملت وجدته يتوخى الطباق في كل بيت:

ولكنني لم أحْوِ وفْراً مجمَّعاً ... ففزت به إلا بشَمل مبدَّد
ولم تعطني الأيام نوماً مسكناً ... ألذ به إلا بنوم مشرد
وطول مقام المرء في الحي مُخْلقٌ ... لديباجتيه فاغترب تتجدد
فإني رأيت الشمس زيدت محبةً ... على الناس أن ليست عليهم بسَرمَد

ومن قوله:

نقّل فؤادك حيث شئت من الهوى ... ما الحب إلا للحبيب الأوَّل
كم منزل في الأرض يألفه الفتى ... وحنينه أبداً لأول منزل

وقال في رثاء محمد بن حميد الطوسي:

كذا فليجلّ الخطب وليْفْدَح الأمر ... فليس لعين لم يَفِض ماؤها عذرُ
تُوفيت الآمالُ بعد محمد ... وأصبح في شغل عن السفَر السَّفْر
ألا في سبيل الله مَنْ عطّلت له ... فِجَاجُ سبيل الله وانثغر والثغر
فتى كلما فاضت عيون قبيلة ... دماً ضحكت عنه الأحاديث والذكر
فتى دهره شطران فيما يَنوبه ... ففي بأسه شطر وفي وجوده شطر
فتى مات بين الطعن والضرب موتةً ... تقوم مقام النصر إذ فاته النصر
وما مات حتى مات مضربُ سيفه ... من الضرب واعتلت علينا القَنا السُمر
تردىَّ ثيابَ الموت حُمْراً فما دجا ... لها الليلُ إلا وهي من سُندس خضْرُ

وقال في المدح:

حُوّلٌ، لا فعاله مرْتَعُ الذَّم (م) ولا عرضه مَرَاحُ العيوب
سرُحٌ قوله إذا ما استمرت ... عقدةُ العِيّ في لسان الخطيب
لا مُعَنى بكل شيء ولا كلٌ (م) عجيب في عينه بعجيب
ليس يَعْرَى عن حُلةٍ من طراز الـ ... ـمدح من راجز بها مُستثيب
وإذا كفُّ راغبٍ سلبتْه ... راح طَلْقا كالكوكب المشبوب
ما مَهاةُ الحِجَال مسلوبة أظ ... رفُ حسنا من ماجد مسلوب
واجدٌ بالخليل من بُرَحاء الشـ ... ـوق وجْدانَ غبره بالحبيب
كلُّ شعب كنتم به آل وهب ... فهو شعبي وشعب كل أديب
إن قلبي لكم لكا لكبد الحرّ ... ي وقلبي لغيركم كالقلوب

وقال أيضًا:

إذا حركته هِزَّة المجد غيرت ... عطاياه أسماء الأماني الكواذب
يرى أقبحِ الأشياء أوبة آمل ... كسته يدُ المأمول حلة خائب

وأحسنَ من نَـورٍ تفـتحـه الـصَّبـا   بيـاض العطايـا في سواد المـطالب

٤٦ ــ البحتري
٨٢١ ـ ٨٩٧ م
٢٠٦ ـ ٢٨٤ هـ

نشأته وحياته:

أبو عبادة الوليد بنُ عبيد الله الطائي عربي صميم ولد بمنبج (بين حلب والفرات) سنة ٢٠٦ ونشأ في البادية بين قبائل طيئٍ وغيرها فغلبت عليه فصاحة العرب. ثم خرج إلى بغداد فلقي أبا تمام ولزمه حتى تخرج عليه واقتبس طريقته في البديع. وروى عن كثير من العلماء كأبي العباس المبـرد وظل صنيعـة لأبي تمام يـردد صداه، ويتـرسم خطاه، وحبيب يـرشده ويعضده لأنه طائي مثله، حتى قال له يومـاً. «أنت والله يا بني أميـر الشعراء غـداً بعدي»، فصدق الله نبوءته. وأصبح البحتري بعد وفاة أبي تمام سائر الشعر طائر الذكر إمامًا في الأدب والقريض. وأقام في العراق في خدمة المتوكـل والفتح بن خـاقان وزيـره إلى أن قتلا على مشهد منه، فرجع بعدئذ إلى منبج. وكان يختلف أحيـانًا إلى سـراة بغداد «وسُـرَّ من رأى» فيمدحهم حتى مات سنة ٢٨٤.

صفاته وأخلاقه:

كان البحتري على أدبـه وفضله ورقته من أوسـخ خلق الله ثـوبـاً وأبخلهم على نفسه وغيره. وكان من أبغض الناس إنشاداً: يتشادق ويتزاور في مشيته جانبًا أو القهقرى، ويهـز رأسه مرة ومنكبيه أخرى، ويشير بكمه عنـد كل بيت ويقـول: أحسنت والله! ثم يقبل على المستمعين قائلاً: ما لكم لا تقولون أحسنت؟ وهذا والله مـا لا يحسن أحد أن يقـول مثله. ولكنه كان منصفًا يعترف بالفضل لأهله ولا يدعي ما ليس له. قال له بعض الناس وقـد سمع شعره: أنت أشعر من أبي تمام. فقال: ما ينفعني هذا القول ولا يضر أبا تمام. والله ما أكلت الخبز إلا به، ولوددت أن الأمر كما قالوا، ولكني والله تابعٌ له، آخـذٌ منه لائـذٌ به، نسيمي يركد عند هوائه، وأرضي تنخفض عند سمائه!

---

٤٦ ـ انظر ترجمته في: طبقات الشعراء: طبعة أولى ص ١٨٦ ـ ١٨٧، وطبعة ثانية ص ٣٩٤ ـ ٣٩٥، أخبار أبي تمـام: ص ٦٦ ـ ٦٧، ١٠٥ ـ ١٠٦ وأخبـار الشعـراء: ص ٨١، والمـوشـح: ص ٣٣٠ ـ ٣٤٣، وسمط الـلآلىء: ص ٢٧٩، ٤٢٧، وأمـالي المـرتضى: ١/٥٩٣ ـ ٥٩٥، ومعـاهـد التنصيص: ١/٢٣٤ ـ ٢٤٦.

شعره:

تَرَسَّمَ البحتري خطو أبي تمام في الشعر ومضى على أثره في البديع، إلا أنه أجاد في سبك اللفظ على المعنى «وأراد أن يشعر فغَنى» كما قال فيه ابن الأثير واستمد معانيه من وحي الخيال وجمال الطبيعة لا من قضايا العلم والمنطق، فأعاد للشعر ما ذهب من بهجته وروعته، وإلى ذلك أشار المتنبي بقوله: «أنا وأبو تمام حكيمان، والشاعر البحتري»، ثم صارت له طريقة خاصة في الجزالة والعذوبة والفصاحة امتاز بها من أستاذه ومدربه، نهجها معاصروه ومن جاء بعدهم من الشعراء وعرفت بطريقة أهل الشام. وقد تصرف أبو عبادة في فنون الشعر إلا في الهجاء، فإن بضاعته فيه نزرة وجيده منه قليل. ويقال إنه أحرق هذا النوع قبل موته وهو الأرجح ولم يسلم شعره من الساقط الغث لكثرته، وإنما يمتاز بالإجادة في المدح والقصد فيه، والقدرة على تصوير أخلاق الممدوح، والإبداع في وصف القصور الفخمة والأبنية العجيبة، كوصف إيوان كسرى وبركة المتوكل، وقصر المعتز بالله. وقصائده تكاد لا تخلو من افتتاح بالغزل. وقد جمع شعره أبو بكر الصولي ورتبه على الحروف. وله غيره كتاب معاني الشعر وحماسة البحتري. وهي كحماسة أبي تمام، إلا أنها تمتاز بكثرة أبوابها وخلوها مما تنبو الأسماع عنه؛ وطبعت في بيروت.

نموذج من شعره:

من قوله في وصف بركة المتوكل:

تَنْصَبُّ فيها وفودُ الماء مُعجَلة ... كالخيل خارجة من حبل مُجريها
كأنما الفضة البيضاء سائلة ... من السبائك تجري في مجاريها
إذا عَلتها الصّبا أبدت لها حُبكا ... مثلَ الجواشن مصقولا حواشيها
فحاجب الشمس أحياناً يضاحكها ... وريِّق الغيث أحياناً يباكيها
إذ النجوم تراءت في جوانبها ... ليلاً حسبت سماء رُكّبت فيها

وقال يمدح الخليفة المتوكل ويهنئه بعيد الفطر:

بالبِرّ صمت وأنت أفضل صائم ... وبسنة الله الرضيّة تفطر
فانعمْ بيوم الفطر عينا إنه ... يوم أغر من الزمان مُشَهَّر
أظهرت عزّ الملك فيه بجحفل ... لجِبٍ يَحَاطُ الدين فيه ويُنصر
فالخيل تصهل والفوارس تدَّعي ... والبيض تلمع والأسنة تزهر
والأرض خاشعة تميد بثقلها ... والجو معتكِرُ الجوانب أغبر
والشمس طالعة توقّدُ في الضحى ... طوراً ويطفئها العَجاج الأكدر
حتى طلعت بنور وجهك فانجلى ... ذاك الدجى وانجاب ذاك العِثْيرُ
فافتنّ فيك الناظرون فإصبعٌ ... يومَى إليك بها وعين تنظر

كـروا بـطلعـتـك الـنـبـيِّ فـهـللوا ... لـمـا طلعت من الصفوف وكبروا
حتى انتهيت إلى المُصّلى لابسا ... نور الهدى يبدو عليك ويظهر
ومشيت مشية خاشع متواضع ... لله لا يُزْهي ولا يتكبر
فلو أن مشتاقا تكلف فوق ما ... في وُسعه لسعى إليك المنبر
أبديت من فصل الخطاب بحكمة ... تنبي عن الحق المبين وتخبر
ووقفت في بُرْدِ النبي مذكراً ... بالله تنذر تارة وتبشر

ومن قوله في الطيف:

إذا ما الكَرى أهدى إليَّ خياله ... شفى قربهُ التبريح أو نقعَ الصدَى
إذا انتزعته من يدَيَّ انتباهة ... حسبت حبيبا راح منىً أو غد
ولم أر مثلَيْنَا ولا مثل شأننا ... نُعَذِّبُ أيقاظا وننعم هُجّدا

٤٧ ـ المتنبي
٩١٥ ـ ٩٦٥ م
٣٠٣ ـ ٣٥٤ هـ

نشأته وحياته:

أبو الطيب أحمد بن الحسين المتنبي ولد بالكوفة من أبوين فقيرين. كان أبوه سقاه بالكوفة، ثم سافر به صغير إلى الشام متنقلاً من الباديه إلى الحاضرة يسلمه إلى المكاتب، ويردده في القبائل، ومخايله نواطق بفضله، ضوامن لنُجحه، حتى توفي أبوه وقد ترعرع الشاعر ونال حظه من علوم اللغة والأدب فأخذ يضرب في الأرض ابتغاء للرزق واكتساباً للمجد.

وكان المتنبي منذ نشأته كبير النفس عالي الهمة طموحاًإلى المجد: بلغ من كبر نفسه أن دعا إلى بيعته بالخلافة وهو لَدْن العود حديث السن. وحين كاد يتم له الأمر تأدى خبره إلى والي البلدة فأمر بحبسه. فكتب إليه من السجن قصيدة منها:

أمـالِـكَ رقـي وَمـن شـأنـه ... هبـاتُ اللُّجَين وعتق العبيد
دعوتك عند انقطاع الرجا ... ء والموت مني كحبل الوريد

---

٤٧ ـ انظر ترجمته في: يتيمة الدهر: ١/١٢٦ ـ ٢٤٠ والفهرست، لابن النديم ص ١٦٩ وتاريخ بغداد: ٤/١٠٢ ـ ١٠٥ ونزهة الألباء: ص ٣٦٦ ـ ٣٧٤، ووفيات الأعيان: ١/٤٤ ـ ٤٦، ودائرة المعارف الإسلامية، ٣/٨٤٤ ـ ٨٤٧.

دعــوتــك لـمــا بــراني الـبلى وأوهن رجليَّ ثـقـلُ الحــديــد
تــعَـجَّـل فـيَّ وجوبَ الحـدود وحــدِّي قبـل وجــوب السجـود

فأطلقه. ولكن حب الرياسة لم يزل متمكنًا من قلبه إلى أن أخلق بُرد شبابه وتضاعفت عقود عمره. وفي سنة ٣٢٣ ادَّعَى النبوة في الشام وفتن شرذمة من الناس بقوة أدبه وسحر بيانه. ولما سئل عن النبي ﷺ قال: إنه بشَّر بمجيئي وأخبر بنبوتي فقال: لا نبيٌّ بعدي، وأنا اسمي في السماء (لا). وضف كلاما عارض به القرآن. فلما اشتهر أمره قبض عليه لؤلؤ أمير حمص نائب الأخشيدية، فأوثقه ثم أطلقه بعد أن استتابه وتفرق عنه أصحابه. فطفق يتجشم أسفاراً أبعد من آماله، ولا زاد إلا صبره، ولا عدة إلا بأسه، كما يتجلى ذلك في مثل قوله:

وحـيــد مـن الــخــلان فـي كــل بــلدة إذا عــظم الـمــطلوب قــل المــســاعــد

وقوله:

ضــاق صــدري وطــال فـي طلب الــرز ق قــيــامــي وقــل عــنــه قــعــودي
أبــداً أقــطع الــبــلاد ونــجــمــي فــي نــحــوس وهــمــتــي فـي ســعــود

ولم يزل هكذا حتى اتصل بأبي العشائر والي أنطاكية من قِبلَ سيف الدولة وامتدحه، فأكرم مثواه وقدمه إلى سيف الدولة وعرفه بمنزلته من الشعر والأدب فضمه الأمير إليه وحسن موقعه عنده، فسلمه إلى الرواض فعلموه الفروسية والطراد حتى لا يفارقه في الحرب ولا في السلم. وأفعم وطابه ودرَّت له أخلافُ الدنيا على يده، حتى كان من قوله فيه:

تــركت السُّرى خلفي لمن قــل مــالــه وأنـعلت أفــراسـي بنـعمــاك عــسجــذا
وقـيــدت نـفـسـي فـي هــواك مـحـبــة ومـن وجـد الإحـســان قـيـداً تـقـيــدا

ولم يزل معه في حال حسنة حتى حدثت بينهما جفوة ففارقه إلى مصر في سنة ٣٤٦. ومدح كافوراً الإخشيدي وأبا شجاع. وأقام في مصر ردحاً من الزمن يرقب الفرصة من كافور فيصعد المجد على كاهله. فما هو إلا أن قال:

أبـا المسك، هـل في الكأس فضـلُ أنالـه فــإنـي أغـنـي مـنــذ حـيـن وتــشــرب

وقال:

وهــل نـافعي أن تــرفــع الحجب بيننــا ودون الــذي أمَّــلت مــنــك حــجــاب
وفي النـفس حـاجـات وفيـك فـطانــة ســكــوتـي بــيــان عـنـدهــا وخــطاب

حتى أوجس كافور منه خيفة، لتعاليه في شعره وطموحه إلى الملك، فزوى عنه وجهه، فهجاه وقصد بغداد. ولم يمدح الوزير المهلبي لأنه كان يترفع عن مدح غير الملوك، فشق ذلك على الوزير فأشْلى عليه شعراء بغداد فنالوا من عرضه ومن شعره. ولكنه لم يجبهم، وذهب قاصداً أرّجان لزيارة الفضل بن العميد فكتب إليه الوزير الصاحب بن عباد

يستزيره بأصبهان طماماً أن يمدحه فلم يقم له وزنًا وأمّ عضد الدولة بشيراز. فأوغر عليه قلب الصاحب وأخذ يتتبع هفواته، وهو أعلم الناس بحسناته ـ وشن عليه هو وأشياعه حربًا قلمية، وألفوا الكتب في نقده ورموه بالسرقة والخروج عن الأساليب العربية، وهو لا يأبه لهم ذهابًا بنفسه وإعجاباً بشعره.

* * *

ولما حصل عند عضد الدولة أسبغ عليه نعمته ووصله بثلاثة آلاف دينار وخيول وثياب؛ ثم دس عليه من يسأله: أين هذا العطاء من عطاء سيف الدولة؟ فقال له: هذا أجزل إلا أنه متكلف، وسيف الدولة كان يعطي طبعاً فغضب عضد الدولة من ذلك. ويقال إنه جهز عليه فاتكاً الأسدي في قوم من بنى ضبة، فعرض له بالصافية من سواد واقتتلا. فلما رأى الدائرة عليه هم بالفرار. فقال له غلامه: يتحدث الناس عنك بالفرار وأنت القائل:

الخيل والليل والبيداء تعرفني والسيف والرمح والقرطاس والقلم

فقاتل حتى قتل هو وولده وغلامه في أواخر رمضان من سنة ٣٥٤ هـ.

شعره:

المتنبي شاعر من شعراء المعاني، وفق بين الشعر والفلسفة؛ وجعل أكثر عنايته بالمعنى؛ وأطلق الشعر من القيود التي قيده بها أبو تمام وشيعته، وخرج به عن أساليب العرب التقليدية. فهو إمام الطريقة الابتداعية في الشعر العربي. ولقد حظي في شعره بالحكم والأمثال، واختص بالإبداع في وصف القتال، والتشبيب بالأعرابيات، وإجادة التشبيه، وإرسال المثلين في بيت واحد، وحسن التخلص، وصحة التقسيم، وإيداع المديح، وإيجاع الهجاء، وأخص ما يميز المتنبي بروز شخصيته في شعره، وصدق إيمانه برأيه، وقوة اعتداده بنفسه، وصحة تعبيره عن طبائع النفس ومشاغل الناس وأهواء القلوب وحقائق الوجود وأغراض الحياة لذلك كان شعره في كل عصر مدداً لكل كاتب، ومثلا لكل خاطب.

عيوب شعره:

بيت المتنبي يضيق أحياناً بمعناه فيعسر فهمه وتبعد غايته منه فيطيش سهمه وقد بلغ من إهماله اللفظ أن وقع بعض المساوىء، كاستكراه اللفظ، وتعقيد المعنى، واستعمال الغريب، وقبح الطالع، ومخلفة القياس، وكثرة التفاوت في شعره، والخروج في المبالغة إلى الإحالة، كقوله:

ولا الضعف حتى يبلغ الضعف ضعفه ولا ضعف ضعف الضعف بل مثله ألف

وقوله:

أنى يكون أبا البرايا آدم ... وأبوك والثقلان أنت محمد

وقوله:

لو لم تكن من ذا الورى الّذِمِنكَ هو ... عقمت بمولد نسلها حواء

والاستشهاد على كل ذلك يخرج بنا إلى التطويل فارجع إلى يتيمة الدهر للثعالبي.

نموذج من شعره:

قال يشكو الزمان:

لم يترك الدهر من قلبي ولا كبدي ... شيئًا تتيمه عَيْنٌ ولا جيد

يا ساقِيَيَّ أخمرٌ في كؤوسكما ... أم في كؤوسكما هَمٌّ وتسهيد؟

أصخرة أنا؟ مالي لا تغيرني ... هذي المدام ولا تلك الأناشيد؟

إذا أردت كمَيْتَ الخمر صافية ... وجدتها وحبيب النفس مفقود

ماذا لقيت من الدنيا؟ وأعجبُها ... أني بما أنا باكٍ منه محسود

وقال بتفلسف:

ننحن بنو الموت فما بالنا ... نعاف ما لا بد من شربه

تبخل أيدينا بأرواحنا ... على زمان هن من كسبه

فهذه الأرواح من جوِّهِ ... وهذه الأجسام من تربه

لو فكر العاشق في منتهى ... حسن الذي يَسبيه لم يَسبِه

لم يُرَ قرنُ الشمس في شرقه ... فشكت الأنفسُ في غربه

يموت راعي الضأن في جهله ... موتة جالينوس في طبه

وربما زاد على عمره ... وزاد في الأمن على سِربه

وغاية المفرط في سلمه ... كغاية المفرط في حربه

وقال:

نصيبك في حياتك من حبيب ... نصيبك في منامك من خيال

رماني الدهرُ بالأرزاء حتى ... فؤادي في غشاء من نبال

فصرت إذا أصابتني سهام ... تكسرت النصال على النصال

وهان فما أبالي بالرزايا ... لأتى ما انتفعت بأن أبالي

وقال:

صحب الناسُ قبلنا ذا الزمانا ... وعناهم من أمره ما عنانا

وتولوا بغصة كلهم منـ ... ـه وإن سرّ بعضهم أحيانا

ربما تحسن الصنيع لياليـ ـه ولكن تكدر الإحسانا
وكأنا لم يَرْضَ فينا بريب الدهـ ـر حتى أعانه من أعانا
كلما أنْبَتَ الزمان قناة ركّب المرء في القناة سنانا
ومُراد النفوس أصغر من أن نتعادى فيه وأن نتفانى
غيرَ أن الفتى يلاقي المنايا كالحات ولا يلاقي الهوانا
ولو الحياة تبقى لحي لعددنا أضلنا الشجعانا
وإذا لم يكن من الموت بُدٌّ فمن العجز أن تموت جبانا

وقال أيضاً:

زودينا من حسن وجهك ما دا م فحسن الوجوه حالٌ تحول
وصلِينا نصلْك في هذه الدذ يا فإن المُقام فيها قليل

٤٨ ـ أبو فراس الحمداني
٩٣٢ ـ ٩٦٨ م
٣٢٠ ـ ٣٥٧ هـ

نشأته وحياته:

هو أبو الحارث بن أبي العلاء ابن عم سيف الدولة. ولد بمنبج ورُبي في حجر النعيم بين أبّهة الملك وعزة السلطان. فنشأ على خلال العظماء شجاعًا أبِيَّ النفس سليم الطبع، كريم الخلق، جامعاً بين أدبي السيف والقلم. وكان سيف الدولة معجبًا بمحاسنه مؤثراً له على سائر قومه، فاصطنعه لنفسه، واصطحبه في غزواته، واستخلفه في أعماله؛ فكان الدرَّة الفريدة في تاج سيف الدولة، يقود جيوشه في الحرب، ويرأس كتابه في السلم. وكان النصر حليفه في كل وقائعه، فمالت إليه القلوب ولهجت بذكره الألسن، وانطلق لسانه برائع الشعر في الفخر والحماسة ووصف الحروب، حتى خانه الفوز فأسره الروم في بعض المواقع وهو جريح قد أصابه سهم بقي نصله في فخذه، فسجنوه بخرشنة، ثم نقلوه إلى القسطنطينية. وتعذرت المفاداة فلبث في الأسر أربع سنين ظهرت فيها أشعاره الروميات ملأى بعواطف الحب والحنين إلى أهله وأحبابه، مُمَثِّلةً ما يكن صدره من لواعج الشوق لأمه العجوز وابنته

---

٤٨ ـ انظر ترجمته في: يتيمة الدهر: ١/٤٨ ـ ١٠٣، وتهذيب ابن عساكر: ٣/٤٣٩ ـ ٤٤٢، وزبدة الحلب: ١/١٥٦ ـ ١٥٧ ووفيات الأعيان: ١/١٥٨ ـ ١٥٩ وسامى الدهان، مقدمة الديوان: ١/١٧ ـ ٢٥، ومعجم المؤلفين: ٣/١٧٥ ـ ١٧٦، ومراجع تراجم الأدباء العرب: ١/٢٢٧ ـ ٢٣٢.

الوحيدة، وعوامل الحب لسيف الدولة. ولم يزل أبو فراس يعالج مرارة الأسر وجرارة الشوق حتى تنوظر في الهدنة والأسرى فأطلقه الروم بعد أن أكرموه وبجلوه.

«ولما خرج قمر البيان من سِراره، وأطلق أسد الحرب من إساره»، لم تمهله المنية أن يسترد ما ذهب من شبابه أيام عذابه. فتوفي سيف الدولة وخلفه ولده أبو المعالي ابن أخت أبي فراس؛ فأراد الأمير الشاعر أن يضم إليه مدينة حمص فأبى عليه أبو المعالي، وجرت بينهما معركة قتل فيها أبو فراس وهو لدْن العود غض الإهاب.

صفاته وأخلاقه:

كان أبو فراس كما قدمنا بطلاً أبيًا سخيًا معجبًا بشعره، وبنفسه، كثير الفخر بأصله وقومه، عزوفًا عن الشراب والمجون، فبرىء شعره من كل ذلك وانطبعت أخلاقه. وهو القائل:

لئن خلق الأنام لجِسْو كأس ومزمار وطُنبور وعود
فلم يُخلق بنو حمدان إلا لمجد أو لبأس أو لجود

شعره:

شعر أبي فراس على مثال الشعر القديم متانة وأسلوبًا، إلا أن عليه رُواء الطبع، وسمة الظرف، وعزة الملك، ولم تجتمع هذه الخلال قبله إلا في شعر عبد الله بن المعتز. وكان الصاحب بن عباد يقول. «بُدِئ الشعر بملك وختم بملك» يعني امرأ القيس وأبا فراس. وقد تصرف هذا الشاعر في أغلب فنون الشعر فأجاد، إلا أن منزلته في الفخر والاستعطاف والعتاب أعلى، ورومياته أجل وأدل على فضله، فإن مثله لا يزكو به أن يمدح أميراً، أو يهجو صغيراً، أو يذيل مصون شعره بين الشراب والمجون، فقد علمنا كيف نشأ وأين درج. وله غزل رقيق تتضاءل فيه عزة الملك أمام سلطان الحب، فيكون أنم جلالاً وأشد روعة. وزعم الثعالبي أن المتنبي كان يشهد له بالتبرير ويتجافى جانبه (فلا ينبري لمباراته، ولا يجتري على مجاراته، إنما لم يمدحه ومدح غيره من آل حمدان تهيبًا له وإجلالاً لا إغفالا) وهو زعم لا يطمئن عليه القلب، ولا يقول به من عرف المتنبي.

نموذج من شعره:

قال وقد سمع حمامة تنوح على شجرة بالقرب من سجنه بالقسطنطينية:

أقول وقد ناحت بقربي حمامة أيا جارتا لو تشعرين بحالي
معاذ الهوى ما ذقت طارقة النوى ولا خطرت منك الهموم ببال
أيا جارتا ما أنصف الدهر بيننا تعالي أقاسمْك الهموم تعالى
تعاليْ تَريْ روحًا لديَّ ضعيفة تردّدُ فيي جسم يعذب بالي

أيحمل محزونَ الفؤاد قوادمٌ ... على غُصُن نائي المسافة عالي!
أيضحك مأسور وتبكي طليقة ... ويسكت محزون ويندب سالي
لقد كنت أولى منك بالدمع مقلة ... ولكن دمعي في الحوادث غالي

ومن قصيدة له إلى سيف الدولة يستعطفه:

بمن يثق الإنسان فيما ينوبه ... ومن أين للحر الكريم صحاب؟
وقد صار هذا الناسُ إلا أقلّهم ... ذئاباً على أجسادهن ثياب
تغابيت عن قوم فظنوا غباوة ... بمفْرق أغبانا حصى وتراب
إلى الله أشكو أننا بمنازل ... نحكّم في آسادهن كلاب
تمر الليالي ليس للنفع موضع ... لديّ ولا للمعتفين جناب
ولا شُد لي سرْج على متن سابح ... ولا ضُربت لي بالْعَراء قِباب
ستذكر أيامي نمير وعامر ... وكعب على علاتها وكلاب
أنا الجار لا زادي بطيء عليهم ... ولا دون مالي في الحوادث باب

ومنها:

وما زلت أرضى بالتقليل محبة ... لديه وما دون الكثير حجابُ
وأطلب إبقاء على الود أرضَه ... وذكرى مني في غيرها وطِلاب
كذاك الودادُ المحض لا يُرتجى له ... ثوابٌ ولا يُخشى عليه عقاب
وقد كنت أخشى الهجر والشمل جامع ... وفي كل يوم لقيةٌ وخطاب
فكيف وفيما بيننا مُلك قيصر ... وللبحر حرلي زخرةٌ وعُباب!
أمن بعد بذل النفس فيما تريده ... أُثاب بمُرّ العتب حين أثاب؟
فليتك تحلو والحياة مريرة ... وليتك ترضى والأنام غضاب!
وليت الذي بيني وبينك عامر ... وبيني وبين العالمين خراب!
إذا صح الود منك فالكل هين ... وكل الذي فوقَ التراب تراب

٤٩ ـ أبو العلاء المعري
٩٧٣ ـ ١٠٥٧ م
٣٦٣ ـ ٤٤٩ هـ

نشأته وحياته:

هو أحمد بن عبد الله بن سليمان التنوخيّ نسبة إلى تنوخ إحدى قبائل اليمن ولد هذا

---

٤٩ ـ انظر ترجمته في: وفيات الأعيان: ١/٣٣، ومعجم الأدباء: ١/١٨١، وفهرست ابن خليفة:

الفيلسوف الحكيم بالمعرة من أبوين شريفين. فقد كان أبوه من أفاضل العلماء وجده قاضيًا بالمعرة. فلما بلغ الرابعة من عمره أصيب بالجدري فذهب بيسرى عينيه وابيضت اليمنى؛ فنشأ ضريراً لا يعرف من الألوان إلا الحمرة لأنهم ألبسوه ثوبًا معصفراً وهو مريض فكان هذا اللون أول ما عرف وآخر ما رأى ولما أدرك سن التعلم أخذ أبوه يلقنه علوم اللسان العربي فتعلمها. وتلمذ بعد ذلك لنفر من علماء بلده فضم إلى صدره ما حوته صدورهم. ولم ير بعد ذلك فيمن حوله من سبقه إلى علم، أو اختص دونه بفهم، فانثنى إلى بيته وقد ناهز العشرين من عمره وأخذ يدرس اللغة والأدب وينقب عن دقائق اللسان وخواص التركيب حتى تفوق في ذلك وبلغ منه ما لم يبلغه أحد. وفي سنة ٣٩٢ هـ غادر المعرة إلى بلاد الشام، فزار مكتبة طرابلس، وعاج على اللاذقية، وكان بها دير للرهبان فنزل به وأقام بين أهله حتى درس العهدين القديم والجديد. وبعد أن طوف في بلاد الشام عزم الرحلة إلى بغداد مبعث العلم ومستقر العلماء ليدرس الحكمة اليونانية والفلسفة الهندية. وما أحس بمقدمه البغداديون حتى تقاطروا لقائه ظماء إلى أدبه. فأقام بينهم يأخذون عنه العلم والآداب ويبحث هو في علوم الفلسفة حتى جرى فيها شوطاً بعيداً. ووجد أبو العلاء في بغداد بيئة صالحة وأرضاً زكية لبحث المسائل وغرس المبادىء. فأخذت آراؤه تظهر وتذيع. واتصلت أسبابه هناك بجماعة من الفلاسفة الأحرار كانوا يجتمعون كل جمعة في دار أبي أحمد عبد السلام بن الحسن البصري أحدهم فأثر خلاطها في عقله وأدبه. وما كادت علائقه تتوثق بالبغداديين حتى فوجىء على بعد المزار بنعي أمه، وكان أبوه قد توفي قبلها، فوَجدَ عليها وجداً شديداً، ونالت منه هذه النازلة. وكان الأمراء والدهماء قد أخذوا يرتابون في عقيدته ويشكون في أمره، فاضطربت حياته، واختلفت أطواره وأعوزه المشفق والنصير. فنظر إلى العالم بمنظار أسود، وقرر في نفسه العزلة والخروج عن الدنيا وعاد إلى المعرة سنة ٤٠٠ فاعتقل عن الناس إلا عن تلاميذه. وسمى نفسه رهن المحبسيْن: العمى والمنزل. وظل عاكفاً على التعليم والتأليف عن ملذات الحياة لا يأكل الحيوان ولا ما ينتج منه، قانعًا من الطعام والحلوى بالعدس والتين ومن المال بثلاثين ديناراً موقوفة عليه في كل عام، راضيًا من اللباس والفراش بغليظ القطن وحصير البردى. وحرم على نفسه الزواج ضنا بنسله على لؤم الناس وبؤس الحياة. ولم تزل تلك حاله حتى استأثر به الله سنة ٤٤٩، وقد أوصى أن يكتب على قبره هذا البيت:

هذا جناه أبي عليَّ (م) وما جنيت على أحد

ص ٣٤٣، ولسان الميزان: ٢٠٣/١، وإنباه اللرواة: ٤٦/١، وتتمة اليتيمة: ص ٩، ودائرة المعارف الإسلامية: ٣٧٩/١، وابن الوردي: ٣٥٧/١، والأعلام للزركلي: ١٥٧/١.

ولما مات وقف على قبره زهاء ثمانين ومائة شاعر فيهم الفقهاء والمحدثون والمتصوفون.

مواهبه وعقيدته:

كان أبو العلاء إنسيَّ الولادة وحشيَّ الغريزة كما وصف نفسه، رقيق القلب سخيًا وفيًا، قامعًا لشهواته، سيِّء الظن بالناس، شديد الحذر منهم، قوي الذاكرة، سريع الحفظ، وقد رووا عنه في ذلك الأعاجيب؛ فزعموا أنه كان يحفظ ما يفهم وما لا يفهم، وقد قال الشعر لإحدى عشرة سنة. ولم يمنعه ذهاب بصره من إجادة التشبيه ومشاركة المبصرين في ألعابهم. فقد كان يجيد لعب النرْد والشطرنج ويدخل في كل باب من أبواب الهزل والجد.

وقد اختلف الناس في عقيدته، فمنهم من قال إنه ملحد يرى رأى البراهمة. وغيرهم يقول: إن شعره ككلام الصوفية له باطن وظاهر. وبعضهم يقول: إن هذه الأشعار الضالة مدسوسة عليه من أعدائه. وأكثر الناس يرجح أنه كان شاكًا، فتارة يثبت وأخرى ينفي، ولذلك كثر التناقض في شعره.

شعره:

ينقسم شعر أبي العلاء إلى قسمين: شعر الشباب ويجمعه سقط الزند؛ وشعر الكهولة وقد وعته اللزوميات فأما شعره في الشبيبة فكثير المبالغة، واضح التقليد بَين التكلف، قلد فيه المتنبي واستمد منه أكثر معانيه، واستخف بقواعد اللغة، وجارى شعراء عصره في البديع. بيد أنه استعمل الغريب وأكثر في شعره من اصطلاحات العلوم، وقال في أكثر أغراض الشعر إلا في الخمر والمجون والصيد والهجاء، وقد سلم له في هذا الطور جملة من القصائد المختارة في الرثاء والمدح والفخر.

وأما شعره في الكهولة فقليل المبالغة والتكلف؛ قد عارض فيه المتقدمين من العرب، فآثر اللفظ الجزل والأسلوب البدوي، وركب القوافي الصعبة. والتزم ما لا يلزم، وتشدد في اتباع القياس، وأكثر من البديع والجناس، وأودع شعره في هذا الطور فلسفته وآراءه. ولكنه حشاه بالألفاظ الغريبة والتراكيب الغامضة كأنما خاف شر الناس على تلك الثمرات الفكرية فحاطها بأشواك من الكلمات حتى لا يمتد إليها بنان ولا يتذوقها لسان. وقد ابتدع في شعره مناجاة الحيوان كمحاورة الديك والحمامة، ومناظرة الذئب والشاة. وهو أحكم الناس بعد أبي الطيب. ويختص دونه بالخيال الدقيق، وتصريف القول في الفلسفة والاجتماع وأخلاق البشر وأنظمة الحكومات والقوانين والأديان وهو واحد الشعراء في هذا السبيل.

نثره:

نثر أبي العلاء كشعره، يختلف في كهولته عنه في شبيبته. فقد كان كثير المبالغة،

مفعماً بالغريب، متكلف السجع، كثير الاصطلاحات العلمية. ثم حكم فلسفته في نثره فقلت المبالغة، وفاضت الجمل بالمعاني. ولم تخل كتابته من غموض يُعَنِّي القارىء وتطويل يمله؛ فربما كتب الرسالة إلى أصدقائه فيمعن فيها ويستطرد حتى تكون كتاباً ضخماً غريب المسائل كثير الفوائد.

مؤلفاته:

أكثر مؤلفاته ذهبت بها ريح الحروب الصليبية، فلم يبق إلا سقط الزند، واللزوميات، والدرعيات، والفصول والغايات، وديوان رسائله، ورسالة الملائكة ورسالة الغفران، وهي شديدة الشبه بالملهاة الإلهية لدانتي، والفردوس المفقود لملتن لأنه تخيل رجلاً صعد إلى السماء ووصف ما شاهده هناك، وآنتقد فيها الشعراء والرواة والنحاة بأسلوب روائي بديع، ثم عبث الوليد. وهو شرح ديوان البحتري وقد طبع في دمشق. وقد فقد كتاب الأيْكِ والغصون في مائة مجلد، وهو دائرة معارف في العلم والأدب، ومعجز أحمد، وهو شرح ديوان المتنبي؛ وذكرى حبيب، وهو شرح ديوان أبي تمام، وغير ذلك كثير.

نموذج من شعره:

قال ينعي على الحكام استبدادهم بالرعية وعبثهم بمصالحها:

مُلَّ المُقام فكم أعاشر أمة ... أمرت بغير صلاحها أُمراؤها
ظلموا الرعية واستجازوا كيدها ... وغدَوا مصالحها وهم أُجراؤها

وقال في أحكام الحظ وأوهام الحياة:

تباركتَ أنهارُ البلاد سوائح ... بعذب وخَصْت بالملوجة زمزم!
هو الحظ عيْرُ البيدِ سافٍ بأنفه ... خزامى وأنف العود بالذل يخزم
توهمت خيراً في الزمان وأهله ... وكان خيالاً لا يصح التوهم
فما النُّور نوَّار ولا الفجر جدول ... ولا الشمس دينار ولا البدر درهم

ومن قصيدة له في الرثاء:

صاح! هذي قبورُنا تملأ الرُّحـ ... ـبَ فأين القبورُ من عهد عاد!
خفف الوطء ما أظن أديم الـ ... أرض إلا من هدة الأجساد
وقبيحٌ بنا وإن بَعُد العهـ ... ـد هوَانُ الآباءِ والأجداد
سر إن آستطعت في الهواء رُوَيْداً ... لا آختيالا على رُفات العباد
رُبَّ لحد قد صار لحداً مراراً ... ضاحكاً من تزاحم الأضداد
فآسأل الفرقدين عمن أحَسَّا ... من قبيل وآنسا من البلاد
كم أقاما على زوال نهار ... وأنارا لِمُدلج في سواد

تعبٌ كلها الحياة فما أعـ ـجب إلا من راغب في ازدياد
إن حزناً في ساعة الموت أضعا فُ سرور في ساعة الميلاد

وقال ينعي على المتزهدين المرائين من أهل الدين:

رُوَيدك قد غُرِرتَ وأنت حرٌ بصاحب حيلة يعظ النساءْ
يُحرِّم فيكم الصهباء صُبحاً ويشربها على عَمْدٍ مساءْ
يقول لكم غدوت بلا كساءٍ وفي لذاتها رهَنَ الكساءَ
إذا فعل الفتى ما عنه يِنْهي فمن جهتين لا جهة أساءَ

وقال:

يحسن مرأى لبني آدم وكلهم في الذوق لا يعذبُ
ما فيهم بَرٌّ ولا ناسكُ إلا إلى نفع له يجذب
أفضل من أفضلهم صخرة لا تظلم الناس ولا تكذب

وقال:

خفْ دَنيّاً كما تخاف سَريّاً صال ليث الشرى بظفر وناب
والصِّلالُ التي تخاف رداها شرُّها في الرؤوس والأذناب

وقال:

عجبي للطبيب يُلحد في الخا لق من بعد درسه التشريحا
رُبَّ روح كطائر القفص المسـ ـجون ترْجو بموتها التسريحا

الشعر والشعراء في الأندلس

أفلت صقر قريش من شرَك السفاح ونجا بنفسه وأهله إلى الأندلس. وكان المُلك فيها يومئذ يضطرب بالخلاف بين المضرية واليمنية؛ والبلاد تنتظر من يلمُّها من شتات، ويحييها من مَوَات، ويجمعها من فرقة؛ فكان عبد الرحمن الداخل هو الرجل الموعود والإمام المنتظر. فآستولى عليها سنة ١٣٨ هـ بمعونة اليمنية. ونشر عَلَم بني أمية في قرطبة بعد ما طوته المسوَدّة في دمشق. وتعاقب على عرشها من أولاده وحفَدته تسعة عشر خليفة في أربعة وثمانين ومائتي عام، حتى أصابهم داء الأمم فتفرقوا وتمزقوا، وآنحل ملكهم إلى دويلات صغيرة عرف أصحابها بملوك الطوائف، كبني جهور في قرطبة، وابن عباد في أشبيلية، وابن الأفطس في بطليوس.

وكانت سياسة الأمويين في الغرب غير سياستهم في الشرق، فقد كانوا في دولتهم الأولى يترفعون عن خلاط الموالي، ويعتزون بعصبية الجنس، فأصبحوا في هذه الدولة مدنيين، يمدون إلى القوط أسباب الاتصال بهم. ويمهدون لهم سبل الاندماج فيهم، صُنع

بني العباس في أبناء الفرس. فكان من نتيجة هذا الارتباط وأثر هذا الاختلاط أن حدث في الأندلس ما حدث في العراق من امتزاج الجنسية السامية بالجنسية الآرية، ونضج العقلية العربية، وآستعار النهضة الأدبية، وآزدهار الأندلس بحضارة إسلامية مادتها من الشرق وبناتُها من العرب، لأن أوروبا يومئذ كانت تخبط في دياجير الجهالة، وترسف في أغلال الأمية، فآقتبس الأسبان ثقافة العرب فآعتقدوا دينهم، وتكلموا لغتهم، وتعلموا أدبهم. وهجروا اللاتينية وآدابها حتى أُنْسوها، وحتى جأر بالشكوى من هذه الحال كاهن قرطبة ولكن القسيسين أنفسهم لم يستطيعوا الوقوف بنجوة من هذا السيل فجرفهم جرفاً حتى آضطرهم إلى نقل كتب الدين إلى اللغة العربية.

وكان الأمويون وعرب الأندلس لا ينفكون ملتفتين إلى الشرق موطن الجنس والدين واللغة والأدب والحضارة فيسيرون على ضيائه، ويستمدون من زعمائه وعلمائه، ويحذون في سياستهم وإدارتهم حذو العباسيين؛ فشيدوا المدارس الجامعة، وأنشأوا المكاتب العامة، ونشطوا حركة التأليف، وأذكوا نهضة الأدب ورفعوا مجد الفنون، وعقدوا مجالس المناظرة والمسامرة والغناء. بلغت الأندلس من ذلك كله الحظ الموفور في عهد عبد الرحمن الثاني (٢٠٦ ـ ٢٣٨ هـ) وبلغت أوج سلطانها وغاية عمرانها وتمام بنيانها في عصر أمير المؤمنين عبد الرحمن الثالث (٣٠٠ ـ ٣٥٠ هـ) وابنه الحكم، وهو عصرها الذهبي الذي بلغت فيه من السطوة والقوة والثروة والوحدة والحضارة والعمارة والفن والأدب ما كادت تضارع به بغداد، وما أدهشت به المؤرخ دوزي حتى قال: «إن عبد الرحمن الناصر أولى أن يكون من ملوك العصر الحديث لا من ملوك القرون الوسطى». وهكذا كانت حضارة الإسلام تشع في بغداد وقرطبة في وقت واحد فتبدد دياجير الشرق وتكشف مجاهيل الغرب. ولكن تمام الشيء مبدأ نقصانه. فلم تكد خلافة الحكم ابن الناصر تنتهي حتى دبّ في خلافة بني مروان دبيب البلى والهرم، وآل سلطانها إلى ملوك الطوائف فآضطلعوا به قليلاً ثم أوهن كواهلهم داء الانقسام وفساد النظام وغاداهم المرابطون من البربر فقوضوا أركانهم، ونازعوهم سلطانهم، وراوحهم الفرنج متكاتفين فآستلبوا الملك من أيديهم مدينة بعد مدينة، حتى تمت الهزيمة وعم الجلاء بقرار أبي عبد الله محمد بن علي من غرناطة سنة ٨٩٨ هـ وكان ذلك آخر عهد العرب والعربية بالجزيرة.

ذلك مجمل من القول في حال العرب بالأندلس سقناه إليك تمهيداً لما سنلُم به إلماماً من وصف شعرهم وذكر نفر من شعرائهم.

وليس من غرضنا أن نعرض هنا لدراسة الشعر الأندلسي فنفصله ونحلله، وإنما هي لمحة وجيزة تكشف عن مناهجه ومناحيه، وتبين تأثير البيئة والطبيعة فيه. فقد وجد الشعراء العرب في أوروبا ما لم يجدوه في آسيا من الحياة المتنوعة، والجواء المتغيرة، والمناظر

المختلفة، والأمطار المتصلة، والخمائل الجميلة، والأدواح الظليلة، والأنهار الروية، والسهول الغنية، والجبال المؤزرة بعميم النبت، والمروج المطرزة بألوان الزهر؛ فصفت أذهانهم، وسما وجدانهم، وعذب بيانهم، ووسعوا دائرة الأدب، وهذبوا الشعر فتأنقوا في ألفاظه وتنوَّقوا في معانيه، ونوعوا في قوافيه، وتفننوا في خياله، وذبحوه تدييج الزهر، وسلسلوه سلسلة النهر، وأكثروا من نظمة في البحور الخفيفة القصيرة، حتى ضاقت أوزان العروض عما تقتضيه رقة الحضارة ورقي الغناء. فاستحدثوا الموشح باللغة الفصحى، ثم تطور عند انحطاط الأدب وآضمحلال أمر العرب إلى الزجل باللغة العامية.

وصرَّفوا الشعر في أغراض شتى كالمدح والغزل والرثاء والدعاء والزهد والتصوف والفلسفة والمزاح والمجون وعالجوا سياسة الاجتماع، ونظموا حوادث التاريخ، وأبدعوا ما شاء الإبداع في الوصف: فوصفوا الأبنية والتماثيل والقصور والبرك والنوافير والنواعير والحدائق والمروج والأدوية والأديرة والأنهار والأشجار والرياح ومجالس الطرب؛ وكل ذلك في حلاوة لفظ ورقة أسلوب ودقة صنعة. إلا أن شعرهم على الجملة جار مجرى الشعر الشرقي، فلم يتعد حدوده ولم يكسر قيوده إلا بمقدار ما ذكرناه لك من آبتداع الموشح وتنويع القافية؛ وذلك لاعتقادهم أنه هو الأصل الذي يُرجع إليه، والقالب الذي يضرب عليه.

ولئن صح من بعض الوجوه ما يتقول به أدباء الفرنج من أن الشعر العربي تصنُّع في اللفظ، وتعمُّلٌ في الشكل، وليس فيه خيال رائق، ولا شعور صادق فلن يصح هذا القول بحال في شعراء الأندلس. فإنهم عبروا عن عواطفهم، وترجموا عن مشاعرهم، بلفظ جيد وأسلوب أنيق، فطافوا على قرّائهم بأكواب من ذهب فيها ما تشتهيه الأنفس. وإنك لترى في وصفهم مناظر الطبيعة وتصويرهم وجوه الأرض مشابهة لأشعار الفرنج ولقد أخذ الفرنسيون والأسبان عن عرب الأندلس غير العلم والموسيقى وفن العمارة، ضروباً شتى من الشعر، كالمدح والهجاء والغزل، كما أخذوا عنهم القافية وكانوا من قبل يكتفون باتحاد الحروف الصوتية الأخيرة (assonance) غير ناظرين إلى ما بعدها.

ولو طال عَلى الأندلسيين الأمد في الحضارة، وتعاقبت أطوار الرقي على اللغة وآدابها لأتوا بأبلغ مما جاء به روسو وهوجو ولامرتين وأضرابهم ولكن فاجأهم الانقسام، وداهمهم الخصام، فآنشقت عصاهم، وآنفصمت عراهم، ونضبت قرائحهم وأمحَلت عقولهم، وذهبوا كأمس الدائر، سنة اللّه في خلقه. ولن تجد لسنة اللّه تبديلاً.

نماذج من الشعر الأندلسي

قال أبو الفضل بن شرف القيرواني:

مطَلَ الليل بوعدِ الفَلق ... وتشَكّى النجمُ طولَ الأرق
ضربت ريح الصَّبا مسك الدجى ... فآستفاد الروض طيب العبق

وألاح الفجرُ خدَّ خَجِلا ... جالَ من رَشح الندى في عرق
جاوز الليل إلى أنجمه ... فتساقطن سقوط الورق
وآستفاض الصبح فيها فيضة ... أيقن النجم لها بالغرق
فآنجلى ذاك السَنا عن حلك ... وآنمحى ذاك الدجى عن شفق
يأبى بعد الكرى طيفٌ سرى ... طارقاً عن سكن لم يُطرِق
زارني والليل ناعٍ سدْفَه ... وهو مطلوب بباقي الرمق
ودموع الطل تمريها الصَّبا ... وجفون الروض غرْقى الحدق
فتأبى في إزار ثابت ... وتثني في وشاح قلِق
وتجلي وجهه عن شعره ... فتجلّى فَلَقٌ عن غسق
نهب الصبح دجى ليلته ... فحبا الخدّ ببعض الشفق
سلبت عيناه حدَّيْ سيفه ... وتجلى خدُّه بالرونق

وقال ابن حمديس الصقلي يصف ديراً وراهبة تبيع الخمر:

وراهبة أغلقت ديرها ... فكنا مع الليل زوارها
هدانا إليها شذى قهوة ... تذيع لأنفك أسرارها
طرحت بميزانها درهمي ... فأجرت من الدَّن دينارها
تفرس في شمسه طيبها ... مجيدُ الفراسة فآختارها
فتى دارس الخمر حتى درى ... عصير الخمور وأعصارها
يَعدُّ لما شئت من قهوة ... سنيها ويعرف خمارها
وعدنا إلى هالك أطلعت ... على قضْب البان أقمارها
يرى ملك اللهو فيها الهموم ... تثور فيقتل ثوارها
وقد سكَّنت حركات الأسى ... قيانٌ تحرك أوقارها
فهذي تعانق لي عودها ... وتلك تقبل مزمارها
وراقصة لقطت رجلَها ... حسابَ يد نقرت طارها
وقُضبٍ من الشمع مصغرة ... تريك من النار نوارها
كأنَّ لها عمداً صفقت ... وقد وزن العدل أقطارها

إلى أن قال:

ذكرت صقَلِّيَّةَ والأسى ... يهيِّج للنفس تذكارها
ومنزلة للتصابي خَلت ... وكان بنو الظرف غمَّادها
فإن كنت أخرجتُ من جنة ... فإني أحدث أخبارها
ولولا ملوحة ماء البكا ... ء حسبت دموعيَ أنهارها

وقال ابن هانىء يصف أكولاً:

يا ليت شعري، إذا أومى إلى فمه ... أحلقه لَهَوات أم ميادين؟
كأنها ـ وخبيث الزاد يضرمها ـ ... جهنم، قذفت فيها الشياطين
تبارك اللّه ما أمضى أسنَته ... كأنما كل فك منه طاحون
كأن بيت سلاح فيه مختَزَنٌ ... مما أعدته للرسل الفراعين
أين الأسنة أم أين الصوارم أم ... أين الخناجر أم أين السكاكين
كأنما الحمل المشوي في يده ... ذو النون في الماء لما عضه النون
لف الجِداءُ بأيديها وأرجلها ... كأنما افترستهن السراحين
وغادر البط من مثنى وواحدة ... كأنما اختطفتهن الشواهين
يخَفض الرز من قرن إلى قدم ... وللبلاعيم تطريب وتلحين
كأنما كل ركن من طبائعه ... نار، وفي كل عضو منه كانون!
كأنما في الحشا من حمل معدته ... قرنفل وجراريش وكمون
قوموا بنا فلقد رِيعت خواطرنا ... وجاذبتنا أعنتها البراذين
نصحتكم، فخذوا من شدقه وزراً ... أولاً، فأنتم سَويق فيه مطحون

وقال المعتمد بن عباد صاحب أشبيلية وقد دخل عليه في سجنه بناته يوم عيد في أطمار بالية بعد أن سلمه ابن تاشفين ملكه وسجنه بأغمات:

فيما مضى كنت بالأعياد مسرورا ... فساءك العيد في أغماتَ مأسورا
ترى بناتك في الأطمار جائعة ... يغزلن للناس ما يملكن قطميرا
يطأن في الطين والأقدام حافية ... كأنها لم تطأ مسكاً وكافورا
أفطرت في العيدلا عادت إساءته ... فكان فطرك للأكباد تفطيرا
قد كان دهرك إنْ تأمرْه ممتثلاً ... فردك الدهر منهيًّا ومأمورا
من بات بعدك في ملك يسَرُّ به ... فإنما بات بالأحلام مغرورا

وقال ابن دراج القسطلي من قصيدة يصف وداعه لزوجه وولده الصغير:

ولما تدانت للوداع وقد هفا ... بصبري منه أنة وزفير
تناشدني عهد المودة والهوى ... وفي المهد مبغوم النداء صغير
عييٌّ بمروج الجواب، ولفظه ... بموقع أهواء النفوس خبير
تبوأ ممنوع القلوب ومُهدت ... له أذرع محفوفة ونحور
وطار جناح البين بي وهفت بها ... جوانح من ذعر الفراق تطير
ولو شاهدتني والهواجر تلتظي ... عليّ ورقراق الشراب يمور
أسلط حر الهاجرات إذا سطا ... على حر وجهي والأصيل هجير
وأستنشق النكباء وهي لوافح ... وأستوطىء الرمضاء وهي تفور

وللمـوت في عين الجبـان تـلون وللذعـر في سمـع الجريء صفير
لبـان لهـا أني من البيـن جـازع وأني على مضر الخطوب صبـور

وقال الوزير ابن زيدون وهو سجين:

مـا عـلى ظنـي بـاس يجـرح الدهـر ويـاسـو
رُبـمـا أشـرف بـالـمـر ء عـلى الأمـال يـاس
ولـقـد يـنـجيـك إغـفـا لٌ ويُـرديـك احـتـراس
والـمـحـاذيـر سـهـام والـمـقـاديـر قـيـاس
وَلـكـمْ أجـدى قـعـودُ ولَـكـمْ أكـدى التـمـاس!
وكـذ الـحـكـم: إذا مـا عـز نـاسٍ ذل نـاس
وبـنـو الأيـام أخـيـا فُ سَـرَاةٌ وخِـسـاس
نـلبس الـدنـيـا، ولـكـن مُـتـعـةٌ ذاك الـلبـاس
يـاأبـا حـفص ومـا سـا واك فـي فـهـم إيـاس
من سنـا رأيـك لي في (م) غَسق الخطب اقتباس
لا يـكـنْ عـهـدك وَرْداً إن عـهـدي لـك آس
وآدر ذكـرى كـأسـاً مـا آمتـطت كفّـك كـاس
وآغتـنـم صفـو الليـالي إنـمـا العـيش آختـلاس
مـا تـرى في معشـر حـا لـوا عن العهد وخـاسـوا؟
أذْؤُبٌ هـامـت بلحـمـي فـآنـتـهـابٌ وآنـتـهـاس
كـلهـم يـسـأل عـن حـا لي، وللذئـب آعـتـسـاس
إن قـسـا الـدهـر فللمـا ء مـن الصخـر آنبجـاس
ولئـنٍ أمسـيت محـبـو سـاً فللغيـث آحتـبـاس
ويـفُتّ المسـك فـي التـر ب فـيـوطـأ ويُـداس

ومن أجود موشحاتهم قول ابن بقي:

خـذ حـديث الشـوق عن نَفسي وعـن الـدمـع الـذي هـمـعـا
مـا تـرى شـوقـيَ قـد وقـدا
وهـمـا دمـعـيَ وآطـردا
وآغـتـدى قـلبـي عـلـيـك سـدى!
آه مـن مـاء ومـن قـبس بين طـرفي والحشـا جُـمعـا!

* * *

بـأبـي ريـم إذا سـفـرا
أطـعـت أزرارُه قـمـراً
فـآحـذروه كلمـا نـظرا
فـبـألـحـاظ الـجـفـون قِـسـى أنـا مـنـهـا بـعض مـن صُـرِعـا

وقال بعضهم:

مـا لـلـمـلـمـوَلَّـة مـن سـكـره لا يـفـيـق
يـا لـه سـكـرانـا!
مـن غـيـر خـمـر. مـا لـلكئـيـب الـمَـمـشـوق
يـنـدب الأوطـانـا
هـل تـسـتـعـاد، أيـامـنـا بـالـخـلـيـج
وليـالـيـنـا
أو يـسـتـفـاد، مـن الـنـسـيـم الأريـج
مـسـك دارِيـنـا
وادٍ يـكـاد، حـسـن الـمـكـان الـبـهـيـج
أن يـحـيـيـنـا
ونـهـر أظـلّـهُ دوح عـلـيـه أنـيـق
مـورق فـيـنـان
والـمـسـاء يـحـرى وعـائـم وغـريـقْ
مـن جَنَى الـريـحـان

ومن موشح ابن سهل الإسرائيلي:

هـل درَ ظبي الـحـمـى أن قـد حـمـى قـلـبَ صـب حـلـه عـن مـكـنِس
فـهـو فـي حـر وخـفـق مـثـل مـا لـعـبـت الـصَّـبـا بـالـقـبَس

* * *

يـا بـدوراً أطـلـعـت يـوم الـنـوى غـرراً فـي نـهـج الـغـرر
مـا لـقـلبي في الـهـوى ذنب سـوى مـنـكـم الـحـسـنُ ومـن عـيـنـي الـنـظرْ
أجـتـنـي الـلذات مـكـلومَ الـجـوى والـتـذاذي من حـبـيـبي بـالـفِـكـر
كـلـمـا أشـكـوه وَجـداً بَـسـمـا كـالـرُّبـى بـالـعـارض الـمُـنْـبَـجس
إذ يـقـيـم الـقَـطرُ فـيـه مـأتـمـا وهـي مـن بـهـجـتـهـا فـي عُـرسُ

* * *

غــالــبٌ لـي غــالــبٌ بــالـتُّـؤده ... بــأبي أفــديــه من جــاف رقيــق
مــا رأيـنــا مـثــل ثــغــر نَـضَّـدَه ... أقحـوانــاً عُصِـرت مـنــه رحيق
أخــذت عـيـنــاه مـنــه العــربــدة ... وفـؤادي سـكــرُه مــا إن يُـفـيــق
فــاحم الجـمَّـة معســول اللمَى ... أكـحــل الـلحظ شــهـيَ الـلَّعَس
وجـهــه يـتـلو الضـحى مـبتسـمــا ... وهــو مـن إعْـرَاضــه فـي عــبس

شعـراء الأندلـس

٥٠ ــ ابـن عبـد ربـه

٨٦٠ ـ ٩٤٠ م

٢٤٦ ـ ٣٢٨ هـ

نشأته وحياته:

هو أبو عمر أحمد بن محمد عبد ربه الأموي بالولاء، لأن جده كان مولى لهشام بن عبد الرحمن الداخل ثاني خلفاء الأمويين بالأندلس. ولد هذا الكاتب الشاعر بقرطبة ونشأ بها، ثم تخرج على علماء الأندلس وأدبائها وآمتاز بسعة الاطلاع في العلم والرواية، وطول الباع في الشعر والكتابة. قال ياقوت في معجمه: «وكان لأبي عمر بـالعلم جلالـة وبالأدب ريـاسة وشهـرة مع ديـانة وصيـانة، وآتفقت لـه أيام وولايـات للعلم فيها نفـاق، فساد بعـد الخمول، وأثرى بعد الفقر، وأُشيرَ إليه بالتفضيل إلا أنـه غلب عليه الشعـر» ثم أصيب في أعقاب عمره بالفالج وتوفي سنـة ٣٢٨ هجرية.

شعـره:

أكثـر شعـر ابن عبـد ربـه وأجمله في الـوصف والغـزل. وهـو أشبـه بشعـر ابن زيـدون في الجمـع بين روعـة الشـرقيين وجـزالتهم، ورقـة الغـربيين وسـلاستهم. وهو أكثر ترديداً لأخبار المشارقة وأصح تقليداً لأشعارهم. وقد آتصلت شهرته بهؤلاء فرووا شعره، ورددوا ذكره، وشهدوا له بالتقدم والإجادة. روى ابن الخطيب أن الوليد الأندلسي لما حج عرَّج في منصَرَفه على مصـر، فلقي بها أبـا الطيب المتنبي في جـامع عمرو بن العاص، فأفاضا في الحديث ملياً، ثم قال المتنبي: ألا تنشدني لمليح الأندلس؟

---

٥٠ ـ انـظر ترجمتـه في: جـذوة المقتبس: ص ٩٤ ـ ٩٦ والمُـطْرِب: ص ١٥١ ـ ١٥٦ ومـطمـح الأنفس: ص ٥١ ـ ٥٣، وبُغيـة الملتمِس: ص ١٣٧ ـ ١٤٠ وتاريـخ علماء الأنـدلس، ص ٤٩ ـ ٥٠: وإرشـاد الأريب: ٢/٦٧ ـ ٧٢، ووفيـات الأعيان: ١/٣٩ ـ ٤١، والـوافي بالـوفيـات: ٨/١٠ ـ ١٤، ومعجم المؤلفين: ٢/١١٥ ـ ١١٦، ومراجع تراجم الأدباء العرب: ١/١٠٦ ـ ١٠٩.

obeikandl.com

يعني ابن عبد ربه. فأنشده الوليد شيئاً من شعره، فصفق له وآستعاده ثم قال «يا ابن عبد ربه لقد تأتيك العراق حبوا!» وكفى شهادة المتنبي دليلاً على فضل الرجل وعلو كعبه. وابن عبد ربه من الشعراء المكثرين فقد رأى الحميدي من شعره عشرين جزءاً ونيفاً من جملة ما جمع للحكم بن عبد الرحمن الناصر أكثرها بخطه. وقد زين كتابه العقد الفريد بكثير منه في كل معنى. وقال في مقدمته: وحليت كل كتاب منها بشواهد من الشعر تجانس الأخبار في معانيها، وتوافقها في مذاهبها. وقرنت منها غرائب من شعري ليعلم الناظر في كتابنا هذا أن لمغربنا على قاصيته، وبلدنا على آنقطاعه. حظاً من المنظوم والمنثور».

وهو من السابقين إلى آختراع الموشحات، وله طبع في الشعر القصصي وهو قليل في العربية. من ذلك أرجوزته في تاريخ عبد الرحمن الناصر صاحب الأندلس في عصره، ولكنها إلى الشعر التعليمي Didactique أقرب منها إلى الشعر القصصي (Epique) لجفافها وضعف خيالها وبعدها عن قواعد الملحمة، وهي منشورة في الجزء الثاني من العقد الفريد.

ولما تناهت به السن وأرعشه الكبر، أقلع عن صبوته، وأخلص للّه في توبته، ونظم أشعاراً كثيرة سماها بالممحصات لأنه نقض كل قطعة قالها في الغزل واللهو، بقطعة من بحرها ورويها في الموعظة والزهد ولم يكتف ابن عبد ربه بنبوغه في الشعر وتفوقه في النثر، فأراد أن يدل على براعته في التأليف أيضاً، فصنف كتاباً في الأدب سماه العقد الفريد.

العقد الفريد:

وهو كتاب من أمهات كتب الأدب، جامع لتشتيت الفوائد ومنثور المسائل في الأخبار والأنساب والأمثال والشعر والعروض حتى الطب والموسيقى. وقد آستوعب خلاصة ما دُوِّن من كتب الأصمعي وأبي عبيدة والجاحظ وابن قتيبة وغيرهم. ولم يقتصر على المأثور عن العرب بل وشّى كتابه بما ترجم عن اليونان والفرس والهنود من ضروب الحكمة والموعظة والملح. وقد تأنق في تبويبه وتفنن في ترتيبه، فقسمه إلى خمسة وعشرين كتاباً في موضوعات شتى بدأ كلا منها بمقدمة بليغة من إنشائه تبين الغرض منه؛ وسَمَّى كل كتاب بجوهرة من جواهر العقد كاللؤلؤة والفريدة والزبرجدة والجمانة والمرجانة والياقوتة والجوهرة الخ.

ومن الغريب أن المؤلف وهو أندلسي لم يشر إلى الأندلس ولا إلى أهلها بكلمة، اللهم إلا إلى نفسه! حتى إن الصاحب بن عباد لما سمع بهذا الكتاب حرص حتى حصل عليه. فلما تصفحه قال: «هذه بضاعتنا ردت إلينا. ظننت أن هذا الكتاب يشتمل على شيء من أخبار بلادهم، فإذا به يشتمل على أخبار بلادنا. لا حاجة لنا به، ثم رده». والكتاب في ثلاثة مجلدات تزيد صفحاتها على ألف صفحة وقد طبع بالقاهرة أخيراً في خمسة مجلدات.

نمـوذج من شعـره:

قال في الغزل:

يــا لـؤلؤاً يـسبي العـقـول أنيقـا ... وَرَشـاً بتقـطيـع القـلوب رقيقـاً
مـا إن رأيت ولا سمعت بمثله ... دراً يعـود من الحيـاء عقيقـاً
وإذا نـظرت إلى محـاسن وجهـه ... أبصـرت وجهك في سنـاه غـريقـاً
يـا مـن تقـطع خصـرُه من رقـة ... مـا بـال قلبـك لا يكـون رقيقـاً؟

وقال في موقف الوداع:

ودّعـتـنـي بـزورة وآعـتـنـاق ... ثم نـادت متى يكـون التـلاقي!
وبـدت لي فـأشرق الصبح منهـا ... بـيـن تـلك الجـيـوب والأطـواق
يـا سقيم الجفـون من غيـر سقم ... بـين عـينيـك مصـرعُ العـشـاق
إن يـوم الـفـراق أفـظع يـوم ... لـيتني مـتّ قبـل يـوم الفـراق!

وقال في وصف رمح وسيف:

بـكـلّ رَدْيِيٍّ كـأن سـنـانـه ... شهـاب بدا في ظلمـة الليل ساطع
تقـاصـرت الآجـال في طـول متنـه ... وعـادت بـه الآمـال وهي فجـائـع
وذي شُـطب تقضي المنايا لحكمه ... وليس لمـا تقضـي المنيـة دافـع
يـسلل أرواح الكمـاة آنسـلالُـه ... ويـرتاع منه الموت والموت رائع

وآخر شعر قاله قوله:

بليت وأبـلتني الليـالي بكَـرِّهـا ... وصـرفـان لـلأيـام مـعـتـوران
ومـالي لا أبلى لـسبعين حِجَّـةً ... وعشـر أتت من بعـدهـا سنتـان
ولست أبـالي من تبـاريـح علتي ... إذا كـان عقلي بـاقيـاً ولسَـاني

٥١ ـ ابن هانـيء الأندلسـي

٩٣٨ ـ ٩٧٤ م

٣٢٦ ـ ٣٦٣ هـ

نشأته وحياته:

ولد أبو القاسم محمد بن هانيء الأزدي الأندلسي بأشبيلية في زهرة العهد الأموي وفي

---

٥١ ـ انـظر تـرجمتـه في: جـذوة المقتبس: ص ٨٩ ـ ٩٠، والمـطرب: ١٩٢ ـ ١٩٥، وتكملة الصلة: ٣٦٨/١، ومطمح الأنفس: ص ٧٤، والخريدة، ٤: مصر ١، القاهرة ١٩٥١، ٢٤٨ ـ ٢٨١، وإرشاد =

أوج عصره الذهبي، وفي حكم الملك الناصر. وكانت أشبيلية إذ ذاك أخصب بلاد الأندلس علماً وأدباً، فنشأ بها ودرس الأدب العربي على النمط المألوف. يومئذ من السماع والحفظ والإنشاد والمحاكاة، وأبوه هـانىء يعضده ويـرشده لأنـه هو نفسـه أديب يعيش على الأدب ويتكسب بالشعر. وآستهوى شاعرنا ما عليه طائفة الشعراء من النعمة والثراء فسلك سبيلهم وتبع دليلهم، حتى آتصل بصاحب أشبيلية فنال حظوته وكسب محبته. وكانت ثمار الحضارة الأندلسية من السرف والترف واللهو قد بدت في ذلك الحين، فقطف ابن هانىء منها باليدين ولم يجد له رادعاً من خلق ولا وازعاً من دين. وأخذ بشيء من مذاهب الفلاسفة والأندلسيون على نقيض الشـرقيين يمقتون البـدعة وينصـرون السنة وينكـرون الفلسفـة ويصـدرون عن البحث في الدين، فتألب أهل أشبيلية عليـه، وكادوا يصلون بـالأذى إليه. وآتهمـوا الملك بمشايعته على رأيه، فأشار عليه أن يغيب ريثما تهدأ ثائرة القوم وينسونه. فرحـل إلى عدوة المغرب وعمره ست وعشرون سنة، فلقي القائد جوهراً فاتح مصر للمعز فمدحه. وأخصب زرع آماله فوصله الجد الميمون بالمعز لدين اللّه العبيـدي فآصـطفاه إليـه وأغدق إحسـانه عليه. ولما خرج المعز يريد مصر بعد أن فتحها جوهر وراض له الأمر فيها شيعة ابن هانىء وتخلف عنه ليأخذ عياله وماله ثم يلحق به إلى مصر. فلما كان في طريقه إليها عـرج على برقة ونزل في ضيافة رجل من أهلها، فأقـام عنده يقصف ويلهـو، حتى أمعن ذات يوم في الشراب فسكر سكرة أفضت به إلى سكرة الموت. فقيل إن نداماه من أهل ضيافته عـربدوا عليه وقتلوه، أو إنه خرج من الدار وهو سكران طافح فصـرعته الخمـر في الطريق فمـات، وعمره ست وثلاثون سنة. فلما بلغ المعز وفاته أسف عليه وقال: «هذا الرجل كنا نرجو أن نفاخر به شعراء الشرق فلم يُقدَّر لنا ذلك».

أخـلاقـه:

كان ابن هانىء ماجناً خليع العذار صاحب لهو وخمر. وكان ذكي الفؤاد فكه الأخلاق جم الأدب صريح القول والفعل لا يبالي أين يقع ذلك من الناس ومصداق تلك الصفات فيه مجاهرته بآراء تنكرها بيئته، وترفضها طبقته، ومبالغته في شعره إلى حد الكفر، والشاعر دون الفيلسوف أحرص الناس على رضا الناس. ناهيك بميتته الداعرة التي قل أن ماتها رجل.

شعـــره:

ابن هانىء على رأي الجمهور أمير شعـراء الأندلس غير مدافع. وفي هذا الرأي على إطلاقه إجحاف بأمثال ابن زيدون. على أن شعره من الطبقة العالية التي تجمع بين سلاسة

= الأريب: ١٢٦/٧ ـ ١٣٣، وابن خلكـان: ٢/٥ ـ ٧، ونفـح الـطيـب، ٤٤٤/٢ ـ ٤٥٠، ومعـجم المؤلفين: ٨٨/١٢ ـ ٨٩، ومراجع تراجم الأدباء العرب: ١٣١/١ ـ ١٣٤.

التفكير، وسلامة التعبير، ومعالجة كثير من مسائل الحياة وأحوال الاجتماع وخوالج النفس. وقد اطلع على شعر المتنبي وهو معاصر فأعجب بأسلوبه ومذهبه وسار على منهاجه وآثتم بهديه: فهو مثله يذهب في الشعر مذهب الفلاسفة، وينثر في ثناياه مدحه الحكم والأمثال، ويتخذ من حياته الخاصة مورداً لشعره، ويكثر من ذكر الحرب والقوة والغلب، ويجيد وصف ما يراه ويسمعه إجادة نادرة، ولذلك سموه متنبي الغرب على عادة المغاربة من حب التشبه بفحول المشارقة. ولكن بين الرجلين من التفاوت والبعد ما بين الوجه والبدر، والعزيمة والدهر، والكرم والبحر، في هذه التشابيه المعروفة. فشتان بين ما يصدر عن طبع وبين ما يصدر عن تقليد. وكأن هذه الموازنة أثارت سخط أبي العلاء، وعصبيته للمتنبي شديدة كما تعرف، فقال في ابن هانىء: «ما أشبهه إلا برحا تطحن قروناً لأجل القعقعة التي في ألفاظه» ومن يدري؟ فلو أن اللّه نسأ في أجل ابن هانىء فلم تأخذه المنون عَبْطةً لأحكمته السن وصقلت شعره التجارب وكان للتاريخ فيه رأي آخر.

أما الأغراض التي قال فيها فالمدح وهو معظم شعره، والغزل ولا يقوله إلا ابتداء لقصيد أو ابتغاء لتقليد؛ والرثاء والوصف وهو فيهما مقل مجيد. وقد شغله ما شغل المتنبي عن الطبيعة وأسرارها ومناظرها فلم يكن لها في شعره غير حظ ضئيل.

نموذج من شعره:

قال من قصيدة في الرثاء وهي من أجود شعره:

إنا وفي آمال أنفسنا ... طول وفي أعمارنا قِصَرُ
لنرى بأعيننا مصارعنا ... لو كانت الألباب تعتبر
مما دهانا أن حاضرَنا ... أجفاننا والغائبَ الفكر
وإذا تدبرنا جوارحنا ... فأكلهُنَّ العينُ والنظر
لو كان للألباب ممتحن ... ما عُدَّ منها السمعُ والبصر
أيُّ الحياة ألذَّ عيشتها ... من بعد علمي أنني بشر
خرست لعمر اللّه ألسُنَنا ... لما تكلم فوقنا القدَر

ومنها:

وإذا صحبت العيش أوله ... صفواً، فهيْنٌ بعده الكدَرُ
وإذا انتهيت إلى مدى أمل ... دركا، فيومٌ واحد عُمُر
ولَخَيْرُ عيش أنت لابسه ... عيشٌ جنى ثمراته الكبَر
ولكل حَلَبة سابق أمدٌ ... ولكل نُهْلَةٍ واردٍ صَدَر
وحدود تعمير المعمِّر أن ... يسمو صعوداً ثم ينحدر
والسيف يبلى وهو صاعقة ... وتنال منه الهام والقصر

والمرء كالظل المديد ضُحْى ... والفيْء يحسره فينحسر

ويقول في ختامها:

غرض ترامى في الخطوب، فذا ... قوس، وذا سهم، وذا وتر
فجزعت حتى ليس بي جزع ... وحذرت، حتى ليس بي حذر

وقال في الغزل:

أمسحوا عن ناظري كُحْل السهادِ ... وآنفضوا عن مضجعي شوك القتادِ
أو خذوا مني ما أعطيتمُ ... لا أحب الجسم مسلوب الفؤاد
هل تجيرون محباً من هوّى؟ ... أو تفكون أسيراً من صفاد؟
أُسْلُوا منكم من هجركم ... قلما يسلو عن الماء الصوادي!
إنما كانت خطوب قيِّضت ... فعدتنا عنكمُ إحدى العوادي
فعلى الأيام من بعدكمُ ... ما على الظلماء من لبس الحداد
لا مَزَارٌ منكم يدنو سوى ... بأن أرى أعلام هضب أو نجاد
قَلَ تنويل خيال منكم ... يَطَّبي بين جفون ومهاد
لم يزدنا القرب إلا هجرة ... فرضينا بالثنائي والعباد
وإذا شاء زمان رابنا ... برقيب أو حسود أو مُعادي

ومن قصيدة له يمدح جوهراً ويصف جيشه وهو ذاهب إلى فتح مصر:

رأيت بعيني فوق ما كنت أسمعُ ... وقد راعني يوم من الحشر أروعُ
غداةَ كأن الأفق سُدَّ بمثله ... فعاد غروب الشمس من حيث تطلع
فلم أدْر إذا سلَّمتُ كيف أشيِّعُ ... ولم أدر شيِّعت كيف أُوَدِّعُ
وكيف أخوض الجيش والجيش لجّة ... وإني بمن قاد الجيوش لمولعُ
فلا عسكرٌ من قبل عسكر جوهرٍ ... تخبُّ المطايا فيه عشراً وتُوضعُ

وقال في المدح:

أبَنى العوالي السمهرية والسيو ... ف المشرفية والعديد الأكثر
مَن منكم الملك المطاع كأنه ... تحت السوابغ تُبّعٌ في حِمْير
القائد الخيلَ العتاقَ شوازياً ... خُزراً إلى لحظ السنان الأخزر
شعث النواصي حشرة آذانها ... قبُّ الأياطل، داميات الأنسر
تنبو سنابكهن عن عفْر الثرى ... فيطأن في خد العزيز الأصعر
جيش تَقَدمه الليوث وفوقه ... كالغيل من قصب الوشيج الأسمر
ويقوده الليث الغضنفر مُعلماً ... في كل شثن اللبدتين غضنفر
في فتية صدأ الدرع عبيرهم ... وخلوقهم علق النجيع الأحمر

لا يـأكـل السـرحـان شلْوَ طيعنهم مـمـا عليـه من القنـا المـتكـسـر
قـوم يبيت على الحشـايـا غيـرهم ومَبيتهـم فـوق الجيـاد الضـمَّـر
وتـظل تسبح في الـدمـاء قبـابهم فـكـأنـهـن سفـائـنٌ في أبـحـر
فحيـاضهم من كـل مهجة خـالـع وخيـامهم من كـل لِـبْـدَة قسـور
حـيٌّ مــن الأعـراب إلاّ أنـهـم يَــردون مـاء الأمـن غَيـر مُكـدَّر

وقوله في وصف الخيل:

وصـواهل، لا الهضب يـوم مُغارهـا هضب، ولا البيـد الحـزون حـزون
عُـرفت بسـاعـة سبقهـا، لا أنهـا عَلقت بهـا يـوم الـرهـان عيـون
وأجـل علم البـرق عـنهـا أنـهـا مـرت بجـانحتيـه وهـي ظنـون

٥٢ ــ ابن زيدون
١٠٠٤ - ١٠٧٠ م
٣٩٤ - ٤٦٢ هـ

نشأته وحياته:

ولد أبو الوليد أحمد بن عبد اللّه بن زيدون بقرطبة سنة ٣٩٤. وكـان أبوه من وجـوه الفقهاء وعيون الأدباء، فدرس عليه وعلى غيره الأدب والعلوم. ورُزق في الإنشـاء قريحـة طيعة وطبعاً سليماً. وسمت به كفايته ومكانته إلى أن وزَر لأبي الحزم بن جهْور أحـد ملوك الطوائف بالأندلس، فاشتهر أمره وارتفع قدره. وألقى إليه مقاليـد الأمور فـدبرهـا وساسهـا بحذق وكياسة. وكثيراً ما سفر بين مولاه وملوك الأندلس فأحسن السفارة وفض المشكل. ثم دبت بينهما عقارب السعـاية، فنقم عليـه ابن جهور وسجنـه، ولم يشفع لـه سالف خـدمته ولا سابق حرمته. فكتب إليه رسالة فريدة يستمطر بها رحمته، ويستدفع نقمته، فلم يلن لها ذلك القلب الجماد، ففر من سجنه واختفى بقرطبة حتى استشفع بأبي الوليد ابن جهور إلى أبيه فشفَّعه. وظل في حماية هذا الأمير حتى آل الملك إلى بعد أبيه فاستصحبه وقرَّبه. ولكن صلاته السياسية بصاحب مالقة أحفظت عليه ابن جهور فنفاه فلجأ إلى المعتضد عباد صاحب أشبيلية سنة ٤٤١ فاستخلصه إليه، وعول في أموره عليه. ثم وزر لابنه المعتمد وقضى في أشبيلية بقية عمره.

---

٥٢ - انظر ترجمته في: جذوة المقتبس: ص ١٣٠ - ١٣١، وقـلائد العقيـان: ص ٧٩، والمغرب في حلي المغـرب: ١/٦٣ - ٦٩، وكنوز الأجـداد: ٢٥١ - ٢٦٠، وتتمة المختصـر: ١/٥٦٣ - ٥٦٤، وبغيـة الملتمس: ص ١٨٦ - ١٨٧، والخـريدة: ٢/٤٨ - ٧١، والـوافي بـالـوفيـات: ٧/٨٧ - ٩٤، ونفـح الطيب: ١/٦٢٧.

فأنت ترى من هذا المجمل أن حياة ابن زيدون العامة كانت مضطربة شاقة ولم تكن حياته الخاصة بـأقل منهـا اضطراباً ولا مشقة. فقـد آبْتُلِيَ وهو في قـرطبة بحب ولادة بنت المستكفي أحد خلفاء بني أمية، وكانت شهيرة بالجمال والأدب شاعـرة، سافـرة، تساجـل الشعراء وتجادل العلماء وكانت دارها نادياً من أندية قرطبة يغشاه الأمـراء والوزراء والأدبـاء والقادة، وفي هؤلاء ابن زيدون، وكانت فيه خفـة روح وحسن دعابـة وبراعـة أدب، فسبق المتنافسين إلى قلب ولادة فاحتله. وبادلته هي هذا الحب، فأذكى هذا الفوز نار الحسد في قلوب منافسيه ومزاحميه، فسعوا في إفساد ذات بينهما، واشتهر منهم الـوزير أبـو عامـر بن عبـدوس وهو عـظيم الحول والـطول، فتزلف إلى ولادة في سـاعة من سـاعـات مللهـا من ابن زيدون فظفر برضاها: ثم عاد الحب إلى مجراه الأول فرجعت إلى ابن زيدون، فكتب إلى ابن عبدوس رسالة هزلية ضافيـة الذيـل عن لسان ولادة أشبعـه فيها تقـريعاً وسخـرية، وضمنها كثيراً من المَلح في الأدب والتاريخ.

شعره:

شعر ابن زيدون هو الصورة الصحيحـة لشِعر الأنـدلس، لانبجاسـه من أعماق فؤاده، وانبعـاثه من طبيعـة بلاده. فـلا يجر جـريـان ابن هـانىء وراء شعـراء المشـرق يحـاكيهم ويحتذيهم. لأنه لم يتخذ الشعر وسيلة من وسائل الرزق، ولا سبيلاً من سبل الشهرة، وإنما كان يشعر لنفسه، ويعبر عن نزوات حسه. وهو آخر شعراء بني مخزوم وأول معاصريـه رقة ودقة. تقرأ في شعره أجود مـا خَصت به الـطبيعة الأنـدلسيـين من وصف المناظـر، وشرح العواطف، وسمو الخيال، وصفا الـديباجـة. وقد تـظهر أحيـاناً على فخـره ومدحـه علائم الضعف، إلا أنك لا تجد ذلك إذا تغزل أو تشوق أو استعطف، فإن طبعه في هذه الأغراض فياض، وقلمه لشرحها مجيد. وسبب ذلك ما قاساه من ظلم ابن جهور له. وما عاناه من نفور ولادة منه وبعدها عنه.

وقد تضلع ابن زيدون من أشعار العرب وأساليبهم في الكتابة والخطاب حتى قيل إنه أصيب في بعض حرمه فقعد للعزاء عنها، وأقبل الناس على اختلاف طبقاتهم يعزونه، فما أجاب أحداً بما أجاب به غيره لسعة ميدانه وحضور جناته. وإنك لتجد أثر هذا الإطلاع بادياً فيما يضمنه نثره وشعره من الأمثال والتشابيه والملح.

نثره:

لابن زيدون نثر أنيق الـوشي، دقيق النسج، قليـل التكلف والسجع، كثيـر الإزدواج والإطناب، شديدة الشبه بطريقة الجاحظ ولا سيما في التنويع بحروف الجر، وله من طريقة ابن العميـد تضمين الأمثال والملح، والتمثُّـل بالشعـر في غضون النثـر. ومن أجـود آثـاره رسالتان جدية وهزلية، بعث بالأولى إلى ابن جهور يستعطفه بها وهو سجين، وبالأخرى إلى

ابن عبدوس عن لسان ولادة، وهي التي سبق ذكرها. وقد حرص الأدباء على حفظهما وعُنيَ العلماء بشرحهما.

نموذج من كلامه:

قال مخاطباً بني جهور:

بني جهور أحرقتُم بجفائكم ... فؤادي فما بال المدائح تعبَق
تعدونني كالعنبر الورد إنما ... تفوح لكم أنفاسه وهو يحرق

وقال يتشوق إلى ولادة وهي بقرطبة وهو بأشبيلية:

أضحى التنائي بديلاً من تدانينا ... ونابَ عن طيب لُقيانا تجافينا
بِنتم وبنّا فما ابتلّت جوانحُنا ... شوقاً إليكم ولا جفت مآقينا
يكاد حين تناجيكم ضمائرنا ... يقضي علينا الأسى لو لا تأسّينا
حالت لبُعدكُم أيامنا فغدت ... سوداً وكانت بكم بيضاً ليالينا
ليُسَق عهدكُم عهد السرور فما ... كنتم لأرواحنا إلا رياحينا
مَنْ مُبلغ الملبسينا بانتزاحهمُ ... حزناً مع الدهر لا يبلى ويبلينا
أن الزمان الذي ما زال يضحكنا ... أنساً بقربكم قد عاد يبكينا
غيظ العدى من تساقينا الهوى فدعوا ... بأن نغصّ فقال الدهر آمينا
فانحل ما كان معقوداً بأنفسنا ... وانبتَّ ما كان موصولاً بأيدينا
وقد تكون وما يُخشى تفرقنا ... فاليوم نحن وما يُرجى تلاقينا
لا تحسبوا نأيَكم عنا بغيرنا ... إن طال غيَّر النأيُ المحبينا
واللّه ما طلبت أهواؤنا بدلاً ... منكم ولا انصرفت عنكم أمانينا
يا ساري البرق غادِ القصر فاسق به ... مَن كان صِرفَ الهوى والود يسقينا
ويا نسيم الصبَّا بلغ تحيتنا ... من لو على البعد حيّا كان يحيينا
يا روضة طالما أجنت لواحظنا ... ورداً جناه الصبا غضاً ونسرينا
ويا حياةً تملينا بزهرتها ... مُنى ضروباً ولذات أفانينا
لسنا نُسَمِّيك إجلالاً وتكرمة ... فقدرك المعتلى عن ذاك يغنينا
كأننا لم نبتْ والوصل ثالثنا ... والسعد قد غض من أجفان واشينا
سرّان في خاطر الظلماء يكتمنا ... حتى يكاد لسان الصبح يفشينا
يا جنة الخلد أبدِ لنا بسلسلها ... والكوثر العذب زقوماً وَغِسْلِينا
إنا قرأنا الأسى يوم النوى سوراً ... مكتوبة وأخذنا الصبر تلْقيناً

وقال يودعه:

ودعَ الصبرَ محبٌّ ودعك ... دائعٌ من سره ما استودعك

يقرع السنَّ على أن لم يكن زاد في تلك الخُطى إذ شيعك
يا أخا البدر سناءً وسنىً رحم اللّه زماناً أطلعك!
إن يطل بعدك ليلى فلكَمْ بتُّ أشكو قِصر الليل معك

وقال أيضاً:

أما رجا قلبي فأنت جميعه يا ليتني أصبحتُ بعضَ رجاك
يدنو بوصلك حين شط مزارهُ وهمُ أكاد به أقبِّل فاكِ

نموذج من نثره:

قال من رسالته الجدية:

يا مولاي وسيدي الذي ودادي له، واعتمادي عليه، واعتدادي به، وامتداي منه، ومن أبقاه اللّه ماضيَ حدِّ العزم، وارَى زَند الأمل، ثابت عهد النعمة سلبتني أعزك اللّه لباس نعمائك، وعطلتني من حلى أيناسك، وأظمأتني إلى ورد إسعافك، ونفضت بي كيف حياطتك، وغضضت عني طرْف حمايتك بعد أن نظر الأعمى إلى تأميلي لك، وسمع الأصم ثنائي عليك، وأحس الجماد باستحمادي لك. فلا غرو قد يغص الماء شاربه، ويقتل الدواء لمستشفي به، ويؤتى الحذر من مأمنه، وتكون منية المتمني في أمنيته. والحيْن قد يسبق جهد الحريص:

كل المصائب قد تمر على الفتى فتهون غير شماتة الحساد

وإني لأتجلد، وأرى الشامتين أني لريب الدهر لا أتضعضع. فأقول: هل أنا لابد أدماها سوارها، وجبين عض به إكليله، ومشرفي ألصقه بالأرض صاقله وسمهري عرضه على النار مُثَقِّفة، وعبد ذهب به سيده مذهب الذي يقول:

فقسا ليزدجروا ومن بك حازماً فليقسُ أحياناً على من يرحم

ومنها: ... وأعود فأقول: ما هذا الذنب لم يسعه عفوك؟ والجهل الذي لم يأت من ورائه حلمك؛ والتطاول الذي لم يستغرقه تطولك، والتحامل الذي لم يف به احتمالك. ولا أخلو أن أكون بريئاً فأين العدل؟ أو مسيئاً فأين الفضل؟.

إن لا يكن ذنب فعدلك واسع أو كان لي ذنب ففضلك أوسع

وكلها على هذا الأسلوب الرائق، والديباجة المشرقة والتضمين المحكم، والافتنان الرائع.

وقال في رسالته الهزلية:

أما بعد أيها المصاب بعقله، والمورَّط بجهله، البيِّن سقطه، الفاحش غلطه العاثر في

ذيل اغتراره، الأعمى عن شمس نهاره، الساقط سقوط الذباب على الشراب، المتهافت تهافت الفراش على الشهاب فإن العجبَ أكْذب، ومعرفة المرء نفسه أصوب. وأنت راسلني مستهدياً من صلتي ما صفرت منه أيدي أمثالك، متصدياً من خلتي لما قرعت دونه أنوف أشكالك، مرسلاً خليلتك مرتادة، مستعملاً عشيقتك قوادة، كاباً نفسك أنك ستنزل عنها إليَّ، وتخاف بعدها عَلَي:

ولستَ بأول ذي هِمّة دَعتْه لِمَا ليس بالنّائل

ومنها:

هجين القذال، أرعن السبال، طويل العنق والعِلاوة، مفرط الحمق والغباوة. بغيض الهيئة، سخيف الذهاب والجيئة، ظاهر الوسواس، منتن الأنفاس، كلامك نمنمة وحديثك غمغمة، وبيانك فهفهة، وضحكك قهقهة، ومشيتك هرولة، وغناك مسألة، ودينك زندقة، وعلمك مخرقة.

مساوٍ لو قُسمنَ على الغواني لَمَا أُمهرن إلا بالطلاق

وكلها على هذا النحو من الإقذاع والفحش والتهكم.

٥٣ ــ ابن حمديس الصقلي
١٠٥٥ ـ ١١٣٣ م
٤٧٧ ـ ٥٣٧ هـ

نشأته وحياته:

ولد عبد الجبار بن حمديس بجزيرة صقلية وعرف في بيئته منذ حداثته بمعالجة القريض؛ ولكنه ظل مجهول الذكر في أسواق الأدب فلا يسير شعره ولا يُعرف قدره. حتى استولى النرْمنْدِيون على وطنه وهو في ميعة الشباب، فرأى بعينه وسمع بأذنه كيف سام الغاصب قومه سوء العذاب، وكيف جر على بلده شر الخراب، فهاجر إلى اسبانيا عام ٤٧١، ونزل بأشبيلية يمتاح فضل المعتد بن عباد، فحجبه مدة لا يلتفت إليه ولا يعبأ به، حتى قال ابن حمديس: «قنطت لخيبتي مع فرط تعبي، وهممت بالنكوص على عقبي فإني لكذلك ليلة من الليالي في منزلي إذ بغلام معه شمعة ومركب، فقال لي: أجب السلطان! فركبت من فوري ودخلت عليه فأجلسني على مرتبة من فرو الفنَك، وقال لي افْتَحْ الطاق

---

٥٣ ـ انظر ترجمته في: وفيات الأعيان: ١/٣٠٢، والتكملة: ص ٦٣٧، ومطالع البدور: ١/٣٦، ودائرة المعارف الإسلامية: ١/١٤٥، وانظر الأعلام للزركلي: ٣/٢٧٤.

التي تليك، ففتحتها وإذا بكور من الزجاج على بعد والنار تلوح من بابيه، وواقده يفتحهما تارة ويسدهما أخرى، ثم أدام سد أحدهما وفتح الآخر، فحين تأملتها قال لي:

أجز: أنظرهما في الظلام قد نجما فقلت: كما رنا في الدُّجْنة الأسد
فقال: يفتح عينيه ثم يطبقها فقلت: فعلَ امرىء في جفونه رمد
فقال: فابتزه الدهر نور واحدة فقلت: وهل نجا من صروفه أحد؟

فاستحسن ذلك وأمر لي بجائزة سنية وألزمني خدمته.

وظل الشاعر يتقلب في نعم الملك حقبة من الدهر حتى أنزله ابن تاشفين عن دسته، ونفاه من ملكه، فتبعه ابن حمديس إلى منفاه فمات الملك بعد أربع سنين من نكبته، وأقام الشاعر في المهدية قاعدة أفريقية، ثم انتقل إلى ميورقة فتوفي بها معوَّجَّ القناة مكفوف البصر.

أخلاقه

كان ابن حمديس صحيح العقيدة، وقور النفس، رقيق الشعور، قوي الملاحظة ظاهر الجد، كثير الانقباض. شديد التشاؤم؛ ولكنه كان سمح الأخلاق، حلو المعاشرة، يحضر مجالس الطرب، ويخالط أصحاب اللهو، في عفة نفس وكرم وخلق وسلامة عرض، ويبلغ من وصف ذلك مبلغ الإجادة والإبداع. وهو القائل:

أصف الراح ولا أشربها وهي بالشّد وعَلَى الشّرْب تدور
كالذي يأمر بالكرِّ ولا يصطلي نار الوغى حيث تفور

وهذه الصفات التي ذكرناها إنما استنتجناها من شعره، ولا ندري أهي فيه من طبيعة ميلاده. أم هي أثر من آثار نكبته في بلاده.

شعره:

شعره مرآة صافية تجلت فيها أخلاقه: فهو عفيف اللفظ، نبيل الفكرة، لا يسف إلى المجون، ولا يتورط في الغي. وقد دعاه ظلم الزمان ولؤم الإنسان وعلو السن إلى التبرم بالحياة، والشكوى من الناس، والثورة على النفس، وسلوك مذهب أبي العتاهية في الوعظ والتزهيد والتصوف بلغته الواضحة وأسلوبه المُشرق. ثم تأتلق نفسه وينشرح صدره أحياناً فتتفتح مشارعه لجمال الطبيعة، ولذات الحياة، وعجائب الكون، فيصف النهر والزهر والصيد والخيل والليل وقصور الترف، ومجالس الطرب؛ يرسم كل أولئك بلفظ أنيق، وتصوير دقيق وعبارة بينة. ولعلك تلمس ذلك فيما نختاره لك من شعره، وكله مجموع مطبوع في بالرم سنة ١٨٧٣ وفي رومية سنة ١٨٩٧ م.

نموذج من شعره:

قال في وصف نهر:

ومُطَّرد الأجزاءَ يصقل متنه ... صباً أعلنت للعين ما في ضميره

جريح بأطراس الحصا كلما جرى ... عليها شكا أوجاعه بخريره

وقال يصف بركة في قصر ابتناه المنصور بن أعلى الناس ببجاية، عليها أشجار من الذهب والفضة وأسود من المرمر، والماء يخرُج من أطراف تلك وأفواه هذه:

وضراغم سكنت عرين رَآسة ... تركت خرير الماء فيه زئيراً

فكأنما غشّى النضار جسومَهَا ... وأذاب في أفواهها البأورا

أسدٌ كأن سكونها متحرّكٌ ... في النفس لو وجدت هناك مثيراً

وتذكّرت فتكاتها فكأنما ... أقْعت عَلَى أدبارها لتثورا

وتخالها والشمس تجلو لونها ... ناراً وألسنها اللواحس نوراً

فكأنما سلَّتْ سيوف جداول ... ذابت بلا نار قُعدنَ غديراً

وكأنما نسج النسيمُ لمائه ... دِرعاً فقدَّر سَردّها تقديراً

وبديعة الثمرات تعبر نحوها ... عيناي بحر عجائب مسحوراً

شجرِّيةٌ ذهبية نزعت إلى ... سِحْر يؤثِّر في النهى تأثيراً

قد سُرِّجت أغصانها فكأنما ... قبضت بهنَّ من القضاء طيوراً

وكأنما تأبى لوْ قَّع طيرها ... أن يستقل بنهضها وتطيرا

من كلِّ واقعةٍ نرى منقارها ... ماء كسلسال اللجيْن نميراً

خرس تُعَدُّ من الفصاح فإن شدت ... جعلت تُغَرِّد بالمياه صفيراً

وكأنما في كل غصن فضة ... لانت فأرسل خيطها مجروراً

وتربك في الصهريج موقع قَطْرها ... فوق الزّبرجد لؤلؤ منثوراً

ضحَكت محاسنه إليك كأنما ... جُعِلت لها زُهر النجوم ثغوراً

وقال يبكي ذنوبه ويستغفر ربه:

يا ذنوبي ثقَلْتِ واللّه ظهري ... بان عذري فكيف يقبل عذري

كلما تبت ساعة عدت أخرى ... لضروب من سوء فعلي وهُجري

ثقلت خطوتي وفودي تعرّى ... غيهب الليل فيه عن نور فجري

دبَّ موت السكون في حركاتي ... وخبا في رماده حرُّ جمري

وأنا حيث سرت آكل رزقي ... غير أن الزمان يأكل عمري

كلما مرَّ منهُ وقتُ بربح ... من حياتي وجدت في الربح خسري

يا رفيقاً بعبده ومحيطاً ... علمه باختلاف سري وجهري

مِل بقلبي إلى صلاح فسادي ... منه واجبُر برأفة منه كسري

وأجـرنـي بـمـا جـنـاه لـسـانـي وتـنـاجت بـه وسـاوس فكـري

وقال من قصيدة يندب الزمن ويشكو الإخوان:

أتحسبني أنسى وما زلت ذاكراً خيانة دهري أو خيانة صاحبي؟
تغذي بأخلاقي صغيراً ولم تكن ضرائبهُ إلا خِلافَ ضرائبي
ويا رُبَّ نبت تعتريه مرارة وقد كان يُسقى عذب ماء السحائب
علمت بتجريبي أموراً جهلتها وقد تجهل الأشياء قبل التجارب
ومن ظن أمواه الخضارم عذبة قضى بخلاف الظن عند المشارب
ركبت النوى في رحل كل نجيبه تواصل أسبابي يقطع السباسب
ولما رأيت الناس يُرهب شرهم تجنبتهم واخترت وحدة راهب

وقال في الغزل:

عـذّبـت رقـة قـلـبـي ظـلـمـاً بـقـسـوة قـلـبـك
وسُمْتِ جسميَ سقماً ومـا شـفِـيـت بـطـبـك
مـن لـي بـصـبـر جـمـيـل عَلَى رياضة صعبك؟
فيا تشوق بعدى! إلى تَنسُّم قربك!
ووجـنـة غـمـسـتـهـا في الـورد صنعة ربـك
لـقـد جـنـحـت لـسـلـمـى كـمـا جنحت لحربك
فـالـبـدلال الـذي زا د في مـلاحـه عُـجـبـك
فـكـي مـن الأسـر قـلـبـاً عـلـيـه طـابَـعُ حـبـك
ونـعـمِـيـنـي بِـعـتْـبـي فـقـد شـقـيـت بـعـتـبـك

٥٤ ـ ابن خفاجة الأندلسي

١٠٥٨ ـ ١١٣٨ م

٤٥٠ ـ ٥٣٣ هـ

نشأته وحياته:

أبو إسحق إبراهيم بن خفاجة الأندلسي وُلد بمدينة شَقَر أو جزيرة شقَر كما يسميها العرب والظاهر من شعره أنه عاش معيشة الفنانين خليع العذار طليق الإسار فلم يَسْمُ إلى

---

٥٤ ـ انظر ترجمته في: وفيات الأعيان: ١٤/١، وبغية الملتمس: ص ٢٠٢، وصفة جزيرة الأندلس: ص ١٠٣، ومذكرات العناني: ص ٦٤، وانظر الأعلام للزركلي: ٥٧/١.

معالي الأمور، ولم يتول عملاً من الأعمال العامة، ولم يتعرضْ لاستماحة ملوك الطوائف مع تهافتهم الشديد عَلَى أمثاله. وإنما أخلى ذرعه من مشاغل الحياة ووهب نفسه للجمال وفكره للخيال وحسه للذة، وكله للطبيعة. فهو يتنقل بين رباها وخمائلها، ويجول بين مروجها وجداولها، فيقف عند كل رائعة، ويصف كل واقعة، ثم يعود إلى كأس روية فيحتسيها، أو صورة فاتنة فيجتليها، أو ثمرة محرمة فيجتنبها. وتنفّس به العمر عَلَى تلك الحال حتى أتاه اليقين في مسقط رأسه سنة ٥٣٣.

شعره:

ابن خفاجة شاعر الطبيعة ومصورها. قد امتلأت نفسه وعينه من جمال الحياة وجمال الطبيعة، فراح يبرز هذا الجمال المعنوي في صور مختلفة من الجمال اللفظي؛ فانتقى الأساليب الصافية، والألوان الزاهية، ودبجها بزخرف البديع، ووشاها بكثير من المجاز والتشبيه، واستطاع بافتنانه أن يقيك الملل من كثرة تكراره، ووقوفه عند المناظر الحسية في استيحاء أشعاره. أما طلاب الآراء النضيجة والمعاني العميقة، والأفكار الفلسفية، فما أظنهم يرجعون من قراءته بطائل، ولهذا الشاعر نثر متكلف سخيف. يؤكد لك مرة أخرى أن إجادة الصناعتين قلما تتفق لأحد.

نموذج من شعره

قال يصف زهرة:

ومائسة تُزْهَى وقد خلع الحيا ... عليها حِلَى حمراً وأردية خُضراً
يذوب لها ريق الغمائم فضة ... ويجمد في أعطافها ذهباً نضراً

وقال يصف نهراً ينساب في أحد المروج قد تعرَّج مجراه وتعددت مناظره:

لله نهر سال في بطحاء! ... أشهى ورود من لَمى الحسناء
متعطف مثل السوار كأنه ... والزهر يكنفه، مجرُّ سماء
قد رقَّ حتى ظنَّ قرصاً مُفْرَعاً ... من فضة بردة خضراء
وغدت تحف به الغصون كأنها ... هدب يحف بمقلة زرقاء
والماء أسرع جريه منحدراً ... متلوياً كالحية الرَّقطاء
والريح تعبث بالغصون وقد جرى ... ذهب الأصيل عَلَى لجين الماء

وقال يصف بلاد الأندلُس:

يا أهل أندلس، لله درُّكمُ ... ماء وظل وأنهار وأشجار!
ما جنة الخلد إلاَّ في دياركمُ ... ولو تخيرت هذي كنت أختار

وقال أيضاً:

إن للجنة بالأندلس ... مجتلى عين وريا نفس
فسنا صحبتها من شنب ... وَدجا ليلتها من لعس
فإذا ما هبت الريح صبا ... صحتُ: واشوقي الأندلس!

وقال يصف طيفاً ألم به في ليلة طويلة:

ورداء ليل بات فيهِ مُعانقي ... طيف ألَمَّ لظبية الوعساء
فجمعت بينَ رُضابِه وشرابه ... وشربت من ريق ومن صهباء
ولثمت في ظلماء ليلة وفْرَة ... شفقاً هناك لوجنة حمراء
والليلُ مُشْمَط الذَّوائب كِبرةَ ... خِرف يدبُّ عَلَى عصا الجوزاء
ثم انثنى والسكر يسحب فرعه ... وَيجرّ منْ طرَب فضول رداء
تندى بفيهِ أقحوانة أجرع ... قد غازلتهاالشمس غبَّ سماء
وتميس في أثوابِه ريحانة ... كرعت على ظمأ بجدول ماء
نَفَاحة الأنفاس إلا أنها ... حَذَرَ النوى خفاقة الأفياء
فلويت معطفها اعتناقاً، حسبها ... فيه بقْطر الدمع مِن أنواء
والفجر ينظر من وراء عمامة ... عن مقلة كحلت بها زرقاء
فرغبت عن نور الصباح لنوره ... أغْرى بها ببنفسج الظلماء

وقال يصف موقداً هبت عليه ريح فألهبته:

لاعب تلك الريح ذاك اللهبُ ... فعاد عين الجد ذاك اللعب
وبات في مَسرى الصبا يتبعه ... فهو لها مضطرم مُضطرب
ساهرتُه أحسبه مُنتشياً ... يهزّ عطفيه هناك الطرب
لو جاءه منتقد لما درى ... أَلهَبٌ متقَّد أم ذَهب
تلثم منه الرّيح خداً خَجِلاً ... حيث الشرار أعين ترتقب
في موقد رقرق الصبح به ... ماء عليه من نجوم حبب
منقسم بين رماد أزرق ... وبين جمر خلفه ملتهب
كأنما خرت سماء فوقه ... وانكدرت ليلاً عليه شهب

وقال يصف شاباً جميلاً يَسبح:

وصقيل إفْرِنْد الشباب، بطرفه ... سقم، وللعضب الحسام ذباب
يمشي الهوينى نخوة ولربما ... أطرته طوراً نشوة وشباب
شتى المحاسن، للوضاءة ريطة ... أبداً عليه، وللحياء نقاب
وبمعطفيه للشبيبة منهل ... قد شف عنه من القميص سراب

عبـر الخليـج سبـاحـة فكـأنمـا أهـوى فشق بـه السمـاء شهـاب
تـطفـو لغـرتـه هنـاك حبـابـة ويـمـوج مـن ردف ألـفٌ عـبـاب

٥٥ ــ لسان الدين ابن الخطيب
١٣١٣ - ١٣٧٤ م
٧١٣ - ٧٧٦ هـ

نشأته وحياته:

هو ذو الوزارتين أبـو عبد اللّه لسـان الدين المعـروف بابن الخـطيب: ولد بغـرناطـة سنة ٧١٣ في مهد السؤدد والعلم والرياسة، وتخرج على علمائها في علوم اللسان والشريعة والفلسفة والطب والرياضة والتاريخ، وبذ في كل ذلك معاصريه ومناظريه من أدباء الأندلس. ثم وصلته مائة الشعر والأدب بأبي الحجاج يوسف سلطان غرناطة (٧٣٣ ـ ٧٥٥) فاستكتبه، ثم استوزره وأطلق يده في شئون ملكه فاتسع نفوذه وضخم أمره. وما زال في هذا المنصب وتلك الحـظوة حتى توفي أبـو الحجاج وخلفـه ابنه محمـد الخامس فـأقر لسـان الدين في الوزارة. ولكن عقارب الوشاية دبت بين الرجلين فتنكـر له السلطان، ففـر منه إلى إفـريقية فأكرمه ملوكها. ثم توالت عليه مكاره وخطوب انتهت بتسليمه إلى أعدائه، فاعتقلوه بفـاس وأغروا جماعة من الفقهاءِ فـأفتوا بـإلحاده لاشتغـاله بـالفلسفة. فتسـور عليه السجن بعض الأوشاب فقلتوه خنقاً.

منزلته في الكتابة:

لسان الدين كاتب مطبوع على السجع، سـائر في صنـاعته مـع الطبـع، يذهب إلى الإطناب في رسائله شأن كتاب الأندلس. وبما ساق الرسالة الضافية كلها على رويٍّ واحد. والنثر في الأندلس مبنى الخيال والصناعة لغلبة الشعر على أهله. وقل أن تجد فيه السـائغ المقبول لتكلفهم السجع، وعملهم التنميق، وتوخيهم الإطالة فهم شعراء بـالطبـع، وكتاب بالصنعة، على غير ما نرى في أهل الشرق.

وله شعر رقيق اللفظ رائق المعنى مقبول الصنعة. وقد انتهت إليه زعامة العلم والأدب في الأنـدلس، كما انتهت إلى ابن خلدون معـاصره في إفـريقيـة. ولْابْنِ الخـطيب القـدم

---

٥٥ ـ انظر ترجمتـه في: جذوة المقتبس: ص ١٨٤، والاستقصـاء: ٢/١٣٢، والدرر الكـامنة: ٣/٤٦٩، ودائـرة المعارف الإسـلامية: ١/١٥٠، وابن خلدون: ٧/٣٤١، وآداب اللغـة العـربيـة: ٣/٢١٦، والفهرس التمهيدي: ص ٤١٩، وانظر الأعلام للزركلي: ٦/٢٣٥.

الراسخة في التاريخ، ومؤلفاته فيه تبلغ ستين كتاباً، أشهرها كتاب الإحاطة في تاريخ غرناطة، وهو معجم تاريخي لرجالات غرناطة في ثلاثة مجلدات.

نموذج من كلامه:

قال في موشحه المشهور الذي عارض به موشح ابن سهل:

جادك الغيثُ إذا الغيث همي ... يا زمان الوصل بالأندلس
لم يكن وصلك إلا حُلُماً ... في الكرى أو خلسة المختلس

* * *

إذ يقود الدهر أشتات المنى ... تنقل الخطو في ما نرسم
زُمراً بين فرادي وُثيَ ... مثلما يدعو الوفودَ الموسم
والحيا قد جلل الروض سنا ... فثغور الزهر منه تبسم
وروى النعمان عن ماء السما ... كيف يروي مالك عن أنس
فكساه الحسن ثوباً مُعْلماً ... يزدهي منه بأبهى ملبس

* * *

في ليال كتمت سر الهوى ... بالدجى لولا شموس القدر
مال نجم الكأس فيها وهوى ... مستقيم السير سعد الأثر
وطرُ ما فيه من عيب سوى ... أنه مر كلمح البصر
حين لذ النوم منا، أو كما ... هاجم الصبح نجوم الحرس
غارت الشهب بنا، أو ربما ... أثرت فينا عيون النرجس

* * *

أي شيء لامرىء قد خلصا ... فيكون الروض قد كُنِّنَ فيه
تنهب الأزهار فيه الفرصا ... أمنت من مكره ما تتقيه
فإذا الماء تناجى والحصا ... وخلا كل خليل بأخيه
تبصر الورد غيوراً يرما ... يكتسي من غيظه ما يكتسي
وترى الآس لبيباً فَهِماً ... يسرق السمع بأذني فرس

* * *

يا أهَيْلَ الحي من وادي الغضا ... وبقلبي سَكَنٌ أنتم به
ضاق من وجدي بكم رحب الفضا ... لا أبالي شرقه من غربه
فأعيدوا عهد أنس قد مضى ... تُعْنِقوا عانيكم من كربه
واتقوا اللّه واحيوا مغرماً ... يتلاشى نَفساً في نفس
حبس القلب عليكم كرماً ... أفترضون عفاء الحُبَّس

* * *

وبقلبي منكم مقترب ... بأحاديث المنى، وهو بعيد
قمر أطلع منه المغرب ... شقوة المغرى به وهو سعيد
قد تساوى محسن أو مذنب ... في هواه بين وعد ووعيد
ساحر المقلة معسول اللمى ... جال في النفس مجال النَفس
سدد السهم وسمى ورمى ... ففؤادي نهبة المفترس
إن يكن جار وخاب الأمل ... وفؤاد الصب بالشوق يذوب
فهو للنفس حبيب أول ... ليس في الحب لمحبوب ذنوب
حكم اللفظ نهى فاحتكما ... لم يراقب في ضعاف الأنفس
منصف المظلوم ممن ظلما ... ومجازي البر منها والمسي
ما لقلبي كلما هبت صبا ... عاده عيد من الشوق جديد
كان في اللوح له مكتتباً ... قوله: إن عذابي لشديد
جلب الهم له والوصبا ... فهو للأشجان في جهد جهيد
لاعج في أضلعي قد أضرما ... فهي نار في هشيم اليبس
لم يدع في مهجتي إلا ذما ... كبقاء الصبح بعد الغلس

ومن قصار رسائله في الشوق إلى ابن خلدون وهي تمثل طريقته في الكتابة:

أما الشوق فحدث عن البحر ولا حرج. وأما الصبر فسل به أية درج، بعد أن تجاوز اللوى والمنعرج، لكن الشدة تعشق الفرج، والمؤمن ينشق من روح الله الأرج. وأني بالصبر، على إبر الدبر، بل الضرب الهبر، ومطاولة اليوم الشهر، حتى حكم القهر. وهل للعين أن تسلو سلو المقصر، عن إنسانها المبصر، أو تذهل ذهول الزاهد، عن سرها الرائي والمشاهد، وفي الجسد مضغة يصلح إذا صلحت، فكيف حاله إن رحلت عنه ونزحت؟ وإذا كان الفراق هو الحمام الأول، فعلام المعول، أعيت مراوضة الفراق على الراق، وكادت لوعة الاشتياق، أن تقضي إلى السياق.

تركتموني بعد تشييعكم ... أوسع أمر الصبر عصيانا
أقرع سني ندماً تارة ... واستميح الدمع أحيانا

الشعر والكتابة والعلوم والفنون في مصر على عهد الفاطميين

ذهبت ريح العباسيين بعد المتوكل على اللّه لفساد الحكم وسوء النظام واستبداد الوزراء وتنافس الزعماء؛ وانتقص الولاة دولتهم من أطرافها، وغلب الثوار على كثير من أملاكها. وكان العلويون الفاطميون ممن شارك في هذا النهب المقسم، فاقتطعوا منها شمالي إفريقية ثم مصر والشام والحجاز.

قام خليفتهم الأول عبيد اللّه بن محمد بالقيروان سنة ٣٤٦ هـ ثم أرسل خليفتهم الرابع المعز لدين اللّه قائده وكاتبه جوهراً الصقلي إلى مصر في جيش عرمرم ففتحها بالسيف وملكها بالذهب، وحفر حيث نزل سنة ٣٥٧ هـ أساس القصر الكبير لمولاه، وأساس الجامع الأزهر للّه. وأنزل طوائف الجيش حولهما في نحو العشرين خطة ضرب عليها سوراً من اللبن فكان من ذلك مدينة القاهرة التي اتخذها الفواطم منذ يومئذ قاعدة لخلافتهم تعاقب على عرشها منهم أربعة عشر خليفة من سنة ٣٥٧ إلى ٤٦٨ هـ حتى غلبهم عليه صلاح الدين.

ظفرت مصر يوم دخول المعز بالاستقلال والخلافة والأزهر، وخفق العلم الأبيض على القاهرة منافساً للعلم الأسود في بغداد، وللعلم الأخضر في قرطبة؛ ووجدت الآداب العربية والحضارة الإسلامية في ظلال هذه الأعلام الثلاثة سبيلاً إلى الانتشار، ومساعداً على الازدهار، ومعيناً على النمو. وكان الفاطميون في مصر والأمويون في الأندلس إنما يتشبهون بالعباسيين في العراق، يأتمون بهديهم، ويسترشدون بوحيهم، في السياسة والحضارة والأدب والعلم والفن، فلم يحدثوا في شيء من ذلك حدثاً يصح أن ينسب إليهم أو يعتمد فيه عليهم، إلا ما اقتضته طبيعة الإقليم وسياسة التعليم ونظام الاجتماع، ولكن المطاولة بين هذه الخلافات الثلاث كانت تستلزم المنافسة في تقريب الشعراء، وتعضيد العلماء، وتشييدالمدارس، وإنشاء المكاتب. فكما اشتهر الرشيد وابنه المأمون في آسية، اشتهر الناصر وابنه الحكم في أروبة، والعزيز باللّه وابنه الحاكم في إفريقية. فقد شغف العزيز بجمع الكتب واقتنائها وإقرائها حتى بلغ ما في «خزانة الكتب» التي ابتناها في قصره زهاء ألف ألف مجلد في الفقه والنحو والحديث والتاريخ والعلوم. وكان لوزيره يعقوب بن كلس اليد البيضاء والقدم السابقة في إنهاض الأدب والعلم في مصر، فقد كان يندو في داره رجال الأدب والشعر والفقه والصناعة، فيرفدهم ويرشدهم. وكان يجلس للناس في كل جمعة فيدرسهم ويقبسهم ما يؤلف في القراءات والفقه. وأنشأ الحاكم بأمر اللّه مكتبة على نسق بيت الحكمة الذي أنشأه المأمون في بغداد سماها «دار الحكمة»، واستقدم إليها الأدباء والعلماء والفقهاء والأطباء، وأجرى عليهم الأرزاق، وأباح دخولها الناس، فكثرت فيها المناظرات وألقيت بها المحاضرات، والحاكم نفسه يحضرها وينصرها، ويُعْنَى بها كما كان يصنع المأمون. وقد بلغ من عناية الفاطميين باللغة العربية وأدبها أن راقبوها في الدواوين وجعلوا لها ديوان الإنشاء أستاذاً يصحح أخطاء الكاتبين بها، ويرشد العاجزين إلى طريق أدبها. كابن بابشاذ المتوفى سنة ٤٦٩ هـ وابن بَرِّي المتوفى سنة ٥٨٢ هـ. وأخذ الأزهر يشع نوره في خلافة العزيز باللّه، إذ أمر وزيره يعقوب أن يستقدم إليه ما استطاع من فقهاء العالم الإسلامي لينصروا مذهب الشيعة، ويؤيدوا دعوى الخلافة؛ وأن يجري عليهم الوظائف ويشيد لهم المساكن، فانتقل هؤلاء الفقهاء من القراءة إلى الإقراء، ومن المدارسة

إلى الجدل والمراء حتى انتهى الأمر بالأزهر إلى أن صار المدرسة الإسلامية الكبرى.

وبلغت القاهرة المعزية في أواسط القرن الخامس أوج حضارتها، وغاية عمارتها، فغصت برجال الأدب والفنون، وزخرت بمخلفات الأمم والقرون وزهت بما افتن فيه الخلفاء والأمراء والوزراء من تشييد المناظر، وإقامة الدور، وتفخيم القصور، وعقد القباب العجيبة، وصنع المقرنصات البديعة، وتزيين ذلك كله بما عرف عن اليد المصرية الصناع من روائع النقش وبدائع الزخرف وجمال الألوان، وتوشيته بالزجاج الملون، وتبليطه بالرخام المصقول والكاشاني الجميل، ورصفه بالفسيفساء المفوفة «مما طاولت به القاهرة بغداد وقرطبة، وكان نموذجاً صادقاً لارتقاء فن العمارة والزخرفة أواخر القرن السابع وأوائل القرن الثامن. وقلما سمع في تاريخ دولة إسلامية ما سمع عن الخلفاء الفاطميين في سرفهم وامتلاء خزائنهم بالذخائر والجواهر والأعلاق والأسلحة والكتب. ولم يقم في مملكة من الاحتفال ما كان يقوم به خلفاء القاهرة في المواسم والأعياد». وكان للشعر في تلك الحفلات رواج ونفاق، وللشعراء في ميدانه استنان واستباق، فنبغ في آخر هذه الدولة طائفة من الشعراء المصريين جرو على أساليب البغداديين في عصورهم الأخيرة من الميل إلى الصناعة البديعية والحلية اللفظية. وكذلك من نبغ فيها من الكتاب نهجوا هذه السبيل في شيء من التوفيق والإجادة، وحسبك أن تعلم أن القاضي الفاضل إمام الطريقة الرابعة في الأدب العربي إنما تعلم الكتابة في ديوان القاضي ابن حديد في الإسكندرية، وكتب في ديوان الظافر بالقاهرة. ووزر لصلاح الدين بن أيوب بعد ذلك. فطريقته من غير شك كانت هي الطريقة الفاشية في مصر على عهده. وقد فصلنا القول فيها أثناء كلامنا عن الكتابة وعن هذا الكاتب ص ١٦٣ ص ٢٢٩ فارجع إليه.

الشعراء في مصر

نبغ من الشعراء في ربوع النيل أبو علي تميم بن الخليفة المعز لدين اللّه الفاطمي المتوفى سنة ٢٧٥ : وقد اشتهر بشعره الغزلي، وحواره العمري، وأسلوبه القوي، ونسجه الدقيق. روى منه صاحب اليتيمة نخبة صالحة في الجزء الأول ص ٣٤٧ وله ديوان مطبوع.

وابن وكيع الملقب بالعاطس، ولد في قرية قريبة من دمياط وتوفي بها سنة ٣٩٤ وقد عرف بابتكار معانيه وحسن تصرفه.

وأبو الفتوح نصر اللّه بن قلاقس الإسكندري الملقب بالقاضي الأعز، رحل في أعقاب عمره إلى اليمن ومدح بعض حكامها فأغنوه، ولكن السفينة التي كانت تحمله وهو عائد إلى مصر غرقت على مقربة من دهلك فعاد إلى اليمن صفر اليدين، ثم سافر إلى صقلية ورجع منها فمات في عيذاب سنه سنة ٥٦٧.

وهبة اللّه بن سناء الملك الملقب بالقاضي السعيد، كان من الشعراء المجدودين والرؤساء المعدودين. اتصلت أسبابه بالقاضي الفاضل والعماد الكاتب، وسمت به كفايته إلى مكان رفيع من الخطوة والثروة. وكان في مصر على عهده جماعة من الشعراء الذين ألف بينهم الأدب فكانوا يجتمعون ويتناشدون ويتسامرون، وكان هو واسطه قلادتهم ومحل رياستهم. وهو أول من سبق إلى الموشحات وأجادها من شفراء الشرق. وله الموشحة المشهورة التي مطلعها:

كللي يا سحب تيجان الربى بالحلى واجعلي سوارك منمطف الجدول

ثم جمال الدين بن مطروح وُلد بأسيوط ونشأ في قوص واتصل بخدمة الملك الصالح الأيوبي حتى جعله ناظراً على الخزانة ثم وزيراً لنائب دمشق، ثم تقلبت به الحال من سفر وحضر ورصاً وسخط حتى توفي بالقاهرة سنة ٦٤٩ هـ.

ثم الشاعر الغزلي الرقيق كمال الدين بن النبيه، وإليك ترجمته.

٥٦ ــ كمال الدين بن النبيه

٠٠٠ ـ ١٢٢٢ م

٠٠٠ ـ ٦١٩ هـ

نشأته وحياته:

نشأة هذا الشاعر القدير مجهولة، وحياته مرت عادية هادئة، كالجدول السلسال في الروض الأفيح، لا تسمع غير أنغامه وخريره. فلم يلق بنفسه في غمار السياسة وهو يعج بين يديه ومن خلفه، واكتفى بمدح بني أيوب في مصر حتى اتصل بالملك الأشرف موسى صاحب الجزيرة وخلاط، فكتب له في ديوان الإنشاء وأقام بنصيبين في خدمته حتى توفي بها سنة ٦١٩ هـ.

شعره:

ابن النبيه شاعر غمْرُ البديهة مليح النادرة، منسجم الأسلوب، وحسن الوشي مطبوع على البديع؛ فهو يتوخى الحلية اللفظية ويشتد في طلبها، ولكن يخيل إليك أنه لا يتلقفها ولا يتكلفها لجمال صياغته وقوة صناعته. وما رأيت شاعراً قبل هذا الشاعر يتكلفُ بالبديع

---

٥٦ ـ انظر ترجمته في: فوات الوفيات: ٢/٧١، والأعلام للزركلي: ٤/٣٣١، والنجوم الزاهرة: ٦/٢٤٣، والعبر: ٥/٨٤، وحسن المحاضرة: ١/٥٦٦.

هذا الكلف، ويسرف فيه هذا السرف، ثم يضطرك وأنت تقرأه إلى الرضا عنه والإعجاب به. ذلك لأن أسلوبه قوي الحياة، شديد الحركة، كثير التنوع، مزدهر الألوان، يستر بقوة طبعه ما يبدو من ضعف صنعته، كقوله في المدح مثلاً:

فحريق جمرة سيفه للمعتدي ... ورحيق خمرة سيبه للمعتفي
يا بدر! تزعم أن تقاس بوجهه ... وعلى جبينك كلفة المتكلف؟
يا غيم! تطمع أن تكون ككفه ... كلا وأنت من الجهام المخلف

ولم يكد شعره يخرج عن أغراض ثلاثة أجادها كلها إجادة قل أن تظفر بمثلها في عصره. وهي المدح، وكله في بني أيوب إلا قصيدة أو قصيدتين مدح بهما الخليفة الناصر العباسي؛ والغزل والوصف، ولا يجيء بهما مستقلين، وإنما يسوقهما مقدمة لمدحه. فأما مدحه فقد سلك فيه الطريقة المألوفة من ذكر الفتح والنصر والبأس والجود. وأما غزله فمن النوع الحسي الشهواني الذي لا يتعدى جمال الشكل، من ليل الشعر، وصبح الوجه، وسحر الجفون، وسهام العيون ولؤلؤ الثغر، وياقوت الشفة الخ. أما الإحساس القلبي بالحب والإدراك النفسي للجمال فشيء لا تظفر به فيه. والراجح في الظن أنه كان يقوله عَلَى أنه باب من أبواب الشعر، لا على أنه فيض من الشعور، ونور من الإلهام. أما وصفه فأكثره في الخمر ومجالسها، وأقله في الطبيعة ومناظرها.

وعلى الجملة فابن النبيه شاعر عذب الروح، كثير الافتتان؛ مغرق في المجاز والتشبيه والبديع. مجيد للمطالع، محسن للتخلص. وله ديوان طبع في بيروت وفي مصر.

نموذج من شعره:

قال في أول قصيدة يمدح بها الملك الناصر لدين الله العباسي:

باكرُ صبوحك، أهنى العيش باكرهُ ... فقد ترنم فوق الأيك طائره
والليل تجري الدراري في مجرَّته ... كالروض تطفو على نهر أزاهره
وكوكب الصبح نجاب، على يده ... مُخْلق تملأ الدنيا بشائره
فانهض إلى ذوب ياقوت لها حبَبٌ ... فهل جناها مع العنقود عاصره
ساق تكوَّن من صبح ومن غسق ... فابيض خداه وأسودت غدائره
مهفهف القد يندي جسمه ترفاً ... مخصر الخصر عبل الردف وافره
سودٌ سوالفهُ. لُغس مراشفه، ... نعْسٌ نواظره، خُرْس أساوره
تعلمتْ بانة الوادي شمائله ... وزوّت سحَر عينيه جآذره
خذ من زمانك ما أعطاك مغتنما ... وأنت ناه لهذا الدهر آمره

فالعسعر كالكأس تستحلي أوائله لكنه ربما مُجَت أواخره

وقال في مطلع قصيدة يمدح بها الملك الأشرف:

أفديه إن حفظ الهوى أوضيعا ملك الفؤاد فما عسى أن أصنعا
من لم يذق ظلم الحبيب كَظَنه حلواً فقد جهل المحبة وادعى
يا أيها الوجه الجميل تدارك الصـ ـبر الجميل فقد عفى وتضعضعا
هل في فؤادك رحمة لمتيم ضمت جوانحه فؤاد موجعاً؟

ومن عزله أيضاً في بعض قصائده:

أجفانه شَرَك القلوب كأنما هاروت أودعها فنونَ فنونه
يا قوتة متبسم عن لؤلؤ خجلت عقود الدر من مكنونه
ساق صحيفة خده ما سُودت عبثاً بلام عذراه وبنونه
جمد الذي بيمينه في خده وحرى الذي في خده بيمينه
طاب الربيع كأنما عجن الصبا كافور مُزْنته بعنبر طيبه
وتفضضت أزهاره وتذهبت فكأنها طاووس في تلوينه

ومن غزله أيضاً:

أماناً أيها القمر المطل! فمن جفنيك أسياف تُسَلُّ
يزيد جمال وجهك كل يوم ولي جسد يذوب ويضمحل
وما عرف السقام طريق جسمي ولكن دَلُّ من أهوى يَدل
يميل بطرفه التركي عني صدقتم. إن ضيق العين بخل
إذا نشرت ذوائبه عليه ترى ماء يرف عليه ظل
أيا ملك القلوب فتكت فيها وفتكك في الرعية لا يحل
قليل الوصل ينفعها فإن لم يُصِبْها وَابل منه فطل
أدر كأس المدام على الندامى فمن خديك لي راح ونقل
بمنظرك البديع تدل تيهاً ولي ملك بدولته أدل

وله قصيدة الرثاء المشهورة التي رثى بها ولد الناصر بالله ومطلعها:

الناس للموت كخيل الطراد فالسابل السابق منها الجواد
والله لا يدعو إلى داره إلا من استصلح من ذي العباد
والموت نقاد، على كفه جواهر يختار منها الجياد
لا تصلح الأرواح إلا إذا سرى إلى الأجسام هذا الفساد

٥٧ ـ ابـن الفـارض
١١٨١ ـ ١٢٣٥ م
٥٧٦ ـ ٦٣٢ هـ

نشأته وحياته:

هو أبو حفص عمر بن علي المعروف بابن الفارض. أَصل آبائه من حماة ووُلد هو بالقاهرة سنة ٥٧٦، وتفقه في الدين، وتوسع في اللغة والأدب، حتى أحرز منهما قسطاً وافراً. ثم وقع في نفسه أن ينهج منهج الصوفية، فاقتفى آثارهم وعرف أسرارهم. وذهب إلى مكة فزار البقاع المقدسة ومكث بها زماناً ثم رجع إلى مصر فقضى بها بقية عمره بين الإعظام والإكرام حتى توفي بالقاهرة ودفن بسفح المقطم سنة ٦٣٢ هـ.

صفاته:

كان ابن الفارض عَلَى تقشفه وتصوفه جميل الهيئة، حسن البزة، ظريف المحضر، محمود العشيرة، وقوراً، كثير الورع، إذا مشى في المدينة ازدحم الناس عليه يلتمسون منه البركة والدعاء. وإذا حضر مجلساً عقدت هيبته ألْسنة أهله فلا يتكلمون. فإذا أراد النظم أخذته غيبوبة يطول أمدها أحياناً إلى عشرة أيام كما قيل، لا يأكل أثناءها ولا يشرب ولا يتحرك، فإذا أفاق أملى شعره!.

شعره:

نشأ ابن الفارض في عصر الأيوبيين وهو عصرٌ تنازعَ النفوس فيه عاملان مختلفان: عامل التصوف والتقوى، لدوام الحروب وتوالي الكروب من المجاعات والموَتان؛ وعامل الفسوق والمجون، لانحلال الأخلاق وتحكم الشهوات، وانتشار المخدرات. واتجه الشعر في مصر وفي غير مصر إلى هاتين الوجهتين. فهو إما أن يراد به الله وإما أن يراد به الشيطان. وابن الفارض قد نشأ نشأة دينية، وربي تربية صوفية، فلم يكن له بد من سلوك طريقة القوم في شعره، ينظم إشاراتهم، ويصف مقاماتهم، ويكثر من نعت الخمر وذكر الغزل، مريداً بذلك الذات الإلهية عن اصطلاحهم. فكَان بذلك مُوجد الطريقة الرمزية في الشعر العربي Symolisme وهو أكثر الشعراء تعملاً للكلام وتكلفاً للبديع وولوعاً بالجناس والطباق، وأسبَرُ

---

٥٧ ـ انظر ترجمته في: وفيات الأعيان: ٣/٤٥٤ ـ ٤٥٦، وميزان الاعتدال: ٢/٢٦٦، والبداية والنهاية: ١٣/١٤٣، والنجوم الزاهرة: ٦/٢٨٨ ـ ٢٩٠، وشذرات الذهب: ٥/١٤٩ ـ ١٥٣ وانظر الأعلام للزركلي: ٥/٥٥ ـ ٥٦.

معاصريه شعراً، لرقته واشتماله على ما يرضي المتصوف الزاهد، والعاشق الماجن: ذاك بباطنه وهذا بظاهره. فالمتصوفون ينشدونه في مجالس الذكر، والخلعاء يغنونه في مجالس الخمر. وقد شرح ديوانه جماعة من العلماء واختلفوا في اغراضه، فمنهم من شرحه على ظاهر اللفظ ولم يتأول شيئًا كالبوريني (١٠٢٤) ومنهم من شرحه وأوّله على طريقة الصوفية كالنابلسي (١١٤٣).

ومن أشهر شعره تائيتاه الكبرى والصغرى، تبلغ الأولى نحو ٦٠٠ بيت والأخرى نحو ١٠٣ بيت. وقد استوعبتا أغراض الصوفيين وأسرارهم، ولا يقرأهما إلا من رزق الصبر والجلد على حلّ هذه الرموز، يقول في مطلع الكبرى:

نعم بالصبّا قلبي صبا لأحبتي ... فيا حبذا ذاك الشذا حين هبت
تذكرني العهدَ القديم لأنها ... حديثة عهد من أهْيل مودتي

أما سائر شعره فجليٌّ واضح يغلب فيه الحنين إلى الحجاز وأهله، والإكثار من ذكر جباله وقراه.

نموذج من شعره:

قال في الغزل:

لم أخْلُ من حسد عليك فلا تضع ... سهري بتشييع الخيال المرجف
وأسأل نجوم الليل هل زاري الكرى ... جفني؟ وكيف يزور من لم يعرف

وقال:

أعِدْ ذكر من أهوى ولو بملام ... فإن أحاديث الحبيب مدامي
كأن عذولي بالوصال مبشري ... وإن كنت لم أطمع برد سلامي
طريحُ جوًى صبٌّ جريح جوارح ... قتيلُ جفون بالدوام دوامي
ضحيحُ عليلٌ فاطلبوني من المنى ... ففيها كما شاء التحول مقامي

وقال في الخمر وفيها كثير من رموز الصوفية:

شربنا على ذكر الحبيب مدامة ... سكرنا بها من قبل أن يُخلَق الكَرمْ
لها البدر كأس وهي شمس، يديرها ... هلال، وكم يبدو إذا طلعت نجم
ولولا شذاها ما اهتديت لحانِها ... ولولا سناها ما تصورها الوهم
يقولون لي: صفها فأنت بوصفها ... خبير، أجل عندي بأوصافها علم
صفاءٌ ولا ماء، ولطفٌ ولا هواء، ... ونور ولا نار، وروح ولا جسم
تقدَّم كل الكائنات حديثُها ... قديمًا ولا شكل هناك ولا رسم
وقالوا شربت الإثم، كلا وإنما ... شربت التي في تركها عندي الإثم

فلا عيش في الدنيا لمن عاش صاحياً ومن لم يمت سُكراً فاته الحزم
على نفسه فليبْكِ من ضاع عمره وليس له فيها نصيب ولا سهم

٥٨ ــ بهاء الدين زهير
١١٨٦ ـ ١٢٥٨ م
٥٨١ ـ ٦٥٦ هـ

نشأته وحياته:

أبو الفضل زهير بن محمد المهلبي وُلد بوادي نخلة على مقربة من مكة ونقل إلى مصر فنشأ بها وتأدب. فلما بلغ أشُدَّه واستوى في العلم والجسم، وبرع في النظم والنثر والخط، اتصل بالملك الصالح ابن الملك الكامل الأيوبي ورافقه إلى الشام والجزيرة. فلما غلبه ابن عمه الملك الناصر صاحب الكرك واعتقله على أثر موقعة بينما خذله قواده، وتألبت عليه أجناده، وانضووا تحت لواء ابن عمه لم ينقُض البهاء عهد ملكه، ودعاء الوفاءِ ألا يخدم غيره. فأقام بنابلس حتى عاد الماء إلى مجراه، ونهض الجد بمولاه، فاسترد الصالح مُلك الديار المصرية فأعاد بهاء الدين إلى خدمته. وعرف له ولاءه ووفاءه، فاتخذ وزيره وموضع سره، يصدر عن رأيه ويمشي على مشورته. وقد نفع كثيراً من الناس بوساطته وشفاعته. وظل على تلك الحال حتى مات الملك الصالح فلزم داره إلى أن حدث بالقاهرة وباء فمات به سنة سقوط بغداد في أيدي التتار.

شعره:

كان بهاء الدين دمِث الأخلاق، رقيق الطباع، لين الجانب، حلو الكلام فأثرت تلك الصفات في شعره، فجاء عذبًا يطمع السامع أن يأتي بمثله لسهولته ورقته، فإذا حاول عجز. فشعره فيضٍ قريحته، ووحي طبيعته، وصورة بيئته. لم يقلد فيه أحداً، ولم يطلب من غير شعوره مدداً، ولم يعبر عنه إلا بلغة المصريين وأساليبهم. فلا تجد كلمة غريبة، ولا جملة معقدة، وإنما تدرك فيه عذوبة النيل وتدفقه، وتلمح عليه جمال جوّه وتألقه. وقد أحسن وأجاد في الغزل والعتاب، وقصر فيما عداهما. وليس في معاني البهاء ابتداع ولا تخيل؛ وإنما هي معان عادية كساها ألفاظًا سهلة، وبث فيها من روحه الفياض قوة التأثير فسمت إلى

---

٥٨ ـ انظر ترجمته في: ذيل الروضتين: ٢٠١، ووفيات الأعيان: ٢/٣٣٢ ـ ٣٣٨، والعبر: ٥/٢٣٠، البداية والنهاية: ١٣/٢١١ ـ ٢١٢، والنجوم الزاهرة: ٧/٦٢ ـ ٦٣، وشذرات الذهب: ٥/٢٧٦ ـ ٢٧٧، وانظر معجم المؤلفين: ٤/١٨٧، والأعلام للزركلي: ٣/٥٢.

أحرار المعاني. وشعره مجموع مطبوع متداول. وقد ترجمه المستشرق الإنجليزي بَلْمَرْ إلى الإنجليزية نظماً وطبعه في كمبردج سنة ١٨٧٦ في مجلدين وعلق عليه.

نموذج من شعره:

قال يخاطب المُتَزَمِّت من صروف الدهر:

لا تعتب الدهر في خطب رماك به ... إن استرد فَفِدْماً طالما وهبا
حاسب زمانك في حاليْ تصرفه ... تجده أعطاك أضعاف الذي سلبا
والله قد جعل الأيام دائرة ... فلا ترى راحة تبقى ولا تعبا
ورأس مالك وهي الروح قد سلمت ... لا تأسفنَّ لشيء بعدها ذهبا
ما كنت أول مفدوح بحادثة ... كذا مضى الدهر لا بدعاً ولا عجبا!
رب مال نما من بعد مرزأة ... أما ترى الشمع القطف ملتهبا؟

وله في الغزل:

خليليَّ أما هذه فديارهم ... وأما غرامي فهو ما تريان
خليليَّ هذا موقف يبعث البكا ... فماذا الذي بالدمع تنتظران؟
فإن كنتما لا تسعداني على الأسى ... قِفا وَدِّعاني ساعة ودعاني
فيا ويح قلبي بالغرام أطعته! ... فمالي أراه في السلو عصاني؟
وإني وإياه كما قال قائل: ... رفيقك قيسيٌّ وأنت يماني

ومن قوله في الغزل أيضاً:

إن شكا القلب هجركم ... مهَّد الحب عذركم
لو رأيتم محلكم ... من فؤادي لسرَّكم
قصِّروا حدة الجفا ... طوَّل الله عمركم

ومن قوله في المزاح:

لك يا صديقي بغلة ... ليست تساوي خردلة
تمشي فتحسبها العيو ... ن على الطريق مشكِّله
وتخال مدبرة إذا ... ما أقبلت مستعجلة
مقدار خطوتها الطويلـ ... ـة حين تسرع أنملة
تهتز وهي مكانها ... فكأنما هي زلزلة
أشبهتها بل أشبهتـ ... ـك كأن بينكما صله
تحكي صفاتك في الثقا ... لة والمهانة والبله

الفصل السادس

العلوم

الترجمة والتأليف

لم يكن ما وُضع في عهد بني أمية من العلوم إلا بذراً نما وأثمر في هذا العصر الذي ثابت فيه العقول من غفلتها، وهبّت الفطن من غفوتها. فلقد عنى خلفاؤه وعلماؤه بتدوين العلوم وترجمتها ونشرها. وكان أسبقهم إلى ذلك الخليفة الثاني أبو جعفر المنصور، فإنه أنشأ المدارس للطب والشريعة، وآستقدم جرجيس بن بختيشوع رأس أطباء جند يسابور ونفراً من السريان والفرس والهنود، فترجموا له كتباً في النجوم والطب. وكان من ذلك كتاب السندِ هَند في الفلك، وكتاب أقليدس في الرياضة. ونقل له ابن المقفع بعض كتب الأدب والمنطق. ثم فترت هذه النهضة أيام الهادي والمهدي حتى قوّاها الرشيد بروْح البرامكة، ونشرها في مملكته المتسعة، وضم إيوانه نوابغ العلماء، وأخذ على نفسه بأن يلحق بكل جامع للصلاة جامعة للعلم، وأن يستصحب مائة من العلماء كلما سافر وكان يحل العلماء على تباين نِحَلهم، فكان أطباؤه وتراجمته من السريان المسيحيين كآل بختيشوع وآل ماسويه وقد ترجم في زمنه منه ما وجد من كتب الطب والكيمياء والنجوم والحيَل والجبر والنبات والحيوان.

وما أفضت الخلافة إلى المأمون ـ وهو في العرب كبريكلس في اليونان؟ وأغسطس في الرومان ـ استعر أوار هذه النهضة العلمية؟ فأتم ما بدأ به آباؤه وآتخذ له بطانة من علماء اليونان والسريان والعجم. وتوافد إليه الحكماء والأدباء من كل حدَب ونِحْلة. وأمر سفراءه وعماله في أرمينية وسورية ومصر أن يبعثوا إليه بما يجدون من كتب في تلك الأصقاع؛ فكانت الإبل ترى من آن إلى آن داخلة بغداد موقرة ظهورُها بجلائل الأسفار العبرانية واليونانية والفارسية. وداخل ملوك الروم وسألهم صلته بما لديهم من الكتب الفلسفية فبعثوا بها إليه. وجعل من شرائط صلحه مع ميخائيل الثالث ملك القسطنطينية أن يرسل إليه بمجموعة من الكتب النادرة فلما حصل كل ذلك عنده استخار له خبر التراجمة فترجم على

خير ما يمكن فلم يبق من كتب الصناعة والعلوم والفنون شيء إلا نقله إلى العربية وأقبل الخلفاء والناس على تلك العلوم درساً وفهماً حتى حلوا رموزها وفتحوا كنوزها، ورقوها بالتفصيل والتكميل أصلحوا خطأ المتقدمين من العرب حتى اليونان أنفسهم ثم بسطوا غير ذلك علوم الشريعة، وضبطوا قواعد اللسان، ووضعوا علوم البيان، ووقعوا على علمي العروض والقافية وحذا الملوك في الشرق والعرب حذو العباسيين فشادوا المدارس، وأقاموا المراصد، وشجعوا العلماء، حتى أثمرت تلك النهضة وكشف العرب وآخترعوا ما لا يجهله العالم ولا ينكره التاريخ.

ولم تزل سوق العلم نافقة حتى ضعف أمر العرب بتغلب التتر وتسلط الترك فسقطت رغبة الملوك فيه، وآنقطعت أسباب الطلب، ودرست المصنفات، وكسدت بضاعة العلم، وظن الناس أن تحصيله سعيٌ باطل، فآقتصروا على شرح الكتب وآختصارها ولم يعنوا إلا بألفاظها.

فلما رأت العلوم أن الشرق قد تجهم لها، وأن الزمان قد أضعف أهلها، لبست ثياب الحداد وسارت قاصدة أوروباعن طريق المغرب والشام، ففتح لها الغرب صدره، وفعل بلوكه بالعلوم العربية ما فعله العرب بالعلوم اليونانية. وأخذ ظل العلوم يتقلص من الشرق ويمتد في الغرب حتى آل الأمر إلى ما نحن عليه الآن!

العلوم الأدبية

علم الأدب:

كان للأدب في عهد بني أمية ما للعلم في عهد بني العباس من سموٍّ المكانة وفرط العناية لحداثة عهد القوم بالبداوة، وتمدّح رجالاتهم باللسن، وحاجتهم إلى فُصَح اللغة وطرَف الشعر في استجلاء غامض الكتاب، واستيضاح غريب السنة، والاستشهاد على ضوابط النحو، وآكتساب ملكة اللسان. وكان الأدب إذ ذاك إنما يؤخذ من الأفواه يُحفظ في الصدور وتُضرب إلى مظانِّه أكباد الإبل. فلما بزغ هلال العصر العباسي وخامر العربَ داء العجمة وآستشرى فساد اللحن، وآختص بالرحلة إليه والتلمُّس له طائفة من العلماء شهروا بالرواة، كحماد الراوية (١٥٦) والخليل بن أحمد (١٧٥)، وخلف الأحمر (١٨٠)، وأبي عبيدة (٢٠٩)، وأبي زيد الأنصاري (٢١٥)، والأصمعي (٢١٦). كانوا يُرودون البادية ويداخلون الأعراب ابتغاء لخبر مستملح، أو شعر مستطرف، أو كلمة غريبة.

وظل الشأن في رواية الأدب للسماع والحفظ، حتى مست الحاجة إلى التدوين لاستعجام العرب واتساع دولتهم. فأخذ العلماء يدونون ما يسمعون. بدأ بذلك أبو عبيدة والأصمعي؛ ولكن الحافظ هو أول من ضم شتيت الأدب وآستوعب أطرافه بكتابيه البيان

والتبيين والحيوان. ثم تتابع العلماء بعده على التصنيف فيه كالمبرد صاحب الكامل، وابن قتيبة صاحب أدب الكاتب، وابن عبد ربه صاحب العقد الفريد، وأبي علي القالي صاحب الأمالي، وأبي الفرج الأصبهاني صاحب الأغاني هؤلاء هم رجال الأدب ومراجعه، وكتبهم هي موارده ومشارعه.

الأدباء

٥٩ ـ الأصمعي
٧٤٠ ـ ٨٣١ م
١٢٣ ـ ٢١٦ هـ

حياته وعلمه:

وُلد أبو سعيد عبد الملك بن قُرَيب الأصمعي (نسبة إلى جده أصمع) سنة ١٢٣ هـ في بيت عربي عريق في الكتابة، ونشأ بالبصرة، وأخذ العربية والحديث والقراءة عن أئمتها. ونقل عن فصحاء الأعراب الذين كانوا يفدون إلى البصرة، وأكثر الخروج إلى البادية، وشافه الأعراب وساكنهم، وربما استغرقت بعض رحلاته سنوات يحج في أثنائها ويلتقي بالفصحاء في المواسم حتى آجتمع له من الأخبار النوادر والغريب ما لم يجتمع لغيره وكان معاصراً لأبي عبيدة منافساً له في اللغة والرواية. وقد فاضل أبو نواس بينهما فقال «إن أبا عبيدة لو أمكنوه لقرأ عليهم أخبار الأولين والآخرين. وأما الأصمعي فبلبل يطربهم بنغماته. وحدث الأصمعي عن نفسه قال: «حضرت أنا وأبو عبيدة عند الفضل بن الربيع فقال لي: كم كتابك في الخيل؟ فقلت مجلد واحد فسأل أبا عبيدة عن كتابه فيها فقال خمسون مجلداً؛ فقال قم إلى هذا الفرس وأمسك كل عضو منه وسمّه، فقال: لست بيطاراً، وإنما هذا شيء أخذته عن العرب. فقال لى قم يا أصمعي وآفعل أنت ذلك. فقمت وأمسكت ناصيته وجعلت أسميه عضواً عضواً، وأنشدت ما قالت العرب فيه إلى أن فرغت منه؛ فقال خذه فأخذته وكنت إذا أردت أن أغيظ أبا عبيدة ركبته إليه» وهذه الحكاية مع دلالتها على فرق ما بين الرجلين تدل على قوة ذا كرة الأصمعي وشدة حافظته. فلا بدع إذ قال إنه يحفظ آثني عشر ألف أرجوزة. وكان الأصمعي مع آشتهاره بالثقة في الرواية والتضلع من اللغة مشهوراً بنقد الشعر

---

٥٩ ـ انظر ترجمته في: التاريخ الكبير: ٥/٤٢٨، والمعارف لابن قتيبة: ص ٥٤٣ ـ ٥٤٤، والجرح والتعديل: ٥/٣٦٣، ومراتب النحويين: ٤٦ ـ ٦٥، وطبقات النحويين للزبيدي: ص ١٦٧ ـ ١٧٤، وتاريخ بغداد: ١٠/٤١٠ ـ ٤٢٠، والأنساب للسمعاني: ١/٢٩٣، وإنباه الرواة: ٢/١٩٧ ـ ٢٠٥، وتهذيب الأسماء واللغات: ٢/٢٧٣، وانظر الأعلام للزركلي: ٤/١٦٢.

obeikandi.com

أيضاً، أخذ ذلك عن خلف الأحمر. وله في الشعر والشعراء آراء عالية. وهو على ظرْفه شديد الورع كثير الاحتراز في تفسير الكتاب والسنة. فإذا سئل عن شيء منهما كان يقول: العرب تقول معنى هذا كذا ولا أعلم المراد منه في الكتاب والسنة. وما زال نديماً للخليفة الرشيد حتى توفي. فلما ولي المأمون وقامت الفتنة بخلق القرآن خاف على دينه وقبع في كسر بيته، وحرص المأمون على أن يصير إليه، فآحتج بكبر سنه وضعفه، فكان المأمون يجمع المشكل من المسائل ويسيرها إليه ليجيب عنها. ورُئِي بعد ذلك راكباً حماراً دميماً، فقيل له: «أبعد براذين الخلفاء تركب هذا؟ فقال هذا وأملك ديني أحب إليّ من ذاك مع فقده». وهكذا رضي من العيش بالكفاف حتى توفي سنة ٢١٦، وله من العمر تسعون سنة.

مؤلفاته:

ترك الأصمعي من المصنفات ما ينيف على آثنين وأربعين مصنفاً أكثرها في اللغة، كآكتاب خلق الإنسان، وكتاب الأجناس، وكتاب الخيل، وكتاب النبات، وكتاب النوادر، وكتاب معاني الشعر، وكتاب الأراجيز، وأغلبها غير مطبوع.

٦٠ ـ أبو الفرج الأصبهاني
٨٩٧ ـ ٩٦٧ م
٢٨٤ ـ ٣٥٦ هـ

نشأته وحياته:

أبو الفرج علي بن الحسين المرواني ولد بأصبهان ونشأ ببغداد وآختلف إلى العلماء والرواة، فسمع الحديث والأخبار، وروى الأنساب والأشعار، وتوسع في النجوم والسيِّر والبيطرة والطب فنُبه ذكره وظهر فضله، والشرق تتنازعه دول مختلفة، فآستطاع أن ينقلب بين هؤلاء الخصوم يفيدهم بأدبه، ويمتعهم بكتبه، ويستفيد من مالهم، ويتقوّى بنفوذهم. وما كان عطاء ملوك الشرق ليكفيه، فكان يؤلف الكتب للأمويين، بالأندلس سراً فينعمون عليه. وكان يجاهر بالتشيع وهو أموي تَقِيَّةً للشيعة ومداراة؛ لأنه في بلادهم نشأ وبفضلهم ظهر.

---

٦٠ ـ انظر ترجمته في: يتيمة الدهر: ٣/١٠٩ ـ ١١٣، وذكر أخبار أصبهان: ٢/٢٢، والفهرست: هي ١٦٦ ـ ١٦٧، والمنتظم: ٧/٤٠ ـ ٤١، ومعجم الأدباء: ١٣/٩٤ ـ ١٣٦، الكامل في التاريخ: ٨/٥٨١، ومرآة الجنان: ٢/٣٥٩ ـ ٣٦٠، وتاريخ بغداد: ١١/٣٩٨ ـ ٤٠٠، وهدية العارفين: ١/٦٨١، ومفتاح السعادة: ١/١٨٤، وانظر الأعلام للزركلي: ٤/٢٧٨.

وكان أكثر الناس حدباً عليه وإيثاراً له، الوزير المهلبي وزير معز الدولة ابن بويه. فآنقطع إليه ومدحه ونادمه حتى مات ببغداد سنة ٣٥٦ هـ وقد خولط قبل موته.

أخلاقه وعلمه:

كان هذا الرجل على ظرفه وأدبه، سليط اللسان، مخشيّ البادرة، تتقيه الملوك والأمراء لعلمه بالأنساب ومثالب البيوتات. وكان قذر الهيئة رث الثوب لا يغسله ولا يبدله. والوزير المهلبي على تنَطسِه وترفه كان يحتمل كل هذا منه لعلمه وحسن حديثه. فقد كان كما قدمنا ملماً بأشتات العلوم، راوياً لمختار المنثور والمنظوم، ثقة فيما يحدِّث، ناقداً لما يسمع. ولم يكن أبو الفرج شاعراً مطبوعاً وإنما كان كاتباً معدوداً، ومؤلفاً قديراً، ومصنفاً مجيداً، وراوية أميناً. وحسبه ميزة وشرفاً كتابه المسمى بالأغاني.

كتاب الأغاني:

أجمع المؤرخون على أنه لم يصنف في بابه مثله، وأن كل كتاب في الأدب كلٌّ عليه، ولولاه لضاع كثير من أخبار الجاهلية وصدر الإسلام وأيام بني أمية؛ ألفه في خمسين سنة، وبناه على مائة الصوت التي اختيرت للرشيد وزيدَت للواثق، وعلى ما تخيره هو من عيون الأغاني، فترجم بقائليها ومغنيها، وذكر ما يدخل فيها من حرب وحب وشعر وفكاهة؛ وحمله إلى سيف الدولة بن حمدان فأعطاه ألف دينار وآعتذر إليه. وكان الصاحب بن عباد إذا سافر حمل كتبه على ثلاثين جملاً. فلما آقتناه آستغنى به عنها. وهو أجزاء كثيرة طبع منها عشرون جزءاً في سنة ١٢٨٥ هـ، ثم عثر أحد المستشرقين على جزء آخر في إحدى مكاتب أوروبا فكملت الأجزاء واحداً وعشرين، وضع لها الأستاذ جويدي الإيطالي فهرساً أبجدياً مطولاً بالفرنسية طبعه في ليدن سنة ١٩٠٠ م ثم نقل هذا الفهرس إلى العربية في مصر وطبع بها هو والكتاب سنة ١٣٢٢ هـ. وتقوم دار الكتب المصرية الآن بطبعه طبعة متقنة مُنَقَّحة بمعونة سَرِي من سراة المصريين ولم يتم وقد آختصره أبو الفرج في مجلد واحد فقد مع سائر كتبه.

نموذج من شعره:

قال يمدح الوزير المهلبي:

ولما انتجعنا لائذين بظله ... أعان وما عَنى ومنَّ وما منَّا
وَرَدْنا عليه مُفْتَرَينَ فَراشنا ... وَرُدْنا حماهُ مجْدِبين فأخصبنا

وقال يخاطبه من قصيدة:

فداؤك نفسيَ، هذا الشتاء ... علينا بسلطانه قد هجم
ولم يبق من نشبي درهم ... ولا من ثيابي إلا رمم
يؤثر فيها نسيم الهواء ... وتخرقها خافيات الوَهم

فـأنـت العـمـاد ونحـن الـعـفـاة وأنـت الـرئـيس ونـحـن الـخـدم

علـم النحـو

جاء هذا العصر والنحو علم يدرس في المساجد ويدوَّن في الكتب، وقد أُحكمت روابطه، وحُققت ضوابطه، وأشبع الكلامَ فيه علماء المصريين: البصرة والكوفة. وإلى الأولين يرجع الفضل في تكوينه وتدوينه. فمنهم أبو الأسود الدؤلي واضعه، وابن إسحق الحضرمي مُعلِّلهُ، وهرون بن موسى ضابطه، وعيسى ابن عمر أول من أَلف فيه، وسيبويه واضع كتابه ومهذب أبوابه. ولم يشتغل به الكوفيون إلا بعد ذيوعه بالبصرة وما جاورها: أخذوه عن البصريين وجاروهم في تلقينه وتدوينه، ونافسوهم في تحصيله وتفصيله. وآشتد الحجاج واللجاج بين الفريقين حتى كان لكل منهما مذهب يؤيده ويعضده. ومنشأ الخلاف بينهما أن البصريين يقدمون السماع: فلا يرون القياس إلا في حال تضطرهم، ويتشددون في الرواية، فلا يأخذون إلا عن الفصحاء الخلّص من صميم العرب لكثرة هؤلاء بالبصرة، وقربها من عامر البادية. أما الكوفيون فلخلاطهم أهل السواد والنبط يعتمدون في أكثر المسائل على القياس، ولا يتحرجون في الأخذ عن أعراب لا يؤمن البصريون بفصاحة لغتهم. فأهل البصرة أوسع دراية، وأوثق رواية؛ ولكن العباسيين آثروا الكوفيين عليهم لالتجائهم إليهم، ولقرب الكوفة من بغداد وتشيعهم لبني هاشم. فآنتشر مذهبهم في حاضرة الخلافة. ولولا الغرض السياسي ما كان لهم شأن يذكر ولا قول يؤثر. وظل الجدل بين الفريقين على أشده حتى تخرب المصران، فجلا علماؤهم إلى بغداد، ونشأ مذهب البغداديين خليطاً من المذهبين، كما نشأ مذهب الأندلسيين حينما عبر النحو إلى الأندلس. وما ابتدأ القرن الرابع حتى انقرضت فرسان المذهبين، وضعفت أنصار الفئتين، فآنقطع النزاع، وآنحسم الجدال، وجرى المؤلفون على المذهب البصري فبسطوه وشرحوه وآقتصروا من المذهب الكوفي على ذكر الخلاف.

ثم طال الكلام بعدئذ في هذا العلم فتباعدت حدوده، وتشعبت أطرافه، حتى جاء المتأخرون فقصروا ذلك الطول وآقتصروا على المبادىء كما فعل ابن مالك في التسهيل، والزمخشري في المفصل. على أن هذا العلم مُني بطائفة من فلاسفة النحاة وسَّعوا الجدل فيه، فقلّبوا وجوه الألفاظ، وأحيوا مَوت اللغات، وخلطوا الشاذ بالصحيح، وجاؤا بالتعديلات الباردة والتقديرات الفاسدة والأقوال المتضاربة، حتى وصلوا بالنحو إلى حال لا يعجز فيها المخطىء عن قول يبرر به وهمه، وحجة يؤيد بها زعمه.

وها نحن أولاء نترجم بأربعة من نابهي النحاة عدا من تُرجم به منهم في غير هذا الباب، واقفين عند ذلك جرياً على ما نهجناه لأنفسنا في هذا الكتاب.

النُّحـاة

٦١ ـ سِيبَوَيْه

٧٦٥ ـ ٧٩٦ م

١٤٨ ـ ١٨٠ هـ

نشأته وحياته:

وُلد إمام البصريين أبو بشر عمرو بن عثمان الملقب بسيبويه (رائحة التفاح) ببلاد فارس ونشأ بالبصرة. وكان في بدء أمره يطلب الحديث والفقه، حتى كان ذات يوم يستملي على حماد بن سلمة، فأملى عليه قول النبي ﷺ: «ليس من أصحابي أحدٌ إلا من لو شئت لأخذت عليه ليس أبا الدرداء»، فقال سيبويه: «ليس أبو الدرداء» فصاح به حماد: لحنت يا سيبويه؛ إنما هذا استثناء» فقال: «لا جرم لأطلبن علماً لا يلحنني معه أحد» فطلب النحو ولازم الخليل، وأخذ عن يونس وعيسى بن عمر، حتى حذَق هذه الصناعة وأحاط بأصولها وفروعها، ووقف على شاذها ومقيسها. ثم وضع كتابه المشهور سرد فيه ما أخذه عن الخليل وأضاف إليه ما نقله عن نحاة المصرين ناسباً إلى كل منهم قوله. فجاء كتابه فريداً في فنه، سديداً في منهجه، ليس وراءه مذهب لطالب ولا مَرَاغ لمستفيد، وقد بلغ من إجلال القوم لهذا المؤلف أن آقتصروا في تسميته على «الكتاب» فإذا أطلق هذا اللفظ عند النحاة لا ينصرف إلا إليه. وكان المبرر إذا أراد مريد أن يقرأه عليه يقول له: «هل ركبت البحر؟» تعظيماً له واستصعاباً لما فيه. وقال أبو عثمان المازني: «من أراد أن يعمل كتاباً كبيراً في النحو بعد سيبويه فليستح» ولولا هذا الكتاب لخمل ذكر صاحبه.

ولما آنس سيبويه من نفسه التفوق في النحو وفد إلى بغداد وقصد البرامكة، والكسائي يومئذ بها يعلم الأمين ابن الرشيدفجمع بين الرجلين يحيى بن خالد. فتناظرا في مجلس أعدَّ لذلك. فكان من أسئلة الكسائي لسيبويه قوله: ما تقول في قول العرب «كنت أظن أن العقرب أشد لسعة من الزنبور فإذا هو إياها» فقال سيبويه «فإذا هو هي، ولا يجوز النصب»

---

٦١ ـ انظر ترجمته في: طبقات النحويين: ص ٦٦ ـ ٧٤، والفهرست: ١/٥١ ـ ٥٢، وبغية الوعاة: ٢/٢٢٩ وأخبار النحويين البصريين: ص ١٥ ـ ١٦، ووفيات الأعيان: ١/٤٨٧ ـ ٤٨٨، ومرآة الجنان: ١/٤٤٥، والبداية والنهاية: ١/١٧٦ ـ ١٧٧، ومفتاح السعادة: ١/١٢٨ ـ ١٣٠، ونفح الطيب: ٢/٣٨٧، والأعلام للزركلي: ٥/٨١.

ووجد في الأصل لهذا الكتاب: أن سيبويه قد توفي سنة ١٧٧ هـ وهو خطأ، وصوبناها من كتاب: سير أعلام النبلاء: ٨/٣٥١، وكذلك من كتاب: الأعلام للزركلي: ٥/٨١: أنه توفي سنة ١٨٠ هـ وقيل سنة ١٨٨ هـ والأول أصح ١٠ هـ.

فقال الكسائي «بل العرب ترفع ذلك وتنصبه» فلما آشتد الخلاف بينهما تحاكما إلى أعرابي خالص اللهجة، فصوّب كلام سيبويه ولكن الأمين تعصب للكسائي لأنه معلمه ولأنه كوفي وضلع الخلفاء كما علمت مع هؤلاء ـ فأراد الأعرابيَّ على أن يقول بمقالة الكسائي. فلما أحس سيبويه تحامل الأمراء عليه وقصدهم بالسوء إليه غادر بغداد وآرتد مغموماً إلى قرية من قرى شيراز تعرف بالبيضاء حيث توفي بالغاً من العمر أربعين سنة ونيفاً.

٦٢ ــ الكسائي
٧٣٥ ـ ٨٠٥ م
١١٩ ـ ١٨٩ هـ

نشأته وحياته:

هو إمام الكوفيين أبو الحسن علي بن حمزة الملقب بالكسائي. نشأ بالكوفة وأخذ لقراءة عن حمزة الزيات، وتميز بقراءة خاصة فعدَّ من القراء السبعة ولم يكن له يد في لشعر، حتى قيل «ليس في علماء العربية أجهل من الكسائي بالشعر» وبلغه الكبر وهو لايدري من النحو شيئاً؛ فأقبل ذات يوم على بعض إخوانه من طلاب العربية وقال متأوهاً من مَشْيٍ طويل: «لقد عيبت!» فقالوا له تجالسنا وأنت تلحن!» فقال كيف لحنت؟ فقالوا له: «إن كنت أردت من التعب فقل أعييت. وإن كنت أردت من انقطاع الحيلة فقل عيبت» فأنف من ذلك التجيبه ولازم معاذاً الهراء والرؤاسي من نحاة الكوفة حتى حصَّل ما عندهما. وزار الخليل بالبصرة فأعجب به وسأله: أنى لك هذا العلم؟ فقال الخليل: من بوادي الحجاز ونجد تهامة. فخرج الكسائي إلى البادية فطاف أحياءها، وسمع فصحاءها، حتى آستكمل حظه من الرواية، وآستوفى قسطه من اللغة. ولما رجع من البادية استقدمه المهدي واستخلصه لنفسه. ثم أقامه الرشيد مؤدباً لولده الأمين. وعظمت مكانته عنده حتى كان يجلسه هو والقاضي محمد بن الحسن على كرسيين متميزين بحضرته ويأمرهما ألا ينزعجا لقيامه ومجيئه. ومكثا معه على هذه المنزلة حتى خرج إلى الري وهما بصحبته، فماتا في يوم واحد بِرَنْبويه على مقربة من الري فبكاهما وقال: «دفنت الفقه والعربية بالري».

مؤلفاته:

انتهت إلى الكسائي الزعامة في العربية والقراءة بالكوفة وبغداد وألف فيهما نحواً من

---

٦٢ ـ انظر ترجمته في: التاريخ الصغير: ٢/٢٤٧، ومراتب النحويين: ص ٧٤، ٧٥، وطبقات النحويين: ١٣٨، ١٤٢، والفهرست: ص ٢٩، وتاريخ أبي الفداء: ٢/١٧، ودول الإسلام: ١/١٢٠، وطبقات المفسرين: ١/٣٩٩، ومعرفة القراء: ١/١٠٠ ـ ١٠٧، وتاريخ بغداد: ١١/٤٠٣، وسير أعلام النبلاء: ٩/١٣١، والأعلام للزركلي: ٤/٢٨٣.

عشرين كتاباً. منها كتاب معاني القرآن. وكتاب النحو. وكتاب النوادر، وكتاب الهجاء، ورسالة في لحن العامة.

٦٣ ـ الفـرَّاء
٧٦١ ـ ٨٢٢ م
١٤٤ ـ ٢٠٧ هـ

نشأته وحياته:

ولد أبو زكريا يحيى بن زياد الفراء بالكوفة. ولزم الكسائي حتى استمد منه وتخرج عليه. وشافه الأعراب وأخذ عنهم. ثم نظر في علوم كثيرة من الطبيعة والنجوم وأخبار العرب وأشعارها، فآمتاز بذلك من أستاذه الكسائي. وكان ميالاً إلى مذهب المعتزلة. ويحب النظر في علم الكلام عن غير أن يكون له طبع فيه، فآكتسب بذلك ملكة النظام والترتيب، وقوة الاستنباط والتعليل، ولا يعرف في الكوفيين من خدم اللغة العربية غيره. قال أبو العباس ثعلب: (لولا الفراء لما كانت اللغة العربية. لأنه حصَّلها وضبطها ولولاه لسقطت) وقال أبو بكر الأنباري: (لو لم يكن لأهل بغداد والكوفة من علماء العربية إلا الكسائي والفراء لكان لهم بهذا الافتخار على جميع الناس).

ولما عظم أمره خرج إلى بغداد فمهد له الكسائي الإقامة بها وخلفه على درسه بعد موته. فلما ولي المأمون اتصل به ونفق عنده وعهد إليه بتعليم ولديْه الأدب، وآقترح عليه أن يؤلف ما يجمع أصول النحو وما سمع من العربية. وأمر أن تُفرد له حجرة من الدار ووكل به جواري وخدماً، وسير الوارقين يكتبون ما يملي حتى صنف كتاب الحدود في سنتين. ثم خرج للناس فأملى كتاب المعاني فخزنه الوراقون عن الناس ليكتسبوا بنسخة كل خمس أوراق بدرهم. فشكا الناس إليه. فلما أبوا إخراج كتابه أخذ يملي كتاباً آخر في المعاني أطول وأوسع فخاف الوراقون ورضوا أن ينسخوا كل عشر أوراق بدرهم.

وعظم قدر الفراء في الدولة حتى تسابق ولدا المأمون إلى تقديم نعليه إليه حينما يهم بالخروج، ثم آصطلحا على أن يقدم كل منهما فرداً. وبلغ المأمون ذلك فآستدعاه وقال له: «مَن أعزّ الناس؟» فقال «ما أعرف أعزّ من أمير المؤمنين» قال: «بلى، من إذا نهض تقاتل

---

٦٣ ـ انظر ترجمته في: أخبار النحويين البصريين: ص ٥١، ونزهة الألباء: ص ٩٨، والمختصر في أخبار البشر: ق/٣٠، وتذكرة الحفاظ: ١/٣٧٢، وبغية الوعاة: ٢/٣٣٣، ومفتاح السعادة: ١/١٧٨ ـ ١٨٠، ووفيات الأعيان: ٦/١٧٦ ـ ١٨٢، ومرآة الجنان: ٢/٣٨ ـ ٤١، والأعلام للزركلي: ٨/١٤٥ ـ ١٤٦.

عَلَى تقديم نعليه وليًّا عهد المسلمين» فقال: «يا أمير المؤمنين لقد أردت منعهما عن ذلك، ولكني خشيت أن أدفعهما عن مكرمة سبقا إليها، أو أكسر نفسيهما عن شريفة حرصا عليها»، فقال له المأمون: «لو منعتهما عن ذلك لأوجعتك لوماً. وما وضَع ما فعلاه من شرفهما، بل رفَع من قدرهما وبيَّن من جوهرهما، وليس يكبر الرجل وإن كان كبيراً عن ثلاث: عن تواضعه لسلطانه ووالديه ومعلمه».

وللفراء مؤلفات كثيرة كان يمليها عَلَى تلاميذه دون كتاب لقوَّة حافظته. وكان أكثر مقامه في بغداد، فإذا كان آخر السنة خرج إلى الكوفة فأقام بها أربعين يوماً بين أهله يفرق عليهم ما جمع حتى توفي سنة ٢٠٧ هجرية.

٦٤ ــ ابن الحاجب

١١٧٤ ـ ١٢٤٩ م

٥٧٠ ـ ٦٤٦ هـ

نشأته وحياته:

ولد أبو عمرو عثمان بن عمر المعروف بابن الحاجب بإسنا من صعيد مصر. وكان أبوه كردياً يتولى الحجابة للأمير عز الدين موسك الصلاحي فقدم القاهرة صغيراً وآشتغل بالقرآن حتى حفظه، وتفقه في الدين على مذهب الإمام مالك. وتلقى القراءات وشارك في سائر العلوم، وغلب عليه علم العربية. ورحل إلى دمشق فقرأ بجامعها أمالي في النحو على مواضع من المفصل والكافية ثم عاد إلى الاسكندرية فقضى بها نحبه سنة ٦٤٦ هـ.

مؤلفاته:

له من المؤلفات كتابا الكافية والشافية في النحو، وكتاب المقصد الجليل في علم الخليل في العروض، والأمالي النحوية، ومنتهى السؤال والأمل، في علم الأصول والجدل، وهو مطول على مذهب الإمام مالك اختصره في كتاب يعرف بمختصر ابن الحاجب، وكتاب جامع الأمهات في الفقه.

علم اللغة

فسدت ملكة اللسان في الحركات فآستنبط العلماء قوانين لضبطها فما أغنت عن اللغة

---

٦٤ ـ انظر ترجمته في: ذيل الروضتين: ص ١٨٢، وطبقات القراء: ٢/٥١٦ ـ ٥١٧، العبر: ٥/١٨٩، الطالع السعيد: ص ١٨٨، وشذرات الذهب: ٥/٢٣٤، والديباج المذهب: ٢/٨٦ ـ ٨٩، ووفيات الأعيان: ٣/٢٤٨ ـ ٢٥٠، وغاية النهاية: ١/٥٠٨ ـ ٥٠٩، والأعلام للزركلي: ٤/٢١١.

وما بطَّأت باللحن. بل تطرق ذلك الفساد إلى مدلولات الألفاظ وآستعمالها، ففزعوا في حفظها إلى الكتابة والتدوين ضَنّاً بكتاب اللّه ولسان العرب على الجهالة والدروس. بدأ بذلك بعض أئمة العربية فأملوا كتباً صغيرة في الألفاظ الخاصة بخلق الإنسان أو الجمل أو الخيل أو النبات. فلما جاء الخليل بن أحمد مهد الطريق إلى ضبط اللغة وتدوينها بوضعه كتاب (العين)، فإنه أحصى ما يتركب من حروف المعجم من الثنائي والثلاثي والرباعي والخماسي بمتوالية حسابية أبانت له عدد المهمل والمستعمل، ورتبه على مخارج الحروف من الحلق فاللسان فالأسنان فالشفتين، وبدأ بحروف العلة. وقد اختصره أبو بكر الزبيدي المتوفى سنة ٢٧٩ لهشام المؤيد بالأندلس، وشاع هذا المختصر حتى فضل على أصله. ومضى على معجم الخليل أكثر من قرن لم يدوّن في اللغة غيره، حتى جاء أبو بكر ابن دريد فآستمد منه ومن غيره كتاب الجمهرة ورتبه على حروف المعجم، وتلاه الأزهري فصنف كتاب التهذيب على ترتيب الخليل. ثم وضع الجوهري من المشرقيين كتاب الصحاح، وابن سيده من الأندلسيين كتاب المحكم، وابن فارس كتاب المجمل. وتلك هي أصول المعجمات وأسسها. أما غيرها من العباب والتكملة والنهاية ولسان العرب والقاموس فهي جمع لها أو اختصار.

ومما يحمل التنبيه إليه والثناء عليه كتاب فقه اللغة للثعالبي المتوفى سنة ٤٢٩ فقد فرق فيه بين الوضع والاستعمال، وجمع به المعاني المترادفة والمتقرابة في باب واحد، مبنياً ما بينها من فروق وما نالها من تدرج أو تفرع؛ وكتاب أساس البلاغة للزمخشري المتوفى سنة ٥٣٨، فإنه بيَّن فيه ما تجوزت به العرب من الألفاظ والمدلولات. وإنك لتجد في هذين الكتابين من الكشف عن خصائص اللغة، والفحص عن أسرار العربية، ما لا غُنية عنه لكاتب، ولا غاية بعده لطالب.

اللغويون

٦٥ ـ الخليل ابن أحمد

٧١٨ ـ ٧٨٦ م

١٠٠ ـ ١٧٤ هـ

نشأته وحياته:

ولد أحمد أو عبد الرحمٰن الخليل بن أحمد الفراهيدي بالبصرة ونشأ بها؛ وأخذ النحو

---

٦٥ ـ انظر ترجمته في: التاريخ الكبير: ٣/١٩٩ ـ ٢٠٠، وطبقات ابن المعتز: ص ٩٦ ـ ٩٩، وطبقات النحويين: ص ٤٧ ـ ٥١، ومعجم الأدباء: ١١/٧٢ ـ ٧٧، وإنباه الرواة: ١/٣٤١ ـ ٣٤٧، والبلغة في =

والقراءات والحديث عن أئمة العربية وعليه الرواة كأبي عمرو بن العلاء وعيسى بن عمر. ثم أبْدَى فسمع الفصيح وجمع الغريب حتى نبغ في اللغة نبوغاً لا يعرفه التاريخ لغيره. وأخذ عن سيبويه وعن نفر من الأئمة كالنضر بن شميل ومؤرج السدوسي. وبقي بالبصرة مقيما طول حياته على فاقة وتقشف، نزوعاً بنفسه عن مواقف الضراعة، وتجافياً بها عن مطارح الهوان؛ حتى قيل إن سليمان بن علي وجه إليه من الأهواز لتأديب ولده، فأخرج الخليل إلى رسول سليمان خبزاً قفاراً وقال له: «كلْ، فما عندي غيره، وما دمت أجده فلا حاجة بي إلى سليمان» وانكب ذلك الرجل العظيم على العلم يستنبط ويؤلف ويعلم حتى ذهبت نفسه في سبيله. فقد رُوي أنه قال: أريد أن أعلم نوعاً من الحساب تمضي به الجارية إلى البقال فلا يظلمها. فدخل المسجد وهو يُعمل فكره، فاصطدم في سارية صدمة شديدة ارتج منها مخه رجة أودت بحياته.

علمه وعمله:

كان الخليل غاية في تصحيح القياس وتعليل النحو واستنباط مسائله وأكثر كتاب سيبويه منقول عنه أو مستمد منه. وكان على معرفة بالموسيقى. وضع أول كتاب فيها على غير إلمام أجنبية ولا علم بآلة موسيقية. وساعده بصره بالنغم على اختراع علم العروض لما بين الإيقاع في الأنغام والتقطيع في الأجزاء من الشبه؛ فضبط أوزان الشعر الخمسة عشر، وحصرها في دوائرها الخمس ووقعها على المقاطع والحركات. وشغل بذلك نفسه ووقته حتى كان يقضي الساعات في حجرته يوقع بأصابعه ويحركها. فاتفق أن رآه ولده على تلك الحال فظن به مساً من خيال، فقال له الخليل.

لو كنت تعلم ما أقول عذرتني ... أو كنت تعلم ما تقول عذلتكا
لكن جهلت مقالتي فعذلتني ... وعلمت أنك جاهل فعذرتكا

والخليل أول من ضبط اللغة، وابتكر المعجمات، ووضع للخط هذا الشكل المستعمل.

مؤلفاته:

ألف كتاب العين في خراسان وسماه بأول لفظ منه كعادة السلف ووافته المنية دون إتمامه، فقصد إلى ذلك بعض تلاميذه فقصر عنه، فجاء الكتاب مضطرباً مختلاً. وله غيره كتاب النغم، وكتاب العروض، وكتاب الشواهد، وكتاب النقط والشكل. وكتاب الإيقاع.

= تاريخ أئمة اللغة: ص ٧٩، وتهذيب التهذيب: ٣/١٦٣ ـ ١٦٤، وخلاصة تذهيب الكمال: ص ١٠٦، والأعلام للزركلي: ٢/٣١٤.

٦٦ ـ ابـن دُرَيْد
٨٣٨ ـ ٩٣٣ م
٢٢٣ ـ ٣٢١ هـ

نشأته وحياته:

أبو بكر محمـد بن الحسن بن دريد ولـد بالبصـرة ونشأ بهـا وأخذ العلم عن علمـائها كالرياشي والسجستاني، ثم غادرها في فتنة الزنج إلى عمان، فأقام بها اثنتي عشرة سنة يأخذ اللغة والشعر عن الأعراب. ثم عاد إلى البصرة ومنها شخص إلى بلاد فارس منتجعاً الشاه ابن ميكال وولده، وهما يومئذ على عمالـة فارس، وألف لهمـا كتاب الجمهـرة في اللغة، وامتدحهما بالمقصورة، فقلداه الديوان فكانت تصدر كتب فارس عن رأيه، ولا ينفذ أمر إلا بتوقيعه. ولما عزل ابنا ميكال عن عمالة فارس وانتقلا إلى خراسان قدم ابن دريد إلى بغداد عـام ٢٨٠ فاحتفى بـه الوزيـر علي بن الفرات وأفضـل عليـه. وعلم الخليفـة المقتـدر بـه وبمكانهِ من العلم فأجرى عليه خمسين ديناراً في كل شهر كفتـه مؤونة السعي فـانقطع إلى العلم والأدب، وعكف على التأليف، حتى أصيب بالفالج فمات سنة ٣٢١.

أخلاقه وعلمه:

كان ابنْ دُرَيُد مولعاً بآلات الطب. مدمناً للخمـر، مفيداً للمـال، مبيداً لـه في اللهو والهبات، حتى أن سائلاً سأله شيئاً فلم يجد ما يعطيه إياه إلا دَنَّ نبيذ. فأنكر عليه غلامه أن يتصدق به فقـال: ليس عندي سـواه. وقرأ قـوله تعـالى: ﴿**لَنْ تَنَالُـوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُـوا مِما تُحِبّـون**﴾[1] ثم اتفق أن أُهدي إليـه بعد ذلـك عشرة دنـان، فقال لغـلامه: الحسنـة بعشر أمثالها. أخرجنا دناً فجاءنا عشرة.

وقد نبغ ابن درَيد في اللغة والأدب والأنساب وقام في ذلك مقام الخليل بن أحمد. وبرع في الشعر حتى قيل فيه: إنـه أفقه الشعـراء وأشعر الفقهـاء. وقد وضـع على العرب أربعمائة حديث سلك فيها مسلك الرواية والحكاية. وتوخى فيها جمـال الإنشاء، فـدل بها على قوة طبعه في الكتابة. وهي منثورة في خلال كتب الأدب لا تكاد تميزها مما يروى عنه

---

٦٦ ـ انظر ترجمته في: مروج الذهب: ٢/٥١٨، ومعجم الشعراء: ٤٢٥، وغاية النهاية: ٢/١١٦، ومعجم الأدباء: ١٨/١٢٧ ـ ١٤٣، والوافي بالوفيات: ٢/٣٣٩ ـ ٣٤٣، وطبقات الشافعية: ٣/١٣٨ ـ ١٤٢، وتاريخ بغداد: ٢/١٩٥ ـ ١٩٧، ووفيات الأعيان: ٤/٣٢٣ ـ ٣٢٩، والأعلام للزركلي: ٦/٨٠.

(١) سورة: آل عمران، الآية: ٩٢.

من الأخبار والنوادر. ويُظن أنها كانت الملهم الأول لابتداع فن المقامات، وله نظم جزل رقيق يدل على ملكة قوية وقريحة سخية، خيره مقصورته، وهي تسعة وعشرون ومائتا بيت، جمعت كثيراً من أخبار العرب وأمثالهم وحكمهم: وقد شرحها كثير من العلماء وعارضها غير واحد من الشعراء: يقول في مطلعها:

إمَّا ترى رأسيَ حاكى لونه   طُرَّة صبح تحت أذيال الدجى
واشتعل المبيضُ في مسودِّه   مثل اشتعال النار في جزل الغضا

ومنها:

والناس كالنبت فمنه رائق   غضٌّ نصيرُ عُوده مُرُّ الجنى
ومنه ما تقتحم العين، فإن   ذقت جناه انساغ عذباً في اللّها
والناس ألف منهُم كواحد   وواحد كالألف إن أمر عني
وللفتى من ماله ما قدمت   يداه قبل موته لا ما اقتنى
وإنما المرء حديث بعده   فكن حديثاً حسناً لمن وعى
واللوم للحر مقيم رادع   والعبد لا يردعه إلا العصا
وآفة العقل الهوى، فمن علا   على هواه عقلهُ فقد نجا
كم من أخ مسخوطة أخلاقه   أصفيته الود لِخُلق مرتضى
إذا بلوت السيف محموداً فلا   تذممه يوماً أن تراه قد نبا

مؤلفاته:

له غير المقصورة كتاب الجمهرة في اللغة، وكتاب الاشتقاق في أسماء القبائل والعمائر وشعرائها وفرسانها، وكتاب السحاب والغيث، وأخبار الرواة وغير ذلك.

علوم البيان

الغالب في الظن أن أول من تكلم في علم البيان أبو عبيدة في كتابه مجاز القرآن عقب أن سئل عن معنى قوله تعالى: ﴿**طلعها كأنه رءوس الشياطين**﴾[1] فأجاب بأنه كقول امرىء القيس:

أيقتلني والمشرفيُّ مُضاجعي   ومسنونةٌ زُرقٌ كأنياب أغوال

وانقضى العصر العباسي الأول ولم يدون في علم المعاني إلا ما أثر عن فحول الكتاب في حد البلاغة جوابًا لسؤال أو عرضاً في مقال، حتى جاءالجاحظ فألَمَّ ببعض أغراضه في كتابه البيان والتبيين. وحذا حذوه قدامة الكاتب وأبو بكر بن دريد وأبو هلال

(١) سورة: الصافات، الآية: ٦٥.

العسكري؛ إلا أن هؤلاء وإن تكلموا فيه فليسوا واضعيه لقصور كتابتهم وعموم عبارتهم. وإنما يعرف الفضل في وضع هذا الفن للإمام عبد القاهر الجرجاني المتوفى سنة ٤٧١، وللامام أبي يعقوب السكاكي المتوفى سنة ٦٢٦: ذلك اخترع مباحثه وقعَّد قواعده، وهذا مخض زبدته وماز المعاني من البيان فجعلها علمين مستقلين.

أما علم البديع فأول من ألف فيه عبد الله بن المعتز. جمع منه سبعة عشر نوعاً ووقع معاصره قدامة بن جعفر على عشرين توارد معه على سبعة منها. ثم اقتفاهما الناس بالاستخراج حتى بلغت الأنواع في خزانة الأدب لابن حجة الحموي المتوفى سنة ٨٣٧ اثنين وأربعين ومائة نوع!.

ولا تزال هذه الفنون بعيدة عن الكمال لنشوئها عند استضعاف العرب واستعجام اللغة. والمشارقة أقوم عليها من المغاربة، لعناية العجم بها وبعد نظرهم فيها ولم يُعن المغاربة إلا بالبديع لسهولة مأخذه فألحقوه بفنون الشعر وفرعوا ألقابه وعدوا أبوابه.

التاريخ

بدأ تدوين التاريخ عند العرب في مستهل هذا العصر. وكان يومئذ مقصوراً على ما يقتضيه الدين من فروعه «كالمغازي» للوقوف على الأزمنة والأمكنة التي نزلت بها الآيات وقيلت فيها الأحاديث «والفتوح» لعلم ما فتح من البلاد صلحاً أو عنوة، فينتظم أمر الخراج والجزية. «والطبقات» للتعريف براوة الشريعة ووعاة الأدب من الصحابة والتابعين. والعرب أسبق الأمم كافة إلى هذا النوع من التاريخ «والأنساب» لتمييز أشراف القرشيين وسادات القبائل، فتعلم مراتبهم، وتقدر رواتبهم. «وأيام العرب» لتفهم أغراض الشعر بمعرفة أسبابه. وأشهر الكاتبين في هذا النوع على الترتيب ابن إسحق المتوفى سنة ١٥١، والواقدي المتوفى سنة ٢٠٧، وابن سعد المتوفى سنة ٢٣٠، والكلبي المتوفى سنة ٢٠٦، والأصمعي المتوفى سنة ٢١٦

فلما وقف العرب على ما ترجم من تواريخ الأمم، وانقضت الحاجة إلى التاريخ الخاص بانقضاء أسبابه، خطوا في التاريخ خطوة واسعة، واختطفوا فيه خطة جامعة. فكتب عمدة المؤرخين محمد بن جرير الطبري المتوفى سنة ٣١٠ تاريخه العام مرتبة حوادثه على السنين. فنهج المؤرخون طريقته في التصنيف. وفضلوه بما أدخلوه في كتبهم بعدُ من المباحث العلمية والأدبية كأبي زيد البلخي. صاحب كتاب البدء والتاريخ المتوفى سنة ٢٢٢، والمسعودي صاحب مروج الذهب المتوفى سنة ٣٤٦، وابن النديم صاحب الفهرست المتوفى سنة ٣٨٥ وابن مسكويه صاحب تجارب الأمم المتوفى سنة ٤٢١. ثم عني المؤرخون بتذييل كتب التاريخ المدونة عن التأليف فيه. فتعاقب جماعة منهم على

الطبري بالتذييل والتكميل حتى مدوه إلى سنة ٦١٦. وجاء خاتمة مؤرخي هذا العصر أبو الحسن علي بن الأثير ففصَّل كتابه الكامل من الطبري وذيوله وأضفاه إلى سنة ٦٣٧ هـ.

مذهب العرب في التاريخ

للعرب في كتابة التاريخ طريقتان: إما أن يسردوا السنين وما وقع فيها من الحوادث في أي مكان مُسندة من غير اتصال ولا رابطة، كما فعل ابن جرير الطبري وابن الأثير الجزري وأبو الفداء. وتلك الطريقة على إضجارها القارىء هي الأصيلة عندهم كما يؤخذ من تسميتهم هذا الفن بالتاريخ: أي التوقيت. خلافًا لتسمية اليونان إياه بالحكاية أو القصة لروايتهم الوقائع بأسلوب شائق ونمط بديع. وإما أن يسوقوا الحوادث باعتبار الأمم والدول كما فعل المسعودي وابن الطقطقي وابن خلدون وابن العبري.

على أن أرباب الطريقتين على كثرة ما كتبوا لم يهتدوا إلى طريق الفن، ولم يوفقوا إلى إتقانه، لقلة الوسائل عندهم، وتأثير الحاكمين فيهم فجانبوا سبيل النقد محاباة للخلفاء ومهاواة للملوك، وكالوا الحوادث جزافا دون تحقق من صوابها، ولا نظر في أسبابها وأعقابها، وأمسكوا عن الخوض في أحوال الأمة الاقتصادية والاجتماعية والأدبية، قانعين بأخبار الحرب والفتح والولاية والعزل والولادة والوفاة، وفاتهم أن تطوّر الأحوال وتغير الميول في طبقات الأمة له أثر عظيم في سياستها. وأعجب الأشياء أن ابن خلدون وهو أسبق علماء الأمم إلى فلسفة التاريخ لم يبرأ من أكثر هذه العيوب.

على أن لمؤرخينا العذر في هذا القصور، فإن فن التاريخ لا يَتَسَنَّى إتقانه إلا بتوفير وسائله واستكمال علومه: كعلم المسكوكات، وعلم السجلات، وعلم العاديات وعلم الاقتصاد، وعلم الإحصاء، وعلم النقد، وجهل العرب بهذه العلوم كلها أو جلها ساقهم إلى الأخذ بظواهر الحوادث، وعاقهم عن وضع التاريخ بمعناه الحديث.

العلوم الشرعية

علم الحديث

كان أبو جعفر المنصور بعد عمر بن عبد العزيز أول من عنى بتدوين الحديث مخافة ذهابه بموت أصحابه. فأمر مالك بن أنس بوضع الموطأ فوضعه جامعاً بين الحديث والفقه. ثم تبارى العلماء في تحصيل الحديث توسعاً في الفقه، وتذرعاً إلى الفضل، فراجت بضاعته، وانتشرت روايته، وقضى الله أن يندس بين رجاله كثير من أتباع الضلالة وأشياع الفرق فتقوّلوا على الرسول وأدخلوا زور الحديث على أغفال الرواة فكثرت المفتريات وعُمِّي على الناس الحق. فشمر الأئمة للحديث بالنقد والتمحيص، وللرواة بالجرح والتعديل وكان

أسبقهم إلى ذلك إسحق ابن راهويه المتوفي سنة ٢٣٨ فماز الحديث من الفقه. وتلاه شيخ الحديث البخاري، وإمام السنة مسلم، فجمعا صحاح الأحاديث في كتابيهما ثم ظهر بعدهما أربعة كتب في عصر واحد تمت بها الستة الصحاح. وهي كتاب أبي عيسى الترمذي ٢٧٩، وكتاب أبي داود السجستاني ٢٧٥، وكتاب أبي عبد الرحمن النسائي ٣٠٣، وكتاب أبي عبد الله ابن ماجة ٢٧٣.

وقد أطبق الناس على صحة هذه الكتب فشغلوا بها ما بين جمع وشرح وتلخيص. وكلُّ كتاب بعدها كَلٌّ عليها وراجع إليها.

المحدثــون

٦٧ ــ البخاري
٨١٠ ـ ٨٧٠ م
١٩٤ ـ ٢٥٦ هـ

نشأته وحياته:

وُلد أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري ببخارى ونشأ بها يتيماً. فحفظ القرآن وثقف العربية وطلب الحديث في التاسعة من عمره. ولم يكد يبلغ الحلم حتى حفظ منه عشرات الألوف. وفي سنة ٢١١ خرج إلى مكة حاجاً مع أمه وأخيه. فعاد هذان وتخلف هو للتوسع في الحديث فرحل إلى معظم الممالك الشرقية وروى عن علمائها وأخذ عن فقهائها حتى ارجعة الجد العاثر إلى بلاده فَابْتُلِيَ فيها بفتنة القول بخلق القرآن، فأفتى بأنه قديم غير مخلوق، فأُخرج من بخارى مطروداً، فلاقته المنية بقرية على ثلاثة فراسخ من سمرقند.

جمع كتابه «الجامع الصحيح» في ست عشرة سنة وضمنه تسعة آلاف حديث تنخلها من ستمائة ألف. وفيها ثلاثة آلاف مكررة بتكرر وجوهها. وقد أجمع العلماء على أنه أصح كتاب في الحديث حتى من «صحيح مسلم».

---

٦٧ ـ انظر ترجمته في: تاريخ بغداد: ٢/ ٤ ـ ٣٤، وطبقات الحنابلة: ١/ ٢٧١ ـ ٢٧٩، ووفيات الأعيان: ١/ ٥٧٦ ـ ٥٧٧، واللباب: ١/ ٢٣١، وشذرات الذهب: ٢/ ١٣٤ ـ ١٣٦، والوافي بالوفيات: ٢/ ١٦٧ ـ ١٦٩، وطبقات الشافعية: ٢/ ٢ ـ ١٩، ومرآة الجنان: ٢/ ١٦٧ ـ ١٦٩، والأعلام للزركلي: ٦/ ٣٤.

٦٨ ـ مسلم بن الحجاج

٨٢٠ ـ ٨٧٥ م

٢٠٦ ـ ٢٦١ هـ

هو أبو الحسين مسلم بن الحجاج القشيري. ولد سنة٢٠٦ ورحل في طلب الحديث إلى الحجاز والعراق والشام ومصر. وقدم بغداد غير مرة، وأخذ عن البخاري وصادقة ودافع عنه. وروى عن ابن حنبل وابن راهويه، وجمع صحيحه من ثلثمائة ألف حديث. وهو ثاني صحيح البخاري في الصحة والمكانة... ثم ألقى عصا الرحيل بنيسابور، وعاش بها وادعا في ظل ثروته وربح تجارته حتى لقى ربه.

علم الفقه

في صدر الإسلام كانت نشأة هذا العلم، وفي عصر بني العباس كان تحريره وتدوينه ونضجه. وكانت المدينة حينئذٍ عش الفقهاء ومقر المحدثين وكعبة طلاب الفقه ورواة الحديث. فلما استقر ملك العباسيين في العراق انتشر الفقه بين أهله، ونبغ فيه جماعة منهم نهجوا غير سبيل الحجازيين في التشريع. ففقهاء الحجاز لمكانتهم من الرواية وتوسعهم في الحديث بنوا أحكامهم على النصوص، فلا يرجعون إلى القياس الجلي أو الخفي ما وجدوا خبراً أو أثراً. وهم أهل الحديث وزعيمهم مالك بن أنس. وفقهاء العراق لتشددهم في الرواية، وقلة بضاعتهم من السنة، وتأثير الجنسية الآرية فيهم، عمدوا إلى القياس في استنباط الفقه. وهم أصحاب الرأي وزعيمهم أبو حنيفة النعمان. واقتضت سياسة المنصور أنْ يظهر العراق على الحجاز، وبغداد على المدينة، والفرس على العرب، فاستقدم أبا حنيفة إلى بغداد وأكرمه وعزز مذهبه، فانتشر بالعراق وفارس وخراسان والهند والصين والترك. واقتصر مذهب مالك على الحجاز والمغرب الأقصى والأندلس. ثم جاء محمد بن إدريس الشافعي وهو أحد أتباع مالك، فرحل إلى العراق وأخذ عن أصحاب أبي حنيفة مسائل القياس وانفرد بمذهب بين المذهبين وساعدته الرحلة إلى مصر على تنقيح مذهبه، فوضعه وضعاً جديداً ونشره بها ثم نبغ من بعده أحمد بن حنبل فقيس الحديث منه والقياس من بعض الحنفية، واختص بمذهب آخر انتشر في بلاد نجد والبحرين تقيد فيه بالسنة وتشدد في الفروع.

---

٦٨ ـ انظر ترجمته في: الفهرست لابن خير: ص ٢١٢، وتاريخ بغداد: ١٣/١٠٠ ـ ١٠٤، والوافي بالوفيات: ٢/١١٩ ـ ١٢٠ وطبقات الحنابلة: ١/٣٣٧، والتهذيب: ١٠/١٢٦ ـ ١٢٨، والنجوم الزاهرة: ٣/٣٣، وشذرات الذهب: ٢/١٤٤ ـ ١٤٥، ومرآة الجنان: ٢/١٧٤، والأعلام للزركلي: ٧/٢٢١، ومعجم المؤلفين: ١٢/٢٣٢.

وهذه هي المذاهب الأربعة التي قامت على عماد الكتاب والسنة الصحيحة ووقف عندها الاجتهاد وانتهى إليها التقليد في سائر الأمصار.

الفقهاء

٦٩ ـ أبو حنيفة النعمان

٦٩٩ ـ ٧٦٧ م

٨٠ ـ ١٥٠هـ

نشأته وحياته:

هو النعمان بن ثابت مولى تيم الله من أهل الكوفة، وأصل أبيه من فُرس كابل. كان أول أمره خزَّازاً، ثم أقبل على علوم الدين فأخذها عمن شافه الصحابة ونقل عنهم. وآشتهر بالنبوغ فيها حتى أراده المنصور على أن يلي القضاء فأبى وقال: «آتق الله ولا ترعَ في أمانتك إلا من يخاف الله. والله ما أنا مأمون الرضا فكيف أكون مأمون الغضب؟» فقال له المنصور: كذبت! أنت تصلح. فقال له: قد حكمت لي على نفسك. كيف يحل لك أن تولى قاضياً على أمانتك وهو كذاب؟.

فلم يقتنع وألقاه في السجن فلبث فيه حتى قبضه الله إليه. والراجح أن هذا سبب مفتعل، وما سجنه المنصور إلا لميله إلى العلويين.

صفته وأخلاقه:

كان أبو حنيفة رَبعة في الرجال تعلوه سمرة، وكان من أحلى الناس نغمة وأجهرهم صوتاً وأطلقهم لساناً. وكان كثير الخشوع، طويل الصمت، قليل الدعوى، بعيداً عن الغيبة، لا يذكر أحداً بسوء ولو كان له عدواً.

علمه وأدبه:

كان راسخ القدم في علوم عصره إلا العربية، فقد كان يرتضخ لكنة أعجمية ولا يقيم لسانه لحناً. وكان قوي الحجة حتى قال عنه الإمام مالك: «إنه رجل لو كلمته في هذه

---

٦٩ ـ انظر ترجمته في: المقالات للأشعري: ١/١٣٨ ـ ١٣٩، والفهرست: ص ٢٠١، وطبقات الفقهاء: ص ٦٧ ـ ٦٨، وتاريخ بغداد: ١٣/٣٢٣ ـ ٤٥٤، والانتقاء: ص ١٢١ ـ ١٧٥، والوافي بالوفيات: ٢/٢١٥ ـ ٢١٩، واللباب: ١/٣٢٥، والجواهر: ١/٢٦ ـ ٣٢، والبداية والنهاية: ١٠/١٠٧، ومرآة الجنان: ١/٣٠٩ ـ ٣١٢.

السارية أن يجعلها ذهباً لقام بحجته» وهو أول من بوّب الفقه وحرر فصوله ورتب قياسه وقال فيه بالرأي لكثرة الوضاعين من زنادقة العراق، وحرصه على ألا يأخذ بالشك في دينه. فلم يصح عنده إلا سبعة عشر حديثاً. تخرج عَلَيْهِ من فقهاء العراق والكوفة القاضي أبو يوسف (١٨٢) ومحمد بن الحسن (١٨٩) وزفر بن الهذيل (١٥٨) وغيرهم. وقد ينسب إليه كتاب الفقه الأكبر في أصول الدين، وكتاب المخارج في الحيل، ووصيته لأصحابه في الأصول.

٧٠ ـ مالك بن أنس
٧١٢ ـ ٧٩٥ م
٩٥ ـ ١٧٩ هـ

نشأته وحياته:

ولد أبو عبد الله مالك بن أنس الأصبحي بالمدينة ونشأ بها، وأخذ العلم عن ربيعة الرأي (١٢٦) وتعمق في علوم الدين حتى صار حجة في الحديث وإماماً في الفقه. قيل إنه أفتى بخلع المنصور ومبايعة محمد بن عبد الله من آل علي، فأحفظ ذلك جعفر بن سليمان عم الخليفة وأمير المدينة فجرَّده وضربه سبعين سوطاً فما آزداد إلا علاء وشرفاً. وما عتم المنصور أن آعتذر إليه وترضاه وقال له: «لم يبق في الناس أفقه مني ومنك. وقد شغلتني الخلافة، فضع للناس كتاباً ينتفعون به وتجنب رُخص ابن عباس وشدائد ابن عمرو وشواذ ابن مسعود ووطئه للناس توطئة» فصنف الموطأ. سمعه عليه المهدي ثم الرشيد سنة ١٧٤ وظاهرا عليه ثوب النعمة. وبقي مشرقاً لنور العلم، وقبلة لرواة الحديث، وعمدة للفتوى حتى أتاه اليقين بالمدينة.

صفته وأخلاقه:

كان مالك أشقر شديد البياض، أصلع كبير الرأس، حسن البزة وقوراً مهيباً عفيفاً لا يحدث إلا على ضوء، ولا يركب دابة في دار الهجرة على ضعفه. وكان أميناً على العلم فلا يترفع أن يقول في الشيء لا يعلمه: (لا أدري).

علمه وفضله:

كان مالك من حجج الله على خلقه. لا يحدث إلا عن صحة، ولا يروي إلا عن ثقة.

---

٧٠ ـ انظر ترجمته في: في المعارف: ص ٢٥٠، ٢٩٠، والديباج المذهب: ص ١٧ ـ ٣٠، والوفيات: ٤٣٩/١، وتهذيب التهذيب: ٥/١٠، وصفة الصفوة: ٩٩/٢، وحلية الأولياء: ٣١٦/٦، والانتقاء ص ٩ ـ ٤٧، واللباب: ٨٦/٣، وذيل المذيل: ص ١٠٦، والأعلام للزركلي: ٢٥٧/٥ ـ ٢٥٨.

قد توفر حظه من السنة فبنى مذهبه عليها وآنفسخ ذرعه في الفقه فآنتهت إليه الفتوى. وهو القائل عن نفسه: «قل رجل كنت أتعلم منه مامات حتّى يجيئني ويستفتيني» وبذلك سار المثل. «لا يفتى ومالك في المدينة» له كتاب الموطا في الحديث وهو أساس المذهب المالكي، ورسالة في موعظة الرشيد.

٧١ ــ محمد الشافعي
٧٦٧ ـ ٨٢٠ م
١٥٠ ـ ٢٠٤ هـ

نشأته وحياته:

هو أبو عبد الله محمد بن إدريس القرشي الشافعي نسبة إلى جد جده. ولد بغزة في فلسطين على مهد الفقر، ونقل بعد عامين إلى مكة، فنشأ في بني هُذَيْل ودرج بينهم، وكانت أمه الأيّم تعوله مستعينة ببر ذوي قرابته من قريش. وما كاد يناهز الإدراك حتى أنذَرَ في الذكاء والحفظ. قرأ القرآن ودرس العربية وراد البادية في طلب اللغة والأدب، وحفظ الموطأ وما أربى عمره على خمس عشرة سنة ثم رحل في هذه السن إلى مالك فقرأ عليه الموطأ حفظاً. فقال مالك: «إن أحد يفلح فهذا الغلام»، وفي سنة ١٩٥ وفد إلى بغداد فآلتف حوله علماؤها يأخذون عنه، وفيهم أحمد بن حنبل، ولقي محمد بن الحسن فبصَّره بالقياس. ثم دخل مصر عام ١٩٩ فآتخذها دار إقامته، وسكن الفسطاط وأملى بجامع عمرو مذهبه الجديد: وعكف على العبادة والإقراء والتأليف حتى آصطفاه اللّه لجواره فدفن بالقاهرة.

صفته وأخلاقه:

كان رضي الله عنه طويلاً نحيلاً، خفيف العارضين، حسن الصوت، والسَّمْت، فصيح المنطق، راجح العقل قوي الحجة، ثقة في دينه كريماً في خلقه.

علمه وفضله:

كان أفقه الناس في كتاب الله وسنة رسوله، وأبصرهم بأصول العلم والفقه، وحجة في اللغة، وآية في الأنساب والأخبار. وقد بلغ من المكانة في الأدب والدراية في اللغة أن قرأ

---

٧١ ـ انظر ترجمته في: حلية الأولياء: ٩/٦٣ ـ ١٦١، الانتقاء: ص ٦٥ ـ ١٢١، والديباج: ٦٧ ـ ٢٣٠، والأعلام: ٦/٢٦، وطبقات الفقهاء: ٤٨ ـ ٥٠، وتاريخ بغداد: ٢/٥٦ ـ ٧٣، ووفيات الأعيان: ١/٥٦٥ ـ ٥٦٨، وطبقات الحنابلة: ١/٢٨٠ ـ ٢٨٤، واللباب: ٢/٥، والوافي بالوفيات: ٢/١٧١ ـ ١٨١، والتهذيب: ٩/٢٥ ـ ٣١.

عليه الأصمعي أشعار الهذليين. وقال أحمد بن حنبل: «ما أحد يحمل محبرة إلا وللشافعي عليه منَّة».

توسط في مذهبه بين أهل الرأي وأهل السنة. وكثر أشياعه في الأمصار فقسامو الحنفية مناصب التدريس والفتوى. وشجر الخلاف بين أتباع المذهبين، وتعددت المناظرات، حتى نشأ من ذلك علم الخلاف والجدل والراجح أن الشافعي أول من تكلم في أصول الفقه وصنف فيه. وقد ذكر له صاحب الفهرست ما يربى على مائة مؤلف ليس في أيدي الناس منها إلا كتاب الأم في الفقه في سبعة مجلدات، والرسالة في أصول الفقه، ومسند الشافعي في الحديث.

٧٢ ـ أحمد بن حنبل
٧٦٣ ـ ٨٥٥ م
١٦٤ ـ ٢٤١ هـ

نشأته وحياته:

أبو عبد الله، ابن حنبل الشيباني وُلد ببغداد، ونشأ بها يتيماً. وطلب الحديث لست عشرة سنة، وقد كثرت رواته، وعرفت ثقاته، وتميز صحيحه، فجاب الأقطار الإسلامية في سبيل تلقيه وجمعه، حتى حفظ ألف ألف حديث تنخل منها أربعين ألفاً ونيفاً فدونها في كتابه المسند. وهو من أصحاب الشافعي وصفوة تلاميذه، وقد قال فيه وهو راحل إلى مصر: «خرجت من بغداد وما خلفت بها أتقى ولا أفقه من ابن حنبل».

استنبط مذهبه من الكتاب والسنة وشابه بشيء من القياس، فقل أتباعه لبعده عن الاجتهاد وتمسكه بالرواية. وتصدى هو وشيعته لمجادلة المتكلمين ومناضلة الفلاسفة في عصر الرشيد والمأمون. ودُعي إلى القول بخلق القرآن زمن المعتصم فأبى، فضُرب تسعة وعشرين سوطاً حتى تقطر دمه وغاب رشده وآعتل جسمه. ولم ينعم باله إلا في عهد المتوكل نصير السنة. وعاش ما عاش حتى نقله الله إلى دار كرامته فشيعه ثمانمائة ألف رجل وستون ألف امرأة. وكفى بذلك شهيداً عَلَى رفعة شأنه وعظم خطره.

العلوم العقلية
الفلسفة

كانت حرية الفكر في الإسلام سبباً في تعدد الفِرق وظهور المعتزلة. وهم يذهبون إلى

---

٧٢ ـ انظر ترجمته في: حلية الأولياء: ٩/١٦١ ـ ٢٣٣، وتاريخ بغداد: ٤/٤١٢ ـ ٤٢٣، والتهذيب: ١/٢٠ ـ ٢١، وطبقات الحنابلة: ١/٤ ـ ٢٠، والبداية والنهاية: ١٠/٣٢٥ ـ ٣٤٣، والنجوم الزاهرة: ٢/٣٠٤ ـ ٣٠٦، وشذرات الذهب: ٢/٩٦ ـ ٩٨، ومرآة الجنان: ٢/١٣٢ ـ ١٣٤، والأعلام للزركلي: ١/٢٠٣.

تطبيق النصوص الدينية على الأحكام العقلية. وبنو العباس كما علمت أميل إلى القياس والرأي. فآستفاض فيهم هذا المذهب. وآنضوى المأمون إلى أهله وصدع بما لم يصدعوا به فقال بخلق القرآن. وضرّم نار الجدل بين السنة والاعتزال، وزُين له أن يتذرع بمنطق اليونان لقهر خصومه، فهب بترجمة الفلسفة وأنصى الركائب في طلبها، وحدا الناس على النظر فيها والجدل بها. فنشأ من ذلك علم الكلام وكان مبدأ لظهور الفلسفة العربية.

أجل إن الفلسفة العربية طور من أطوار الفكر الإسلامي، وحادث من تاريخ التمدن العربي، فكان عدد الفلاسفة قليلاً، وأثرهم في الشرق ضئيلاً، ولكنهم كانوا حلقة اتصال بين الفلسفة القديمة والفلسفة الحديثة ومناراً لأوروبا العامة يومئذ في غياهب الجهالة، التائهة في مجاهل القرون الوسطى، هداها إلى هذه الحضارة العظمى وتلك الحياة الراقية.

اتخذ المعتزلة من الفلسفة سلاحاً يقارعون به أهل السنة، وأنجى هؤلاء بالطعن عليهم وعليها، وحذروا الناس منهم ومنها، حتى أصبحت الفلسفة مرادفة للزندقة والفيلسوف غرضاً للمقت والسخرية. كان ذلك سراً في عهد المأمون والمعتصم والواثق نصراء الفلسفة وظَهَواء الحكمة، وجهراً في عهد المتوكل وأخلافه محيي السنة ومميتي البدعة فإنهم خفَّضوا من إشراف الفلاسفة وشدو من شكائمهم وألجأوهم إلى التستر وعقد المجامع خفية: فكان من ذلك جماعة (إخوان الصفا وخلان الوفا) وهي أشبه بجماعة «الماسون» في رسومها ورموزها. تألفت بالبصرة في أواسط القرن الرابع للبحث في ضروب الفلسفة، والعمل على نشرها، فكتبوا خمسين رسالة غفلا ضمنوها جملة الفلسفة العربية، وزبدة الحكمة اليونانية وقد بعثت في الفلسفة روح الحياة ومهدت لها طريق الشيوع. ووافق ذلك تغلب البويهيين على بغداد (٣٤٣)وهم شيعيون، ونصرتهم في خذلان السنيين، فأخذت الفلسفة تنفق وتذيع، حتى أصابها ما أصاب سائر العلوم من الضعف والدثور.

أما تاريخ الفلسفة في الأندلس فهو أشبه بتاريخها في الشرق انتقلت إليها زمن عبد الرحمٰن الأوسط (٢٣٨) وتشيع لها اقتداء بالمأمون لقرب عهده منه. فنشط لدرسها الأندلسيون وازداد إقبالهم عليها وآنصرافهم إليها بوصول رسائل إخوان الصفا إليهم على يد أبي الحكم عمرو الكرماني سنة ٤٥٨ فنبغ منهم الفلاسفة وكثر فيهم الحكماء. ولكن اضطهاد العامة لهم كان أكثر، وزرايتهم عليهم كانت أشد فآستبد الملوك بهم مسايرة للشعب، وتحبباً إلى الدهماء، وقيدوا عليهم أنفاسهم، فإذا زل أحدهم في كلمة رجموه أو أحرقوه. وناهيك بما فعله أبو يوسف المنصور الموحدي بهم في أواخر القرن السادس من تمزيق شملهم وتحريق كتبهم.

وهكذا ظل ولاة الأندلس يسوقهم الجهل والاستبداد إلى مطاردة الفلسفة ومحاربتها

حتى فرت من وجوههم لائذة بجيرانهم الفرنجة. ولا بدع فللعوم وأهلها دول تدول وسلطان يزول.

الفلاسفـــة

أول فيلسوف نعرفه من العرب يعقـوب بن إسحق الكندي المتوفى سنة (٢٤٦) وكان معاصراً للمأمون بارعاً في الطب والفلسفة والحساب والمنطق والهندسة والنجوم والألحان. وألف في تلك العلوم واحداً وثلاثين ومائتي كتاب حذا فيها حذو أرسطو. وكان أبرع الناس في الترجمة عن اليونانية. ويليه أبونَصْر الفارابي المتوفى سنة (٢٣٩) الملقب بالمعلم الثاني صـاحب كتاب السيـاسة المـدنية، ومختـرع القانـون في الموسيقى. ثم أبـو علي ابن سينا وأبو حامد الغزالي. وأما الأندلس فقـد نبغ فيهـا أبو بكـر باجـه المتوفى سنة (٥٣٢) وتلميذه ابن رشد، وابن طفيل المتوفى سنة (٥٨٧) صاحب رسالة حي بن يقظان ويحسبنـا أن نترجم بثلاثة من أعلامهم.

٧٣ ــ ابـن ســينـا
٩٨١ ـ ١٠٣٧ م
٣٧٠ ـ ٤٢٨ هـ

نشأته وحياته:

هو الشيخ الرئيس أبو علي الحسين بن سينا ويسميه الفرنج (avicenne) وُلد بقرية من قرى بخارى كان أبوه عاملاً عليها لنوح بن منصور الساماني. ثم آنتقل في طفولته إلى بخارى فحفظ القرآن والأدب وشيئاً من مبـادىء العلوم. وورد بخارى إذ ذاك أبـو عبيد الله النـاتلي فأقرأه كتاب إيساغوجي، وخرَّجه في المنطق فبرَّز عليه فيه، وبصره بمواضع منه. ثم رغب في علم الطب فتلقى أصوله على أبي سهل المسبحي، ودرس فروعه وحده حتى انتهت إليه الزعامة فيه. فقصده الأطباء من كل صوب يستشيرونه ويقتبسون منه. كل ذلك وسنّه على ما قيل لم تجاوز ست عشرة سنة. ثم أبرأ الأمير نوح بن منصور الساماني من مرض برَّح بـه، فقربه إليه وأذن له في الـدخول إلى دار كتبـه، فقرأ فيهـا أثمن الكتب وأجلها. ثم آتفق أن أحرقت تلك المكتبة فتفرد أبو علي بما فيها. ويقال إنه أحرقها لذلك عمداً.

وفي الثانية والعشرين من عمره توفي أبوه فخرج إلى قصبة خوارزم وأخذ يضرب في

---

٧٣ ـ انـظر ترجمتـه في: تاريـخ الفلسفة في الإسـلام: ص ١٦٤ ـ ١٨٨، والطبقـات السنيـة: ص ٧٦١، وروضـات الجنـات ٣/ ١٧٠ ـ ١٨٥، وإيضـاح المكنـون: ٢/ ٥٥٥، والـوافي بـالـوفيـات: ١٢/ ٣٩١ ـ ٤١٢، والشقائق النعامية: ١/ ٤٧٥ ـ ٤٧٨، إغاثة اللهفان: ٢/ ٢٦٦، والمجـددون في الإسلام: ١٨٥ ـ ١٨٩، وتاريخ الحكماء للشهرستاني: ص ٤١٣ ـ ٤٢٦.

الأرض، فوفد على جرجان وزاول التعليم وصنف كتاب القانون في الطب. ثم آنقلب إلى همذان فتقلد الوزارة لشمس الدولة بن بويه، فما لبث غير قليل حتى ثار عليه الجند ونهبوا ماله وسألوا الأمير قتله فآكتفى بنفيه. ولم تهادنه المصائب بعد ذلك فآتّهم عند تاج الدولة بخيانة منكرة فسجنه في إحدى القلاع أربعة أشهر ولم ينجه إلا فراره متنكراً إلى علاء الدولة بأصبهان، فأقام في حماه وادع النفس أحياناً؛ ولكن تعاقب الحوادث عليه أوهن عزمه، وآستبداد الشهوة به أنهك جسمه، فأصيب بداء عياء نكَل عنه تدبيره وطبه، وتوفي بهمذان.

علمه ومصنفاته:

لابن سينا القدم الراسخة في الطب والمكانة السامية في الفلسفة. أخذ بمبادئ أرسطو ولم يُفتن عن دينه، ولم يشك بعد يقينه. إلا أنه كان أبيقورياً مستهتراً. وقد نقل الفرنج عنه أكثر ما عندهم من كتب جالينوس وأبقراط وترجموا أكثر تآليفه إلى اللاتينية وآعتمدوا عليها في بناء الفلسفة الحديثة وهي تبلغ مائة مؤلف، وأشهرها كتاب القانون في الطب، وكتاب الشفاء في الحكمة، يقع الأول في أربعة عشر مجلداً، والثاني في ثمانية عشر.

٧٤ ــ حجة الإسلام الغزالي
١٠٥٨ ـ ١١١٢ م
٤٥٠ ـ ٥٠٥ هـ

نشأته وحياته:

ولد أبو حامد محمد بن محمد الغزالي بطوس، وتلقى دروسه الأولية بها ثم قدم نيسابور فتخرج في أمد يسير على إمام الحرمين أبي المعالي، ولازمه حتى توفي. فوفد على الوزير نظام الملك بالعسكر فآختفى بقدومه وأعجب بعلومه. وناظر بحضرته جماعة من الأفاضل فظهر عليهم ظهوراً أطار ذكره. ففوض إليه التدريس بالمدرسة النظامية ببغداد وأخذ نفسه بدرس الفلسفة فآشتغل بها وهو يعَلم. ثم آنقطع عن التدريس سنة ٤٨٨ ليتخصص لها ويتعمق فيها. فتبين له بعد طول البحث أن الفلسفة والدين ضدان. فناصب الفلاسفة العداء وحمل عليهم بأسلحتهم، وقارعهم بحججهم. فلقب لذلك حجة الإسلام. ثم سلك طريق التزهد، ونهج سبيل التصوف، فوطده على أساس الحكمة، وأيده بحقائق العلم. ثم غادر بغداد فورد الشام وأورشليم والحجاز والإسكندرية؛ وعزم الرحلة إلى مراكش ليلقى الأمير

---

٧٤ ـ انظر ترجمته في: تبيين كذب المفتري: ص ٢٩١ ـ ٣٠٦، وطبقات ابن الصلاح: ٢/٢١ ـ ٢/٢٣، وإتحاف السادة المتقين ١/٦ ـ ٥٣، وهدية العارفين: ٢/٧٩ ـ ٨١، ومعجم المؤلفين: ١١/٢٦٦ ـ ٢٦٩، ومرآة الزمان: ٨/٢٥ ـ ٢٦، ووفيات الأعيان: ٤/٢١٦ ـ ٢١٩، والأنس الجليل: ١/٢٦٥، وروضات الجنات: ١٨٠ ـ ١٨٥، وطبقات الإسنوي: ٢/٢٤٢ ـ ٢٤٥.

يوسف بن تاشفين، فجاءه نعيه قبل سفره فعاد إلى طوس وآشتغل بالتعليم والتأليف. ثم آضطر أن يمارس التدريس ثانية بالمدرسة النظامية، ولكنه ما عتم أن رجع إلى وطنه فآبتنى خانقاة للصوفية ومدرسة للعلوم الدينية، وعكف على العبادة والإفادة حتى مضى لسبيله.

مؤلفاته:

ألف الغزالي كتاب البسيط والوسيط والوجيز في فقه الشافعي، وكتاب إحياء علوم الدين في التصوف، وهو مرتب على أربعة أقسام: العبادات والعادات والمهلكات والمنجيات. وقد قيل في فضله: «لو ذهبت كتب الإسلام وبقي (الإحياء) لأغنى عما ذهب» وله كتاب تهافت الفلاسفة في الرد على فلاسفة اليونان وأتباعهم، وقد طبع أخيراً بمصر، وكتاب مقاصد الفلاسفة في الموضوع نفسه.

٧٥ ــ ابن رشد
١١٥٦ ـ ١١٩٩ م
٥٥١ ـ ٥٩٥ هـ

نشأته وحياته:

هو الوليد محمد بن أحمد بن رشد، ويسميه الفرنج averroés ولد بقرطبة من بيت عريق في المجد أصيل في القضاء، وتخرج على علماء عصره في الفقه والطب والفلسفة، وانقطع إلى النظر في الحكمة حتى توسط باحتها وشارف غايتها. وفي سنة ٥٤٨ قدَّمه ابن طفيل إلى أبي يعقوب يوسف بن عبد المؤمن وكان محباً للفلسفة فلخص له كتب أرسطو. ثم تولى قضاء أشبيلية سنة ٥١٥ ورجع إلى موطنه بعد عامين، وشخص منه إلى مراكش بدعوة من أمير المؤمنين ليتخذه طبيباً له ولكنه ما لبث أن عاد إلى قرطبة قاضياً. ولما مات أبو يعقوب وخلفه والده يعقوب المنصور أقر ابن رشد في مقامه، وبالغ في إكرامه، ولكن الدهر أبى أن ينعم بال الحكيم فسعى به أعداؤه إلى الأمير ورموه عنده بالزندقة والمروق، فنفاه هو وسائر الفلاسفة من أرضه. ثم عاد الأمير إلى نفسه فآستدعاه إلى مراكش وآعتذر إليه، وظاهر نعمته عليه. ولكن ما لبث أن لقيه حمامه بمراكش.

فلسفته وكتبه:

لو صح التناسخ لقلنا إن روح أرسطو تقمصت جسم ابن رشد لتجدِّد عهود الحكمة،

---

٧٥ ـ انظر ترجمته في: الديباج المذهب: ٢٤٨ ـ ٢٥٠، وشجرة النور الزكية: ١/١٢٩، والصلة: ٢/٥٧٦ ـ ٥٧٧، وبغية الملتمس: ص ٥٠، وأزهار الرياض: ٣/٥٩، والغنية: ص ١٢٢ ـ ١٢٥، وهدية العارفين: ٢/٨٥ ووفيات ابن قنفذ: ص ٢٧٠، وكشف الظنون: ص ٣٦١، ١٤١٢.

وتفسر غموض الفلسفة. فإن حكيم العرب تعصب لحكيم اليونان، وزعم أنه وصل بالعلم إلى أبعد غاياته. فوقف نفسه على شرح فلسفته وتلخيص كتبه واهتم الأوربيون بما كتب فترجموه وتعلموه، فكان أساساً لحكمتهم ونبراساً لنهضتهم وقد قال عنه الفيلسوف الفرنسي (إرْنِسْتْ رِينان) في كتابه ابن رشد ومذهبه: «إنه أعظم فلاسفة القرون الوسطى ممن تبع أرسطو ونهج سبيل الحرية في الفكر والقول». ومذهب ابن رشد وأشياعه من تلاميذ أرسطو أقرب إلى مذهب الماديين والقائلين بالحلول: فيزعمون أن المادة أزلية، وأن الخلق حركة اضطرارية في هذه المادة، والخالق هو تلك الحركة أو المحرك. ويرون أن المخلوقات تشارك المادة في أزليتها لكونها منها. فإذا تجرد الإنسان العاقل لتحصيل العلم توصل بالتدرج إلى الاستغراق في الله؛ وأن العقول واحدة في البشر ترجع جميعها إلى العقل الأول الذي يسمونه (العقل الفاعل)، وهذا العقل العام هو وحده متصل بالله دون العقول القردية، فيترتب على هذه الفلسفة أن النفوس تموت مع أجسادها وأن لا خلود إلا للمادة فلا ثواب ولا عقاب، وأن الخالق لا يعلم إلا كليات الحوادث دون جزئياتها. تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً.

وقد فنَّد هذا المذهب حجة الإسلام الغزالي وكثير من علماء أوروبا. على أن ابن رشد كان يحرص الحرص كله على التوفيق بين الفلسفة والدين. فكتب في ذلك كتابه «فصل المقال فيما بين الشريعة والحكمة من الاتصال»، وكتاب «مناهج الأدلة في عقائد الملة»، وعُني بالرد عَلى «تهافت الفلاسفة» للغزالي بكتاب سماه «تهافت التهافت» يقول في آخره: «لا شك أن هذا الرجل أخطأ على الشريعة كما أخطأ على الحكمة، ولولا ضرورة طلب الحق مع أهله ما تكلمت في ذلك» وله غير ذلك مؤلفات كثيرة ككتاب الكليات في الطب، وفلسفة أرسطو، وقد فقدت أصول كتبه فلم تبق إلا ترجمتها اللاتينية أو العبرية.

الفصل السابع

القصص والمقامات في الأدب العربي

القَصَصُ فن من فنون الأدب الجليلة، يقصد به ترويح النفس باللهو، وتثقيف العقل بالحكمة. وله عند الفرنج مكانة مرفوعة، وقواعد موضوعة. أما عند العرب فلا خطر له ولا عناية به، لانصرافهم عما لا رجع للدين منه، ولا غناء للملك فيه؛ وللأسباب التي دعت إلى قصورهم في الشعر القصصي؛ ولأنه نوع من أنواع النثر، والفن الكتابي أو النثر الفني ظل في حكم العدم أزمان الجاهلية وصدر الإسلام حتى آخر الدولة الأموية، حين وضع ابن المقفع الفارسي مناهج النثر وفكر في تدوين شيء من القصص. فكان ما ترجمه هو وأمثاله من نحو كليلة ودمنة، وهزار أفسانه (ألف خرافة) ودارا والصنم الذهب، حُدَيًّا العرب ونموذجا لهم في وضع ما وضعوه منها.

ولما أترف العرب وحمل الأعاجم عن الخلفاء أعباء الخلافة قطعوا لياليهم بالمنادمة والمسامرة. فتنافس الندماء في حفظ الأقاصيص والأسمار، وتسابق أدباء القرنين الثالث والرابع إلى وضعها يسامرون بها الخاصة شفاها. واحتاج العامة من أهل الترف والبطالة إلى من يسامرهم كذلك في ديارهم وأملائهم وأعراسهم. واشتدت هذه الحاجة عندما توالت المصائب والمحن على العالم الإسلامي في أواخر العصر العباسي وبعده من عسف المتسلطين من السلاجقة، وعنف المتغلبين من المغول، وإخلاد الشعب في مصر إلى التبطل والمجون، وتعاطيه المخدرات من الحشيش والأفيون؛ فتقدم إليهم القصاص والمحدثون، وهم للسوقة أشبه بالندمان والمهرجين للملوك فحدثوهم بما جمعوا من أقاصيص الشجعان، وأخبار الجان، وأعمال السحرة، مما تناقلته الأفواه من وراء الأجيال والأزمان، وشاهده التجار والرحالون في أطراف البلدان. ثم عملت في هذه الأحاديث المبالغة وأنماها الاختلاق حتى قيض الله لهذه السير في دونها على أسلوب الحديث من غير قاعدة ولا خطة. ثم تنوسيت أسماؤهم لطول العهد كما تنوسيت أسماء مؤلفي القصص الأفرنجية القديمة، فكان من ذلك قصص عنترة، وبني هلال، وسيف بن ذي يزن، والأميرة ذات الهمة، والظاهر بيبرس، وعلي الزيبق المصري، وفيروز شاه. وفي رأيي أن هذه

القصص كتبت كلها بمصر في القرون الخامس والسادس والسابع للهجرة، فبعضها حين نشوب الحرب الصليبية، وبعضها بعد سقوط بغداد. أما أنها كتبت بمصر فهذا واضح من مواضع وقائعها، وموضوعات حوادثها، وأسماء أشخاصها. وأما أنها كتبت في هذه العهود فذلك بيِّنٌ من لغتها المشوبة، وأساليبها المبتذلة، وخيالها الغريب القوي من أثر المخدرات: وحال الاجتماع يومئذ، ونشوب الحروب الصليبية، اقتضيا تدوين هذه القصص في وصف الوغى، ومدح البطولة، وتمجيد القادة، إثارة للنفوس وتحميساً للجند، كما كان المسلمون يفعلون في القرن الأول للهجرة.

ذلك كان مولد القصة في الأدب العربي وهو شبيه بمولدها في الأدب الغربي: فكلتاهما ولد على إثر الملاحم، وكلتاهما ابتدأ بأخبار الشجعان ومخاطر البطولة. إلا أن القصة الغربية لاحظتها غناية الأدباء، ورعاية النقد، واتساع الحضارة، وتقدم العلم، فنمت وتقدمت. أما القصة العربية بمعناها الفني المعروف فظلت في حجر الطفولة. ومهد الخمول يلهو بها العامة، ويأنف منها الخاصة، ويصد عنها الأدباء والكتاب حتى قبروها مُدْرَجَة في لفائف الميلاد. وإنما برع العرب في الحكايات والأمثال والمقامات.

الحكايات

ألف ليلة وليلة:

فأما الحكايات فأخذوها عن الفرس. وأبدع ما أثر عن هؤلاء منها: كلستار للسعدي، وأصل ألف ليلة وليلة. وهذان الكتابان لا يزالان نموذج هذا الفن في الشرق والغرب. على أن العرب حينما اقتبسوا هذا الفن من الفرس توافروا عليه وتمكنوا منه حتى جاروهم فيه وحتى شاطروهم الشهرة وجاذبوهم الأولية. ولقد طغى ما أدخلوه في ألف ليلة وليلة على ما نقلوه عن الفرس منه فأخفاه. وأصبح الكتاب عنوانًا عريضاً من عناوين الأدب العربي وأثراً خالداً من آثار بنيه.

وأصله على الأرجح كتاب صغير للفرس دعوه (هزار أفسانه) وبنوه على حكاية الملك والوزير وابنته شهرزاد وجاريتها دنيازاد. وقد ترجمه العرب من الفهلوية إلى العربية آخر القرن الثالث للهجرة، ثم دعاهم الإعجاب به إلى توسيعه وتفريعه فأضافوا إليه ما شاكله من أساطير العرب والهنود وأخبار الخلفاء والأمراء والفرسان والأجواد في الجاهلية والإسلام. وبقي بابه مفتوحاً للزيادة عليه حتى القرن العاشر للهجرة، فتكامل نقصانه واستتم بنيانه، وتضاءل ما فيه من وضع الفرس حتى فنى فيما وضع العرب من أقاصيص الجان ومخاطر الشجعان ونجوى الهواتف وأعمال السحرة، التي تستهوي القلب، وتشحذ الخاطر، وتخصب المخيلة.

ومـزية الكتـاب تمثيله لأخلاق العـرب والمسلمين وعاداتهم وأنـظمتهم في العصـور الإسلامية الوسطى بالعراق ومصر والشام مما يفيد الكاتب الاجتماعي والفيلسوف المؤرخ. ومن ثَمَّ عني به الفرنج عناية خاصة فترجمـوه إلى لغاتهم، وأفـردوه بأبحـاثهم. أما إنشـاؤه فمختلف باختلاف الأعصر والأقاليم: فأخبار العـرب ونوادر الخلفـاء وما تـرجم في الصدر الأول تغلب فيه الصحة والفصاحة. وأما ما وضعـه القصاصـون المتأخـرون من عامـة مصر والشام فركيك العبارة، عامي الألفاظ، مبتذل التراكيب، إلا أن مساق الأحاديث جيد، ورباط الحوادث متين.

الأمثـال

كليلة ودمنة:

أما الأمثال فمنشـأها الشـرق؛ لأنه كـان موطن الحكم المـطلق والاستبداد العنيف. انبعث في صدور الضعفاء المستعبدين صدى خافِتاً لاحتجاج مكظوم صـامت لم يجدوا لـه متنفسًا ولا طريقًا إلى آذان الطغاة إلا هذه النكايات والرموز يسترون وراءها مـا يريـدون من نصح وعظة. وقد بدأ ظهور هذا النوع في الهند ثم انتقل منها إلى الصين ثم إلى فارس فبلاد العرب فبلاد الإغريق. وأقدم ما عرف منه أمثال لقمان الحكيم، وإيزوب الـرومي، وبيدبـا الهندي. وأشهر من كتب فيه من أدباء العربية ابن المقفع مترجم كليلة ودمنة. وهذا الكتاب من خيـرة الكتب في تقويم الأخـلاق بالعـظة ورياضـة العقول بـالحكمـة: وضعـه بـاللغـة السنسكريتية بيدبا الهندي لدبشليم الملك منذ عشرين قرنًا ونيفاً على ألسنة البهائم والطيور، وعقـده على اثني عشر بـابًا ثم تـرجم إلى الفهلوية، ونقله عنهـا إلى العـربيـة عبـد الله بن المقفع، وصدره بمقدمة بليغة في التعريف بالكتاب والتحريض على مطالعته، ثم فقد أصله وترجماته إلا العربية، فإنهـا بقيت أصلاً تفـرعت عنه التـرجمات القـديمة والحـديثة. وزاد الكتاب بتوالي الـزمن بما دخله من الأبـواب الفارسيـة والعربيـة، حتى بلغت أبوابـه واحداً وعشرين بابًا.

وقد جاء في دائرة المعارف الإسلامية (وهي موسوعة كبيرة يتـولى تأليفهـا طائفـة من المستشرقين وينشرونها تباعًا بالفرنسية والألمانية والإنجليزية) أن مؤلف هذا الكتاب برهمي لا يعرف اسمه. ألفه في كشمير حوالي القرن الثالث قبل الميلاد في مقدمة وخمسة أبواب وسماه (تنترة) على ما رواه هِرتالHertal ، وهرتال هذا هو الذي نقله عن السنسكريتية ووضع له مقدمة وعلق عليه حواشي وطبعه في ليبسك وبرلين في مجلدين سنة ١٩٠٩ م.

ولهذا الكتاب نسخة أخرى عنوانها (بنجة تنترة) ترجمها إلى الفهلويـة برزويـه طبيب أنـو شروان بـأمره. وأضـاف إليها أبـوابًا من القصص الهنـدي. وعن هـذه التـرجمـة نقـل

ابن المقفع ترجمته العربية وصدرها بمقدمة من وضعه. والراجح أنه أضاف إلى مقدمة برزويه ما يدل على الشك في الأديان. وأضاف إلى الكتاب باب الفحص عن أمر دمنة وباب الناسك وضيفه. وفي بعض النسخ زيدَ عَلَى الكتاب بابان لا يعرف مصدرهما، وهما باب مالك الحزين والبطة، وباب الحمامة والثعلب ومالك الحزين. انتهى.

ومن الناس من يميل به الظن إلى أنه من وضع عبد الله بن المقفع، وما نسبه إلى علماء الهند إلا أملاً في رواجه وانتشاره؛ ولكنه في اعتقادنا ظن بعيد الاحتمال لأن حظ النقل والاحتذاء في كل ما كتب ابن المقفع أبلغ من حظ الإنشاء والابتكار. وقد نظمه كثير من شعراء العرب كأبان اللاحقي وابن الهبارية، وعاوضه سهل بن هرون بكتاب سماه (ثعلة وعفرة).

ثم اشتهر بالكتابة في الأمثال أيضاً ابن الهبارية المتَوفى سنة ٥٠٤ هـ ناظم كتاب الصادح والباغم، وهو منظومة في ألفي بيت على أسلوب كليلة ودمنة ثُمَّ ابن عرب شاه الدمشقي المتوفى سنة ٨٥٤ صاحب كتاب فاكهة الخلفاء ومفاكهة الظرفاء، وهو مجموعة من الأمثال والحكايات نهج فيها منهج كليلة ودمنة وجعلها في عشرة أبواب، إلا أن أمثالها يعيبها التطويل والحشو وإنشاءها يُضعِّفه التعمل والتكلف.

المقامات وكتابها

المقامة حكاية قصيرة أنيقة الأسلوب تشتمل على عظة أو ملحة. ومعنى المقامة في الأصل المقام أي موضوع القيام، ثم توسعوا فيها فاستعملوها استعمال المجلس والمكان، ثم كثرت حتى سموا الجالسين في المقام مقامة كما سموهم مجلساً إلى أن قيل لما يقام من خطبة أو عظة وما أشبهها مقامة أو مجلس، فيقال: مقامات الخطباء، ومقامات القصاص، ومقامات الزهاد: وقد نُشأ هذا النوع من القصص في أواسط الدولة العباسية وهو عهد الترف الأدبي والإنشاء الصناعي الأنيق. وقد أجاده بديع الزمان إجادة أحلته منه محل الزعيم.

وليس الغرض من المقامة جمال القصص ولا حسن الوعظ ولا إفادة العلم، وإنما هي قطعة أدبية فنية يقصد بها «الفن للفن» وتجمع شوارد اللغة ونوادر التركيب في أسلوب مسجوع أنيق الوشي يعجب أكثر مما يؤثر، ويلذ أكثر مما يفيد. ولم تُراعَ قواعد الفن القصصي فيما كتب من هذا النوع؛ فلم يعن كاتبو المقامات بتصوير الحكايات وتحليل الأشخاص، وإنما صرفوا همهم إلى تحسين اللفظ وتزيينه.

وتدور المقامة على حادث عادي يسند إلى شخص معين هو ما يسمى في اصطلاح الفن القصصي بالبطل، كأبي زيد السروحي في مقامات الحريري، وأبي الفتح الإسكندري

في مقامات البديع؛ وبين هذا البطل وبين رجل آخر صلة وثيقة ومعرفة قديمة، فهو يراه في كل حادثة، ويسمعه في كل مجلس، ويفاجأ في كل سر. ثم يروي للناس ما عليه من خير أو شر. ذلك هو الراوي، كعيسى بن هشام في مقامات البديع، والحارث بن همام في مقامات الحريري.

أما كتّابها فقد علمت أن ابن دريد اخترع أربعين حديثاً عرضها عرضاً تضويرياً دقيقاً كانت الطور لنشوء المقامة. ثم جاء بديع الزمان الهمذاني المتوفى سنة ٣٩٨ هـ فأملى أربعمائة مقامة في الكدية وغيرها نحلها أبا الفتح الإسكندري على لسان عيسى بن هشام ولم يعثروا منها إلا على ثلاث وخمسين مقامة. وقد مضى الكلام عنها في ترجمته. ثم جاء بعده الحريري المتوفى سنة ٥١٦ هـ فكتب خمسين مقامة نسبها إلى أبي زيد السروجي على لسان الحارث بن همام، ونسجها على منوال البديع وقد تقدم القول فيها أيضاً. ثم عالج المقامات بعد هذين النابغين طائفة من الكتاب لم يدركوا شأوهما كالمقامات السُّرقَسْطية لابن الأشتركوني المتوفى سنة ٣٥٨ هـ وهي خمسون مقامة أنشأها بقرطبة عند وقوفه على ما أنشأ الحريري بالبصرة، وقد أتعب فيها خاطره وأسهر ناظره ولزم في نثرها لزوم ما لا يلزم. حدث فيها المنذر بن حمام عن السائب بن تمام. ومقامات الزمخشري المتوفى سنة ٥٣٨ هـ وهي مشهورة والمقامات المسيحية لأبي العباس يحيى بن سعيد ابن ماري النصراني البطري الطبيب المتوفى سنة ٥٨٦ هـ نسجها على منوال الحريري. ثم مقامات أحمد بن الأعظم الرازي وهي اثنتا عشرة مقامة كتبها سنة ٦٣٠ هـ وجعل الراوي فيها القعقاع بن زنباع وغيره. والمقامات الزينية لزين الدين بن صيقل الجزري المتوفى سنة ٧٠١ هـ وهي خمسون مقامة عارض بها المقامات الحريرية. نسبها إلى ابي نصر المصري وعزا روايتها إلى القاسم بن جريان الدمشقي. ثم مقامات السيوطي وهي بالرسائل أشبه منها بالمقامات.